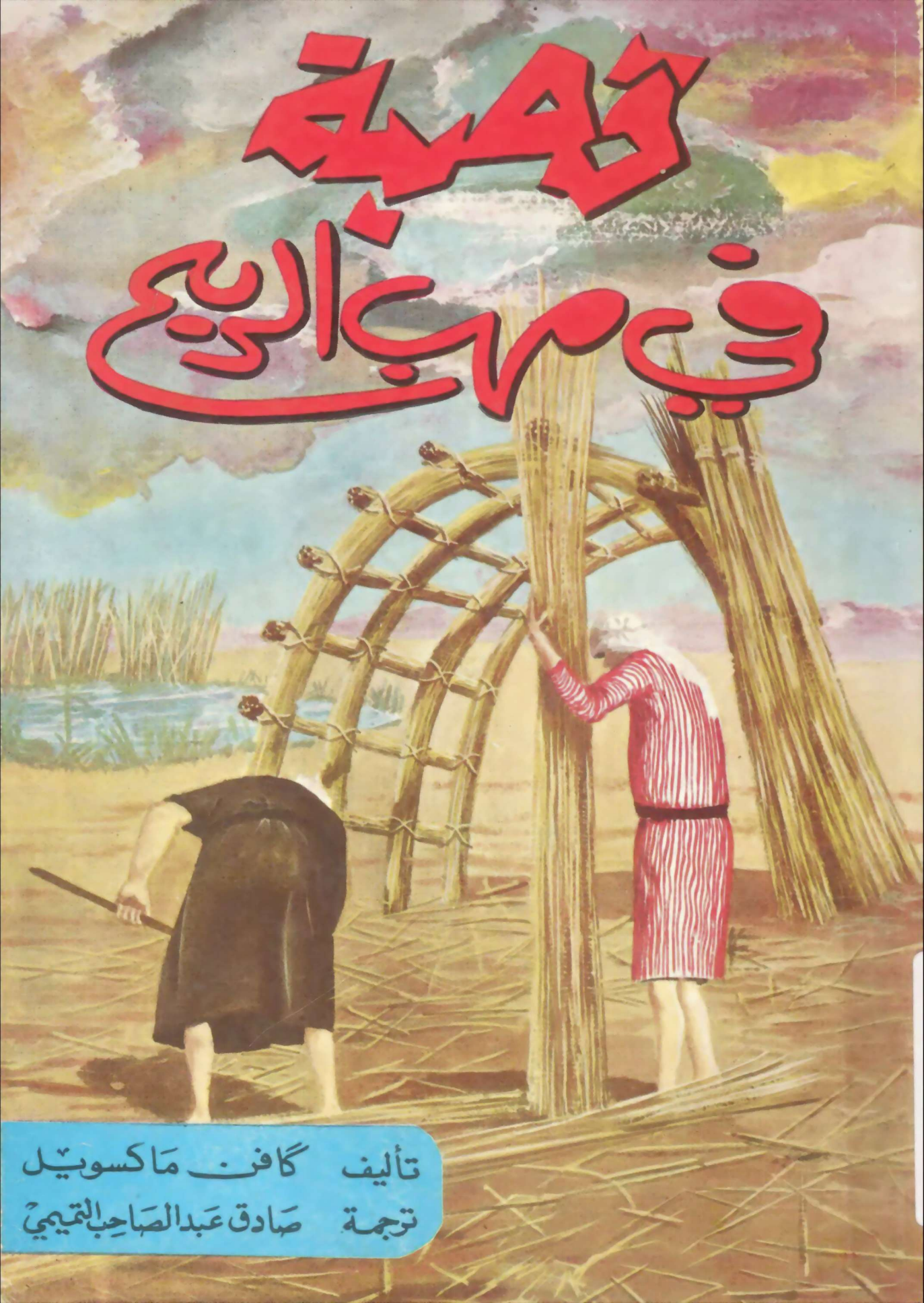


تَمْصِيَّةٌ فِي مَرْجٍ أَلِيْمٍ



تأليف: كافن ماكسويل
ترجمة: صادق عبد الصاحب التميمي

فصحة في صهب الربيع

كافن ماكسويل

قصة
في مهب الريح

ترجمة
صادق عبد الصاحب التميمي

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

**A REED SHAKEN
BY THE WIND**

BY

Gavin Maxwell

Translated By

Sadiq Abdul Sahib Al - Tamimi

مقدمة الناشر

في هذه الترجمات التي تقدمها دار مكتبة الحياة للقارىء العربي تتعمد أمراً ،
أمراً يبلو لها من الأهمية بحيث تراه ضرورة ، والقيام به واجب نبيل ، وهو
اطلاع القارىء العربي على خير ما ينتجه الفكر العالمي المتحضر . وهكذا ترى أنها
تقوم برسالتها كمؤسسة تعي مسؤوليتها وتعمل للاضطلاع بها على أحسن وجه تجاه
بلاد العربية ، فتكون بذلك أداة وصل صادقة وأمينة للفكر العربي الحديث
بالفكر الانساني الناضج المعاصر .

ووفق هذا المخطط الذي تتبعه هذه المؤسسة تقدم الترجمات في جميع الحقول
والأجواء دون تحيز أو انضواء لاتجاه أو آخر ، متوخية من ذلك خلق وعي ذاتي
يقوم على أصالة إدراك للواقع العربي ، ليس تجاه نفسه وحسب ، بل تجاه الواقع
الانساني العالمي عامة .

وهي إذ تقوم بتقديم كتاب « قصة في مهب الريح » لمؤلفه كافن ما كسويل
فإنما تقدم به لوحة عن جزء من البلاد العربية كما وآه أحد المراقبين الغرباء عن
هذه البلاد . وبذلك تكشف عن نواح جغرافية واجتماعية في الوطن العربي قد لا
يلاحظها الدارسون المواطنون بسهولة ، لإلقتهم لها وتماستهم الدائم معها . ولكنها
لمراقب غريب يراها من الخارج ويريدها موضوع دراسة تختلف كل الاختلاف
وتتباين كل التباين في مختلف الوجوه والمناحي . فكافن ما كسويل إذ يصف لنا
بلاداً نعيش فيها ويصف لنا ما نعرفه ونعانيه إنما هو يصف من زاوية العالم المتحضر

موقفا تجاهنا . ومن خلال ما أورده في هذا الوصف نستطيع فهم هذا الموقف منا ،
والدقائق التي يُبرز خطورتها مع إهمالنا نحن لها إنما هي دقائق هامة في مجتمع
الحضارة الحديثة . وما تذكير الغير لنا بأوضاعنا إلاّ دعوة لإعادة نظرة تقييم
جدية لما ألقنا وتقبلنا دون نقد وتمحيص .

الناشر

ظهر لي وكأننا نظير فوق الصحراء منذ فترة طويلة ولم اذكر بدايتها، ولاح لي وكان لا نهاية لها ، فقد امتدت حولي الى افق يزحف اليه الظلام ، ويزداد عتمة كلما اقترب المساء . والشمس المنحدرة وراء الافق الغربي تجسم بشعاعها الحالم منعطفات وحنايا الصحراء لتبرزها بوضوح تام . وكانت الطائرة على انخفاض يتيح لنا رؤية مضارب البدو السوداء مبعثرة هنا وهناك ، ولكن لم يبدئ ما يشير الى بارقة من ماء .

وناولي المسافر الذي يجلس امامي من فوق كتفه التقرير عن حالة الطيران فاستطعت ان اعرف منه ان الطائرة كانت تسير بسرعة ٢٢٠ ميلا في الساعة ، وارتفاعها خمسة آلاف قدم عن سطح البحر ، واتنا سنصل بغداد في الساعة الثانية والعشرين الا ربعا . ونظرت الى رفيقي ولكنه كان نائما ولم أر تلك التفاصيل مسرعة للدرجة التي تستدعي إيقافه لأخبره بها . وناولت التقرير بدوري لراكب آخر ورحت أهدق في الصحراء ، وكانت تتراءى لي بين آونة وأخرى خيالات أشياء ظلها اطول منها ، وقوافل الجمال يقودها البدو ... وهذه القوافل ومضارب النخيام السود كانت الدلائل الوحيدة على وجود الحياة في الصحراء .

وعندما اخذت انظر اليها كنت أحس بانفعال خفي يتملكني جاهدت كثيراً في طرحه عني ، ولكنه أبى الا أن يلح علي اعصابي ، ولما سمعت فيه التفكير اخذني الاستغراب ولفنتني الحيرة فقد ادركت انني اشعر .. بالخوف ! والى جانبي

كان يحلس - ولفرد تيزيجر - وكلته يوحي بأنه يشعر بالاطمئنان بين مضارب البدو
السود وبين جماهم أكثر من شعوره بذلك في وطنه وبين أبناء قومه ... وهكذا
راح في اغفاء عميقة هادئة .

☆☆☆

كنت قد قرأت قبل ذلك بعامين ونصف ، في أيلول من عام ١٩٥٤ ، مقالة
لتيزيجر في - مجلة الجمعية الجغرافية الملكية - واشتهر تيزيجر كسائح في البلاد العربية
وواحد من الرجال الأوائل الذين وضعوا خارطة الربع الخالي ، تلك المساحة من
الصحراء المقفرة التي تشكل القسم الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة العربية . وكان
عنوان تلك المقالة - سكان الأهوار في جنوب العراق - (١) وقد وصف فيها حياة
قوم بدائيين كان يقضي بينهم عدة أشهر من كل سنة منذ عام ١٩٥٠ . ويلوح انهم
يعيشون في مساحات واسعة ضائعة من المياه ، ولم يزرهم أحد من المكتشفين
الحديثين ، وهم يعيشون في اكواخ من القصب قائمة على جزر عائمة في المياه .

كتب عنهم تيزيجر في مقالته تلك قائلاً : « اشتهر المعدان بسوء السمعة ،
فالعشائر الارستقراطية تحقرهم لنسبهم الوضيع . ولا تأنف ان تلتصق بهم كل
انواع الغدر والحيانة والشرور ، بينما يخافهم ويحبتنهم سكان المدن ، ويتقبل هؤلاء
دون معارضة كل ما يقال عن المعدان ، وسمعتهم لدى الانكليزية كذلك منذ
الحرب العالمية الاولى حيث كانوا يخرجون من مخابنهم في مجاهل القصب لينهبوا
ويسلبوا الجيوش البريطانية والعثمانية على حدّ سواء كلما ساحت الفرصة لهم
بذلك ... ويتمتع المعدان كذلك بسمعة راسخة في اللصوصية ، ومع ذلك لم

(١) يقول الدكتور شاكرا مصطفى سليم في كتابه - الجبايش : (ربما كانت منطقة الأهوار في
العراق من أوسع مناطق الأهوار في العالم . فتقدر مساحتها مع الامتدادات الصحراوية التي تتخللها
بها يساوي عشرين الف كيلو متر مربع . فمن العمارة وهي المدينة الرئيسية في منطقة أهوار دجلة الى
القرنة يجري نهر دجلة باتجاه جنوبي والى شرقه تمتد الأهوار الى ما وراء الحدود الإيرانية .
ويجري القرات في اتجاه جنوبي من الكفل الى الناصرية ثم باتجاه شرقي الى القرنة والى جنوبه بسين
-سوق الشيوخ والبصرة يقع هور الحمار البالغ طوله حوالي السبعين ميلا .)

(المترجم)

يسرقوا مني شيئاً .. وسارت حياتهم بدائية معقدة شائكة لعدة قرون . ولكن
الاهوار ستجثف في السنوات القادمة وسيذوب سكان الاهوار في غمرة حياة
حضارية جديدة ، ربما تكون اكثر راحة ونعومة ، ولكنها بالتأكيد ستكون أقل
حرية وانطلاقاً ، وكما يأخذني الأمل على اشياء كثيرة فقد تأسفت على هذه القوى
التي لا تفتأ على تحويل مثل هذه الاماكن البدائية الى مناطق حضارية وتخلق من
رجال الاهوار هؤلاء اولاد ازقة ومنعطفات .

وعندما قرأت هذه الفقرة رحمت أبحت عن مكان اذهب اليه .. مكان لم تمتد
اليه يد الحضارة بعد ، حيث لا يزال ثمة شيء غير معروف للعالم لحد الآن ، شيء
لم يشاهده ولم يصفه مئات او آلاف السواح من قبل . ولاحت خطوط الاطلس
صماء مغلقة ، والرحلات التي كنت احلم بها لعدة سنوات سدّت في وجهي بلطخات
من امبراطوريات سياسية حديثة وحدود منيعة توجد وراءها ، اذا صدقنا وسائل
الدعاية ، مناطق تزحف اليها الحضارة والمدنية بخطى هائلة .

وكتبت رسالة الى نيزيجر الذي كان في لندن يقضي الحريف وأوائل الشتاء
واتفقنا على موعد للمقابلة ، وحينما التقيت به انهار كل ما رسمته له في خيالي من
صور عن مظهره . وربما خدعتني معرفتي بالحياة البدائية التي عاشها نيزيجر في
السودان والحبشة والبلاد العربية ، أو غررت بي معرفتي بالتجارب والصعوبات
والمفارقات التي لاقاها خلال جولاته تلك الى ان اتصوره رجلاً قليل الاهتمام
بمظهره محترماً تقاليد المجتمع الاوربي ، وتملكني العجب حيناً رأيت به بقبعته وياقته
والمنشأة وحذاءه الاسود اللامع ومظلته التي لا تفتح ابداً .

كان نيزيجر مشبعاً بالرغبة في مصاحبتي عندما يعود الى الاهوار في كانون الثاني ،
ولكنه يشك في قدرتي على البصمود امام خشونة تلك البيئة . وقد قال لي اثناء
حديثنا : « يظهر انك عشت حياة قاسية ولكنها ستختلف عن كل تجربة مررت
بها في حياتك . فهل تستطيع ان تنام على ارض صلبة دون ان تكابد عناء
ومشقة ؟ .. لأنك لن تجد فرشاً في الاهوار وثيرة . فأجبتته بأنني اعتدت على ذلك
خلال سنوات حياتي السابقة . واستطرد قائلاً : ولسعات الحشرات والبرغوث

الذي تجده هناك شيئاً اعتيادياً . انه لم يكن فقط يلستفي ، وانما يسلب النوم من عيوني بأعداده الهائلة وحتى انه يؤدي بسكان الاهوار انفسهم في بعض الاحيان الى الهوس والاضطراب .

ويلاحظني البرغوث على بعد ميل ویتهاك على جسمي وكانت المجاعة عضته بأنيابها الحادة ويطوف بين اعضائي وهو يوضع في لحمي خلال سيره الوثيد تاركاً وراءه جبلاً حمراً من لسعته ولكني اظن ان من الافضل ترك هذا الحديث الآن .
واضاف تيزيجر قائلاً : « وهناك الامراض ، وسكان الاهوار مصابون بكل أنواع الامراض التي يمكن ان تخطر على ذهنك ، وأنواع عديدة أخرى لا يمكنك ان تتصورها .. وهم ، في الحقيقة ، مصابون بكافة انواع الامراض السارية . واذا كانت الضرورة والحاجة والتجارب تأتي بأشياء عجيبة فقد خلقت في هوية معالجة المدان ومداراتهم رغم أنني لم اكن يوماً طبيياً يحمل شهادة (١) . وقد حصلت انا خلال تجاربي الطويلة بينهم على حصانة دبلوماسية معينه ضد الامراض ، بيد اني لا اعرف مقدار حصانتك انت وكيف ستسير هذه الامور معك . وكل سكان الاهوار مصابون بالذئب ، وحينما يتذبذب مستوى المياه حول اكواخهم تصبح محلات شرب الماء والمراحيض شيئاً واحداً . وقد اصطفت معي مرة احد الرجال

(١) يبدو من الاصلح ان نصف سكان الاهوار على اساس اقتصادي بحت . وهذا المقياس يمكن تقسيمهم الى ثلاثة اقسام : المزارعون ، وجماعو القصب - لحياسة الحصر - ورعاة الجاموس ، (وتعبير « المدان » كان ولا يزال يستعمل بكثير من الغموض . فسكان المدن في العراق يستعملونه في معاني مختلفة ، اما للتدليل على سكان الاهوار عامة بلا تمييز او لوصف الشخص المنعوت بهذا التعبير بالفظلة او عدم الانتظام سواء اكان المنعوت من سكان المدن او الاهوار او الارياف . وكثيراً ما يطلق هذا التعبير في الكتابات الانكليزية على سكان الاهوار بصورة عامة . وانا ارى ان كلمة « مدان » يجب ان يقصد بها قسم واحد من سكان الاهوار فحسب وهم رعاة الجاموس الرجل المنعوت يكونون قسماً صغيراً من سكان الاهوار . وسكان الاهوار انفسهم يستعملون كلمة « مدان » بهذا المعنى . ولعل من الطريف ان نذكر بهذه المناسبة ان سكان الاهوار عن غير المدان يعتبرون ثمتهم بهذا الاسم اهانة ما داموا يعتقدون ان المدان اقل منهم درجة في سلم الحضارة واتحدت سكان الاهوار تأحراً .)

الدكتور شاكر مصطفى سليم - الجبّاش -

الانكليز الى الاهوار وبعد عشرة ايام كان وزنه قد خف كثيراً ولو لم ارسله الى المدينة بسرعة لفضى لحبه .

وصحمت الا ادع الفرصة المواتية. تقلت من يدي وأظهرت عدم مبالاة تامة بجميع الامراض ، ولكنه عاد يقول : « انا لا ادري كم ستصبر على الجلوس متربعا ، وانا دائما في حركة ونادراً ما أضيع ليلتين في مكان واحد ، بينما نقضي في القارب ، رفيق سفرنا ، معظم الوقت متربعين في بطنه ، وستقضي هناك في الشاطئ وقتاً اكثر متربعا على ارض كوخ أحد سكان الاهوار . فهل يمكنك ان تجلس متربعا ؟ فأجبتني اني استطيع ذلك . وقال اخيراً : « حسناً ... اذا كنت مصمماً الى هذا الحد فإنه ليسرني ان اصطحبك معي » . وهكذا رسمت الخطوط الأولى من الرحلة .

بيد ان الامر لم يكن بهذه السهولة لأنني لم احصل على تأشيرات السفر الضرورية - الفيزا - .. ووجدتني اجاهد لعدة اسابيع الوصول الى البراغيث والامراض والمتاعب ، ولكنها كانت معركة خامرة . واخيراً غادر نيزيجر الى الاهوار لوحده . وتعدت انا الى جزيرة صقلية حيث كنت قد قضيت قسماً من السنتين السابقتين وانا احمل بين جنبي " احتقاراً ومقتناً لبراغيث صقلية ، واصبت بدزانتري صقلية الحاد . ورخت اندب امراض ومتاعب الارض الموعودة ...! أرض الاهوار . وأخبرت اصدقائي في صقلية عن خيبة أملي . ولكنهم ، وهم الذين اعتادوا على الحمامات الراقية والحياة المترفة ، اخذهم الشك في الأمر فصاحوا : « لماذا تريد السفر الى ذلك المكان القبيح ؟ » فأجبتهم : « ان ذلك أفضل من الصيد في افريقيا » . ولكنني نسيت انها نكتة انكليزية ، فلم يفهمها أحد منهم . ومرّ عليّ صيف صقلية الملتهب في احسنى القرى . وعدت في الحريف الى لندن ... الى المطر والأضواء المنعكسة على شوارع سوداء براقعة .

وفي كانون الثاني التقيت بنيزيجر مرات عديدة ، ولكن لاح لي الآن انه لا يوجد ثمة أمل في مغادرتي قبل شهر نيسان . ونيزيجر نفسه سيعود الى الاهوار في نهاية شهر كانون الثاني . وفي المساء الأخير ، قبل مغادرته ، تناولنا طعام العشاء سوية مرة

أخرى . وقال خلال ذلك : « انه لشيء مؤسف انك لم تستطع المجيء في السنة الماضية لأنه لن تيسر لي فرصة أخرى للسفر الى الأهوار . وأنا أشعر بأنني قضيت زمناً طويلاً هناك ، وفي هذا ما يكفيني ، وستكون هذه آخر رحلاتي ، اذ سأغادر الأهوار في نيسان لأقضي الصيف بين قبائل الرعي قبل سفري الى افغانستان . ويمكنك الالتحاق بي ، اذا شئت ، في شهر نيسان ولمدة شهرين ، وبالطبع سترى بأن لا بيئة ولا حياة تشابه ما هي عليه في الأهوار .

☆☆☆

وحينما عدت الى البيت لم استطع النوم . وظننت في بادئ الأمر اني غير مرتاح للفكرة ، ولكن بعد ساعة او ساعتين من التفكير العميق ادركت ان اضطرابي كان لأن نيزيجر سيذهب للمرة الاخيرة واني سأظل في لندن ، وبهذا سأفقد من بين يدي فرصة ذهبية لن تسنح لي فيما بعد ، وكانت نيزيجر قد قال لي : « انك لن تستطيع الذهاب لوحدك ما لم تعرف اللغة العربية .. ولن تتوفر لديك فرصة أخرى كهذه .»

وفي الساعة الرابعة صباحاً توصلت مع نفسي الى قرار معين . واستيقظت في الساعة السابعة والنصف ، ولاحظت في الساعة التي سأنتظر فيها ، قبل ان اتصل بنيزيجر ، طويلة مملة ، وقد اجابني على التلفون بنفسه . قلت له : « ولفرد .. اذا نجحت في الحصول على التأشيرات اللازمة فهل يمكنك ان اذهب معك في يوم الاثنين ؟ » وخيمت بين طرفي التلفون لحظة من صمت قطعها نيزيجر قائلاً . « ظننتك غارقاً في اعمالك الى درجة لا تسمح لك بمغادرة لندن قبل شهر نيسان ! .. ولكن أترأى حقاً جاداً في الأمر ؟ »

— كل الجد .. سأعمل جهدي في ترتيب الامور ، اليس كذلك ؟

— حسناً ! .. ستغادر الطائرة في الساعة العاشرة الا ربماً ورقم الرحلة ٧٧٠ .
وسأنتقل من محطة فكتوريا في الساعة الثامنة الا ربماً . والافضل ان تتناول الطعام معي الآن . وسأنتظرك في الساعة السادسة والنصف . ثم سألت نيزيجر :
وماذا عن الأمتعة ؟

– لن تحتاج اليها فليس ثمة مجال لحملها في الأهوار . خذ معك قيصين فقط ،
وبنطلونين وسترة واحدة وشفرة للحلاقة وحذاءً واحداً يمكن خلعه بسهولة ، لأن
عليك ان تخلعه كلما دخلت بيتاً بالأهوار . وهذا كل ما تحتاج اليه هناك . ولكن
خذ معك من الأمتعة ما تشاء حتى البصرة ، ثم نترك غير الضروري منها هناك .

– متى أراك ؟

– سنغادر في المساء ... ذإلى اللقاء !

ومرت بعد ذلك اربعة ايام ثقيلة ، لم يتأكد لدي في نهايتها حصولي على
التأشيرات اللازمة لدخول المناطق العشائرية ، مع اني حصلت على ترخيص بالبقاء
في العراق لمدة ثلاثة أشهر .

وراحت محركات الطائرة تدوي فوق صحراء سوريا متجهة الى ... بغداد .



الفصل الرابع

لم تكن لدي صورة سابقة واضحة عن بغداد ، فمعرفة بالديول العربية كلها تحدها اقاماتي القصيرة من حين الى آخر في شمال افريقيا . وكان انطباعي الاول عند رؤيتي لمدينة بغداد هو انه مها جاولت قوى الاستعمار الغربي ان تقوم به بتغيير نظم وتقاليد اية بلاد باساليب ملتوية وطرق معوجة فإنه يتلشى امام ما يستطيع العرب انفسهم القيام به لقلب تقاليدهم وعباداتهم بأنفسهم ، وهو ما شرعوا به فعلا ، مندفعين وراء عواطفهم بجميع موارد حقول النفط التي يملكون.

وربما كان الوقت الحاضر من اسوأ الاوقات للاجنبي لزيارة بغداد منذ عدة قرون خلت ، فإنها الآن لحظات انتقال العراق من ثقافته الشرقية الى الثقافة الغربية التي لا تعني لرجل الشارع الا القليل ولم تتبلور فكرتها بعد عند عامة الناس.

والبنائات الغربية الطراز ، الحديثة البناء تقوم في كل ارجاء بغداد . وحيثما وليت وجهك التفت عينك بشوارع وطرق حديثة ، تحت الانشاء بينا يعثر التراب سبغ النخيل الزاهي على جوانب تلك الطرق فيحيل خضرتة الضاحكة الى لون شاحب داكن ، ويتهدس الصرافق وبيوت الطين بين تلك للشوارع والعمارات الحديثة . وفيما عدا المناطق التي تزدحم فيها حركة المرور يلاحظ المرء الاوساخ والقاذورات تملأ الارض بينا تجرد الغربان السود محوم في سماء زرقاء صافية لتهبط بين الحين والآخر تلتقط من تلك القاذورات . وتدوي منبهات سيارات الكاديلاك

ذات الالوان الزاهية هناك في الشوارع العريضة لتزيح عن طريقها افراداً من القرويين باسماهم البالية ودوابهم العجفاء التي يمتطونها . وتختلط في شوارع بغداد الأزياء العربية الاصيلة بالأزياء الاوروبية، الا ان الزي الوطني في طريقه الى الاختفاء، فالملابس الاوروبية هي الزي الرسمي في العراق ويعتبر كل ما عدا هذا الزي في المدن دليل على قلة في الثقافة .

ومن خلال كل هذا الدوي الكريه من تباعد عن التقاليد والعادات الموروثة تشق امواه دجلة العظيم طريقها لاتصدها غير ثلاثه او اربعة جسور حديدية انكليزية الانشاء . وعلى امتداد ضفة دجلة الغربية عدد كبير من الدور التركية انشئ كل منها حول ساحة مفروشة بالموزائيك والقرميد . والاشجار الباسقة في حدائق تلك الدور تتجمع على اغصانها جموع الحمام وكأنها فواكه طرية غضة ومثل هذه الدور التركية يتهافت عليها المستوطنون الانكليز هناك ، في حين يحترقها سكان بغداد . وتلوح هذه الدور للعراقيين الذين تمتلئ ايديهم بالذهب وداخلهم بانفداع لاهب نحو التطور ، تلوح وكأنها بقايا آثار قديمة لاتصلح للسكنى^(١) . وهنا تذكرت كلمات نيزيجر : « ليس للعراقيين الا كلمتان (قديم) و (حديث) ، فالشيء ، مهما كان نوعه ، ان لم يكن من هذا النوع فهو من النوع الآخر ولا وسط بينهما . »

ومن بين الثمانية ملايين عراقي تضم بغداد الآن اكثر من مليون منهم ، ولا زالت تتوافد عليها جموع المهاجرين من القرى والارياف في كل يوم . وفيما عدا المناطق القبلية النائية ، نجد الاطفال في العراق يتمتعون بالحصول على الثقافة

(١) لم بين المؤلف حكمه هذا على الملاحظة المباشرة مطلقاً ، ويظهر انه كان متأثراً فحسب بالدعاية الضخمة المركزة التي صور العهد المنتثر فيها العراق - بلد النفط - وكأنه في طريقه ان يصبح جنة عدن بسبب مشاريع وزارة اعماره . بينما المؤلف نفسه ذكر قبل قليل ان الصرافف وبيوت الطين تندس بين تلك الشوارع والعمارات الحديثة ، فمن الذي يسكن هذه الصرافف اياترى ؟ اليس هم من العراقيين ؟ والاهوار التي في طريقه اليها . . . حيث لا ذهب في الايدي هناك ، ولا معنى للتطور . فمن اولئك الناس البدائيون . . . مرة اخرى اليسوا هم من العراقيين ؟

المدرسية ، وكتيابة لذلك ترام يعتبرون انفسهم ارفع من ان يقوموا بعمل كالزراعة ، وفي الحقيقة ان هذه تعتبر من احقر المهن عندهم . ولذلك فما يسمع القروي الشاب بالثروة العظيمة في المدن حتى يهجر داره وينزح الى بغداد . وهنا ، ولكي يحتفظ ببقية احترام وكرامة ، عليه ان يرتدي الملابس الاوربية التي ، وغالبا ما تكون هذه ، حسب دربهاته القلائل ، رثة ممزقة . واذا حالفه الحظ فسيجد له عملا يتقاضى عنه خمسة دراهم يوميا ، ولكن حينها تظن السماء تتعطل . كافة الاعمال اوتوماتيكيا ، وحينئذ سيلجأ مثل هذا الشاب الى وسائل شائنة معينة للحصول على قوته اليومي . وقد قيل ان الانحرافات الجنسية شائعة عمليا مع مثل هؤلاء الشباب ، وان الشوارع بعد ان يخيم عليها الظلام يجوبها بصورة مريبة اولاد صغار لهم استعداد كاف للنشل او التضحية على حساب شرفهم وانفسهم من اجل الحصول على اتفه المبالغ (١)

والكثير من مثل هذه الاعمال الشائنة تصاحب أي تحول مريع وكامل كالذي يحدث لمثل تلك الاقطار حيث النفط ، المادة الخام للحضارة الغربية الصناعية ، وعلى اية حال انها اللحظة موجهة ان تزور العراق ، مهد اعرق ثقافة في العالم .. ان تزور البلاد التي علمت المصريين القدامى الكتابة ، لتري كل تلك الاشياء المعيبة . ومهما يكن من امر فانها الآن نهاية عبد جرّ معه بليلة واضطراباً لم تسلم منه غير الطبقة الارستقراطية التي غذت نفسها بالثقافة منذ جيل مضى . وابن المدينة العراقي لا يرغب اليوم في اكثر من شيء واحد هو ... الاسلوب الامريكي في الحياة ، على الرغم من كون عامة الناس ليس لهم حتى الآن غير القليل من الادراك بأن هذا الأسلوب يعني اكثر من مجرد لعب اوتوماتيكيه سخيفة ، لأن ٨٠٪ من العراقيين لا يزالون غير متعلمين . وبعد اربعة ايام من مكوثنا في بغداد وجدت نفسي استعيد في خاطري ثانية كلمات فيزيجر : « رجال عشائر تحولوا الى

(١) هنا وفي اما كن اخرى من الكتاب اشرت الى بعضها يظهر المؤلف ، كأغلب الكتاب الغربيين ، مبالغة مفرطة وربما جهلا فاضحا بشؤون العراق بصورة خاصة والوطن العربي بصورة عامة .
المرجم



وفي شارع الرشيد ، بيكاديللي بغداد ، حاولت شراء كتاب – فان إيس – في تعليم اللغة العربية باللهجة العراقية . وفي إحدى المكتبات رأيت فتاة عراقية تغطي وجهها المساحق والاصباغ ، واخبرتني بالانكليزية ان نسخ الكتاب قد نفذت ، فقدمت لي كتاباً آخر يشابه الأول في عنوانه قائلة انه افضل منه بكثير . فاشتريته . ولكني ، وبعد بضعة ايام من الارتباك المتناهي ، اكتشفت انه يجب استعماله بمساعدة اسطوانات خاصة . ورحت أقرأ فيه : « انك تسير وحدك . انك تريد أن تكلم احداً ، لذلك فأنت الآن تتكلم مع شاب بغدادى . انت تقول له : مساء الخير . وهو يرد عليك تحيتك . ثم تقول انك امريكى ، وتخبره باسمك . انه فرح بمعرفتك ، فيخبرك ان اسمه سعيد . انت تخبره بأنك وصلت العراق قبل فترة قليلة . انت تضيف قائلاً ان صديقك وصل معك . انت تقول ان والدك يملك حقلاً قرب نيويورك ، وانك تعمل في مصنع كبير للسيارات ، وانك ترغب في العودة الى العمل عند رجوعك الى امريكا . وبينما انت تتكلم يأتي اليك حسن صديق سعيد .. سعيد يسأل حسن : اين انت ذاهب . حسن يجيب : الى سينما الملك غازي ، انها سينما راقية . » وقلبت عدة صفحات من الكتاب وقرأت : « والدى .. أود أن أقدم لك هذين الامريكيين ، هذا جون وهذا صديقه بيل . ان جون من نيويورك اما بيل فمن تكساس . الأب يقول : ان ولدي الكبير ذهب الى امريكا . انه الآن امريكى » .. وأخذت أقرأ ايضاً : « لقد قدمت الى عراقي يدعى علي . انه يسأل من اين انت . انت تقول انك امريكى ، وتخبره بالولاية التي جئت منها . انت تسأله ان كان يعرف سيارات فورد . وهو يجيبك : نعم اعرفها .. وفي الحقيقة انه يملك واحدة .. انه يقول : ان في بغداد ممعلا لسيارات فورد . واخيراً انك تتجول مع علي . علي ينبهك الى رجل آخر . انت تسأله عن عمل الرجل : ويجيبك علي انه لايعمل . انه تاجر وله محل كبير في السوق . انت تسأل علي ان كان يعرف الرجل . علي يجيبك نعم ويعرف ابنه ايضاً . ان ابنه لايشغل كثيراً .

انه يجب التجوال في الشوارع طوال الوقت ...

اواه يا الف ليلة وليلة ؟ .. اواه يا كريستوف كولومبس ! .. اواه يا شجرة
المعرفة للخير ... والنظ !!

وسنحت لنا فرصة مقابلة الوزير الذي يخصه الامر للحصول على موافقته في
رحلتنا القادمة . وكان رجلاً لطيفاً هادئاً شكرنا على زيارتنا له والتي بالطبع لم
تكن ضرورية ، كما قال ، لأن العراق قطر حرّ يمكن للأجانب ان يتجولوا في
اية بقعة من بقاعه كما يشاؤون . وخلال حديثنا تطرق الوزير الى مشكلة العاصمة
التي تتمدد عند كل يوم قائلاً : « تجتذب بغداد العراق كله اليها ، وهنا يحصل
المرء على ما يشاء . فكل رجل يمكنه اقتناء جهازاً للراديو ، وكل امرأة يمكنها
اقتناء ماكنة خياطة . وتراهم يهاجرون من القرى والارياف كما لو انهم يفرون من
مرضٍ سارٍ يلاحقهم . ولا يمكننا صد هجرتهم اذا ما اردنا نحن ذلك » . ثم زود
الوزير نيزيجر برسائل الى متصرفي الالوية التي سنقصدها . وفي ذلك المساء كان
القطار يحضننا في طريقنا الى البصرة .

ولم اكن احل عن البصرة ، اكبر ميناء على الخليج الفارسي ، غير انطباع
سطحي عابر كما هو الحال عن بغداد . والبصرة الحديثة ليست مدينة قديمة إلا ان
القديم والحديث والشرقي والغربي يختلطان فيها بصورة مدهشة ، فالمنطقة التي تغص
بالسيارات الحديثة اللامعة ، وبالعمارات الكونكريتية الضخمة تشمخ وعلى مقربة
منها ترقد حياة بدائية ساذجة .

وفي البصرة مكثنا في احدث واجمل منطقة منها ، اعنى - العشار - . وخلال
اقامتي القصيرة فيها لم اتمكن إلا من رؤية القليل من المناطق الاخرى . وحللنا
في قنصلية عامة تستحق لضخامة بناها ان تكون سفارة كما يليق بقنصلها العام

ان يكون سفيراً . ويربض وراء حديقة القنصلية المسورة الغطاء شارع عريض يحاور النهر العظيم .. شط العرب ، ملتقى دجلة والفرات في مرحلتها الأخيرة قبل ان يندوبا في البحر . وتزخر صفاف شط العرب البعيدة بساتين النخيل ، وتنسل وتدوي وتهمم أو تندفع ببساطة على سطحه زوارق وبواخر من كل نوع ولون . وتختلط في هذا النهر العظيم سفن عربية تجارية كبيرة ، وسفن بحارية لنقل الركاب عبر البحار ، وبواخر كبيرة ضخمة من عابرات المحيطات ، وطرادات حربية .. كل هذه تختلط بقوارب بدائية ومشاحيف مطلية بالقار قادمة من مناطق الاهوار ، وبقفق دائرية تندفع مع تيار النهر محملة (بالبوارى) المصنوعة من القصب والمصدرة من الاهوار ، وكأن سطحه في هذا لوحة تاريخية تمثل تطور وسائل النقل عبر القرون .

وازياء الناس الذين يزحون الشوارع مختلفة متباينة كتبان القوارب في شط العرب . وابتدأت الآن ادرك مدلول الازياء العراقية المختلفة والمركز الاجتماعي الذي يعنيه كل نوع منها . واللباس الاكثر انتشاراً بينهم هو ما يضعونه فوق رؤوسهم . والعراقيون الذين لم يتأثروا بالغرب يضعون فوق رؤوسهم المحلوقة طاقة مختلفة الالوان بنقوش في اشكال الزهور ، وتكون محشوة في داخلها بالقطن ، وهي تختفي عادة تحت (الكوفية)^(١) المتهدلة التي تشبه العمامة فيما عدا الاطفال الذين لا يرتدون مثل هذه الكوفية . والكوفية العراقية عبارة عن قطعة قماش بيضاء مرقطة ببقع سود .

والكوفية اما ان تغطي الرأس وتهدل على الظهر والكتفين ، او انها ترفع وتعقد فتصبح كالعمامة . وفي كلتا الحالتين تضبط الكوفية فوق الرأس بواسطة (العقال) الذي هو عبارة عن التواءين كالحية يتوجان الرأس . ويشبه العقال التواء القمة في اللولب المعدني البسيط ، ووسطه صلب كالحشب تلتف حوله وتغطيه خيوط صوفية سود . وتختلف انواع واشكال لباس الرأس ككل شيء آخر هناك .

(١) وهناك اسم « الشطفة » او « البشباغ » يطلق في جنوب العراق على هذه الكوفية .

ولا يلبس الفقراء العقال وربما كانت الكوفية نفسها ليست اكثر من قطعة قماش تلف حول الرأس ولونها كيفما اتفق .

واختلاف الملابس فيما تحت العنق شيء معقد وموربك للغاية ولكن اكثرها انتشاراً رداء بسيط يمتد من الحنجرة الى القدم كثوب نوم نسائي ، ويختار عادة غامقاً في لونه فيما عدا اللون الاسود . وفي بعض الاحيان يكون مشقوقاً من الوسط كالبيجامة ، ويدعى هذا النوع من اللباس (بالشداشة) . ويرتدي الدشداشة كل الفقراء الذين لم يقتبسوا الازياء الغربية . واعتاد الناس الآن ارتداء سترة اوروبية اعتيادية فوق الدشداشة عندما يبرد الجو . ويرتدي الرجال عباءة او ما يدعى (بالبشت) ولونه اسود او بني غامق ، فوق السترة أو فوق الدشداشة فقط . والبشت غير سميك في نسيجه ، واثقل نوع فيه يحاك من صوف بني اللون ، وقد تلاحظ البشت عند المترفين ناعماً شفافاً كالحرير الفاخر ، وغالباً ما تكون حواشيه مذهبة تتدلى منها زخارف ايضا ذهبية .

ويلبس الاغنياء ، الذين لا يرتدون الازياء الغربية ، فوق الدشداشة البسيطة سترة ورداء طويلاً ذا لون اسود ، والسترة تقريباً اطول واعرض مما اعتاده الناس في اوربا ، ويصعد هذا الرداء الاسود ، الذي تصل اطرافه الى الارض ، من الاسفل الى الاعلى ليشكل رقم ٧ عند الصدر تماماً كالصدرية الاعتيادية ، ويبرز بين حدي الرقم ٧ قميص نادراً ما تلحق به ياقة أو رباط . وهذا هو الزي الاعتيادي للشيوخ والاعنياء الذين لم يتأثروا بالغرب . وبينما يكمل هذا الزي عند المترفين حذاء اسود ، يشابه احذية اهل المدن ولكن قلما ترافقه الجوارب ، ترى الناس الفقراء ابدأ حفاة .

وذهبت الى السوق لاشترى حزاماً وذكريات اسواق شمال افريقيا وخاصة مراکش ترسم لي صوراً توقعت رؤيتها هنا .. من مناطق خاصة بصناعة الجلود واخرى لصياغة الذهب والفضة وثالثة لباعة السجاد ، وبكل روعة الصناعات المحلية المغربية للاجانب . وعبرت جسراً خشبياً يقطع قناة تزدهم بجميع انواع القوارب والزوارق وتكتظ بالاجناس الاسيوية .

وفيا كنت سائراً في طريقي امسك بذراعي زنجي يرتدي دشداشة تصل الى ركبتيه ، ودفع من تحت انفي رزمة من الرسوم تصور زنجياً ضخماً مضطجعاً ، في غير ما حياء ، في حجرة نوم وثيرة . وما ازحت رزمة الصور هذه من امامي حتى اظهر لي رزمة اخرى كانت الصورة العليا فيها مثيرة للضحك الى حد بعيد ، وحتى اني لو كنت في مكان اقل ازدحاماً لسألته رؤية الصور الاخرى .. كانت تلك الصورة لامرأة شرقية السمات ، عارية الا من حذاء ذي كعب عال في قدميها ، وقد وقفت بغنج ودلال غريب امام لوحة زيتية لمنائر ونخيل ، وكلتا يديها مرفوعتان ، احدهما فوق كتفها والاخرى وضعها فوق رأسها باغراء وجمال خبيث . ومن تحت جفون سوداء كالفحم رمقت الكاميرا بجول محسوس . الا ان روعة الصورة تكمن فيما تحمله هي حيث انسابت من يديها المرفوعتين خيوط حرير اسود تستر عن الانظار بجنب كل جزء من جسدها يمكن ان يستره رداء الحمام الحديث ذي القطعتين . وتساءلت فيما اذا كانت لتلك الصور سوق رائجة عند العرب لانها لم تثير في داخلي ، انا الزائر الاوربي الغريب ، ولا نامة من شهوة .

ودخلت السوق ورحت اسير بين صفتين من مخازن لبيع اواني الالمنيوم والوانى الخزفية اليابانية الرخيصة ، ومحلات لبيع بالات من القطن الهندي المشرق الالوان ، واخرى لبيع بضائع و سلع من الفاير . وكل شيء في السوق اما استورد من اوربا او انه تقليد لبضائع اوربية استوردت من الشرق الأقصى . واخيراً استوقفت شاباً اوربي الزي وسألته ان كان يحسن الانكليزية فأجاب انه يعرف منها الكفاية ، فسألته ان يرشدني الى مكان استطيع ان اشترى منه حزاماً جلدياً ، فتساءل الشاب باستغراب : « جلدي ؟ » واستطرد قائلاً : « اظن انه يمكنك ذلك ، ولكن لم لاتشترى حزاماً من البلاستيك ، انه افضل بكثير من الجلد ، وكلنا هنا نستعمل البلاستيك ، الذي يتوفر في كل مخزن ، وهو ارخص واحسن من الأحزمة الجلدية » .

وتجولت في السوق ووصلت اخيراً الى منطقة يصم الآذان ضجيجها ، وتراءى لي انني سأجد اخيراً شيء يصنع محلياً . وظهر كأن مئات المطارق تهبط على

صفائح معدنية ، وفعلاً كان ذلك ، فقد رأيت صفائح كبيرة من الألمنيوم تتحول الى اواني منزلية ، وصفائح من النحاس تصنع منها ادوات القهوة المألوفة في العراق . وكان ذلك هو الشيء الوحيد الذي اكتشفته لصناعة محلية خلال زيارتي الاولى للعراق . وأخيراً ... عدت بجزام جلدي طبع على سطحه الداخلي بالاحرف الانكليزية : صنع في المانيا .

وحضر ثلاثة من الملاحين الأربعة الذين استأجرهم ثيزيجر والذين كان عليهم ان يقابلونا هنا في البصرة . وفي ذلك الوقت ، الذي لم اكن قد تعرفت فيه عليهم بعد ، وجدت حضورهم امرأ مريبكاً حقاً . وكانت تضمني وثيريجر في القنصلية العامة حجرة نوم فأخرة ولم يرافقتي هو خلال تجوالي في السوق . وجلست عند عودتي الى الحجرة على كرسي ذي مساند وتحت عيني خارطة أحدق وأمعن فيها النظر . وبعد لحظات فتح الباب بهدوء ودخل الملاحون الثلاثة فحييتهم تحية المساء ، وكانت كل ما اعرفه بالعربية حتى تلك اللحظة ، فردوا تحيتي وترّبعوا على الأرض وشكلوا نصف دائرة حول قدمي ، وراحوا يحدقو في يبلاهة بينما تدلى من بين اصابع كل منهم خيط من حبات مسبحة . وكانت المسبحة الاولى حمراء والأخرى صفراء والثالثة بيضاء ، وراحت الحرز تطقطق ببطء وبمنمط موزون . ودقت ساعتني ، فإذا نظرت الى اعلى فعيون ست تظل مثبتة في وجهي ، واذا التقت عيني بعين أحدهم فسرعان ما يزيغها عني ، ولكن ما خفضت بصري الى الارض مرة اخرى احدق في الحارطة حتى عادت النظرات تتصفح وجهي .. وجاهدت في رسم ظل ابتسامتي على شفتي ، وردّوا عليّ ابتسامتي كما لو كدت أنطق بشيء ، ولكنني لا استطيع في الحقيقة ذلك . وأدركت اخيراً ان البضع كلمات التي كنت قد تعلمتها بلهجة شمال افريقيا بدت غامضة مغلقة بالنسبة اليهم .

وملاحونا الاربعة هم عمارة وحسن وسبيتي وكذبة ، وعلى الأخير ان يقابلنا عندما نبدأ رحلتنا بعد يوم او يومين . ولا يتشابه الثلاثة في سحناتهم ولا في شخصياتهم فيما عدا لون البشرة . فقد كان - عمارة - شاباً بهي الطلعة رابط الجأش في الثامنة

عشر من العمر ، وكان قوي البنية تجلله كبرياء وأنفة حصان عربي أصيل . وكثيراً ما يغضب ويثور لأنفه سبب . وكان الوحيد من بين الأربعة يتقبل ما يحيطه من علائم الحضارة ببساطة وعدم مبالاة . ولم يبد منه شيء غريب أو غير معقول في استجابته لموقف غير مألوف . وفي ذلك الوقت شغلت كبرياءه الطبيعة وأنفته كثيراً من وقته في لحيته وشاربيه القصيرين الحديثيين العهد يسويها بمقص صغير يحتفظ به . وظهر آنذاك شغفه الشديد بالمرايا .

أما حسن فيكبر عمارة بسنة أو سنتين وهو متقلب الطبع لدرجة كبيرة ويتميز بجوابب كثة ثقيلة وفك كبيرة بارزة . وكان حسن وسبيقي ، وكلاهما متزوج ، أكثر الأربعة مرحاً ، ولكن بشاشة سبيقي لاحت من نوع آخر . انه من ذلك النوع الذي يطلق عليه اسم - خادم العائلة - . فاذا حصل لدينا ثمة عمل غريب فسبيقي هو الذي ينجزه . وظهرت رغبته في الخدمة والتسلية وكأنها تعويض ومداراة نقص يوحيه فقدانه سحر الشكل وجاذبيته . وكان سبيقي بالإضافة الى ذلك كله يلوح كغراب ذليل ، ولم يفلح حاجبه الكث وشاربه الغليظ في تغيير الطبيعة الهادئة التي ترتسم على وجهه .

وكانت الخارطة التي اتفحصها ، بينا عيون الثلاثة تحدق في ، صماء مبهمه لدرجة لا تستحق فيها ان تدعى بهذا الأسم ابداً . وتوزعت على صفحاتها أنهار وروافد وفروع ، ومساحات واسعة تغطيها علامة صغيرة تعني ان هذا احد الأهوار . وكان احدهم قد رسم علامات استفهام بالحبر الاحمر على اسماء اماكن مبعثرة هنا وهناك ، وفي مرات اخرى اوصل خط احمر عبر تلك النقاط ... تلك هي منطقة الاهوار الدائمة التي سنقصدها قريباً . ومعظمها يقع على مسافة اربعين ميلاً الى الشمال وغرب البصرة . ويقطع نهر دجلة حوالي ثلثي المسافة عامودياً عبر تلك المنطقة بينما يجري نهر الفرات من الغرب بصورة افقية ليرسم الحدود الجنوبية لها .

وفي عهد ظهور الانجيل كان الخليج الفارسي يمتد بعيداً في داخل القطر الذي يدعى الآن بالعراق . وكان النهران العظيمان دجلة والفرات يصبان في البحر على

انفراد ، وليس كما هو الحال الآن حيث يصبان في شط العرب الذي تقع البصرة على ضفافه . وفي تراجع البحر منطقة كبيرة من أهوار وبحيرات ونهيرات استوطن فيها في العصور الاولى المهاجرون من الاراضي الجبلية التركية والفارسية . ولم يكن ثمة اختلاف كبير بين حياة المستوطنين الاوائل وبين ظروف الحياة لسكان الاهوار اليوم ، فقد نعتب ممتلكاتهم وبيوت القصب التي عاشوا فيها في مستوى يعلو الطبقة القرية تماماً .

وعلى مر العصور انقسمت منطقة الاهوار الهائلة ، التي انكشف عنها البحر الى مناطق ذات فيضانات فصلية والى مناطق أهوار شبه دائمية ، تغذيها تفرغات النهرين العظيمين دجلة والفرات ، والى منطقة وسطى من مستنقعات لا زالت قائمة حتى اليوم . وهذه الاهوار الدائمة تقع بين مجرى النهرين العظيمين ، ولكنها اكثر انخفاضاً منها ، وتمتد شرق دجلة حتى تتجاوز الحدود الايرانية . وكلما تراجع البحر اكثر كلما اصبح الجنوب منطقة تغطيها المياه على مدار السنة . وحتى زارها ثيزيجر في عام ١٩٥٠ ظلت واحدة من الاراضي القرية من معالم المدينه والحضارة ولكن غير المكتشفه . ومع ان المسافرين والجيوش الاوروبية التي خاضت الحرب هناك وكانت قد مرت وزارت مناطق الفيضانات الفصلية واطراف الاهوار الدائمة ومرت كذلك عبر النهرين الكبيرين نفسيهما الا ان قلب الاهوار وسكانها ظلا غير معروفين للعالم .

وعلمت كذلك من مقالة ثيزيجر في «مجلة الجمعية الجغرافية الملكية» انها كانت منطقة عشائرية تسكنها ستة قبائل تمتد حدودها الى خارج مناطق الاهوار . وتدعي بعض هذه القبائل بأنها ليست من اصل عربي ، والبعض الآخر منها ضم افراداً من «الساده» الذين هم من نسل النبي . الاسم الشائع لسكان الاهوار هو «المعدان»^(١) . وهو لفظة اطلقت لا لتعريف عشيرة معينة ، وانما لتعريف

(١) ان كلمة معدان جمع ومفرد (معد) ، وهو جمع عربي ، كقولنا في جمع عرب ، عربان وقس على ذلك . ومعد حي اي قبيلة يذكر ويؤث . يقال فلان معدني اي منسوب الى حي . ومن ذلك المثل المعروف : تسمع بالمعدني خير من ان تراه . وكان هذا المعدني يغير على مال النعمان ←

اسلوب في الحياة . . حياة الناس الذين برعوا في استخلاص معيشتهم من اراضى ضائعة بين ماء وقصب ، وليس لهم غير قليل علاقة او بالاحرى لا علاقة لهم بالعالم الخارجي .

ولا يمكن تتبع اصل المعدان بالضبط لأن جغرافية البلاد الطبيعية كانت في تغير مستمر . والاهوار كانت تمتد بعيداً الى الشمال حينما نزع المهاجرون الى الشرق قبل اكثر من خمسة آلاف عام ليستوطنوا هذه المناطق . ولعبت عوامل اخرى كثيرة دورها خلال العصور المظلمة ، بالاضافة الى الفتوح المتعاقبة للميديين والفرس والاغريقين والرومانين واخيراً العرب ، في ادخال دماء اجنبية الى سكان الاهوار . وفي اوائل القرن التاسع للميلاد استوطنت مناطق الاهواء جماعات من اللصوص النجر وارتفع عددهم بعد فترة قصيرة من الساخطين والمهاجرين من وجه العدالة . واخذ هؤلاء يجاهرون بتمردهم على الخليفة الذي وجد من الصعب عليه اخذ ذلك التمرد الصغير حتى وصم بانه عاجز عن القبض على بضع مئات قلائل من ضفادع الاهوار وهي في تناول يده . وعلى الرغم من استسلامهم فيما بعد الا ان عدداً منهم بقي محتبئاً في اعماق الاهوار لعدم تقمهم بالعفو الذي اعطي لهم اذا هم خرجوا من مخابثهم .

وبعد حوالي الخمسين سنة أي في عام ٨٦٩ بعد الميلاد قامت ثورة هزت جنوب العراق كله مدة تقارب الاربعة عشر عاماً ، وظهرت كما لو انها في الحقيقة ستطرد العرب لتكون امبراطورة زنجية في الشرق .

وكانت الخلافات والمنازعات التي اعقبت وفاة النبي في عام ٦٣٣ ميلادية بسببه

— بن المنذر ملك الحيرة ، فكان يطلبه فلا يقدر عليه وكان يعجبه ما يسمع عنه من شجاعة واقدامه الى أن امته ، فلما رآه استزرى منظره ، لانه كان دميم الخلق . فقال النعمان : تسع بالمعدي خير من ان تراه . وتمعد (فعل) أي تزيا بزيمهم . والمعدي اسم مصغر ، ومعناه رجل منسوب اليه معد . يضرب مثلاً لمن كان خبره خير من مرآه .)
عن (المعدان او سكان الاهوار ، ترجمة باقر الجبيلي) .

المترجم

الخلافة ارضاً صالحة لكل مدّع . والاصعب من ذلك هو ايجاد فرد يخلف النبي بحيث يكون لديه من القوة والمقدرة ما يستطيع بهما ان يستمر حاملاً رسالة النبي ودعوته ومحافظاً عليها .

وخلال المائتين والخمسين عاماً التي اعقبت وفاة النبي شكل احفاده فرقة وازداد عددهم كثيراً ولذلك لا يوجد ثمة ما يمكن الاستناد عليه في معرفة حقيقة وأصل علي بن محمد الذي هاجر من مدينة قرب طهران الحالية وادّعى انه من نسل النبي ، ولا يوجد هناك ما يمكن الرجوع اليه في ادراك حقيقة محاولاته الفاشلة للحصول على سطوة ونفوذ شخصي في المناطق المنشقة التي تتاح فيها عادة الفرص لمن يصطادون في الماء العكر . وفشل علي بن محمد في البصرة ، وكانت مدينة تقع في اقصى الغرب من مدينة البصرة الحالية ، فهرب الى بغداد . ولم يطل به الوقت في بغداد حتى عاد الى الجنوب وقد اختمرت في ذهنه خطة تختلف عن سابقتها . واختار ثورته في هذه المرة جموع عبيد افريقيا الذين عرفوا (بالزنج) ، وهم رجال من بلاد تدعى الآن زنجبار ، كمادة خام لثورته .

وكان عدد هائل من هؤلاء العبيد يشتغلون في الاراضي البور الواقعة في شرق البصرة يزيحون عنها طبقة التربة الغنية بالاملاح وفي نفس الوقت يكشفون عن الأراضي الصالحة للزراعة . وعلمهم هذا كان من اشق الاعمال ومعيشتهم احطها ، لأن لا رابطة من مودة وحنان تعاطف يمكن ان تقوم بين ذلك السيد وعبده .

وفي هؤلاء الرجال الذين نعموا على العالم كله إلا على ابناء جنسهم ادرك علي ، - الشخص البغيض كما سمي فيما بعد ، القوة والوحشية اللتين ستدفعانه الى السيطرة والى تكوين قوة هائلة يمكنه الاعتماد عليها .

وتقرّب من هؤلاء العبيد واقناعهم بأرائه يدل على فطنة حادة وادراك نفسي عميق يفوق اي رجل يعمل في الدعاية والاعلان ظهر فيما بعد . وكان يخاطبهم ويتحدث اليهم عن لسان الله وعن لسان المأمون حتى اختلطت عليهم الصورتان . ويظهر ان الطائفة الدينية التي ادعى مسانبتها - بحكم كونه انخدر من نسل ابنة النبي - وقد اختارها فقط لأنها تبنت قولاً مأثوراً وهو : ان الحاكم يجب ان

يكون افضل رجل (حتى وان كان اسود حبشياً) . كانت تلك هي طائفة الخوارج الذين يعتبرونها جريمة كبرى الاّ يعترف بكونهم هم الممثلين الحقيقيين للاسلام ، وفيما عداهم من المسلمين يجب ان يسحقوا لأنهم كفرة ملحدون .

وكانت هذه يجلاء من اقرب المبادئ التي يمكن حشو أدمغة العبيد بها في انطوائهم على مرارتهم وحرمانهم . وفي النواحي الدنيوية لم يدع علي بن محمد الى مساواة العبيد مع اسيادهم فحسب وانما اراد ان يكون لهم انفسهم حق امتلاك العبيد .

وقامت ثورة العبيد في ايلول من عام ٨٦٩ بعد الميلاد وتحت قيادة علي ، واتخذوا من الاهوار المحيطة بدجلة قواعد وتحصينات لجيوشهم . وكانت تنظيماتهم الحربية تتركز في الهجوم الليلي ونصب الكمين لزوارق اعدائهم ومهاجمتهم من خلف ستار القصب . وكان عددهم في البداية خمسين ألفاً ، وتضاعف هذا الرقم بعد ذلك بانضمام الببو والساخطين الى صفوفهم . وعندما اظهرت الثورة في البداية بوادر أمل في النجاح هرب عدد كبير من جنود الخليفة من الزنوج والتحقوا بجيوش علي . وشيدوا لهم خلال سنة واحدة مدينة على الضفة الغربية من دجلة ، وراحوا يشنون منها غاراتهم وغزواتهم على المدن البعيدة ، حتى انهم اغاروا على خوزستان الواقعة الى الشرق من الحدود الفارسية . واعتاد علي ان يعرض إثر دحر أو تدمير أية مدينة رؤوس القتلى امام انظار احيائها . وعندما اكتسح البصرة في عام ٨٧١ ميلادية كان اقل تقدير لجيوشه ثلاثمائة الف رجل . وخاض العبيد في بحر من دماء احرار الرجال الذين قتلوهم . وفي عام ٨٧٩ بعد الميلاد بلغت قوة الزنج أوج عظمتها ، واستولوا على عدة مدن بابلية حتى انه استسلم لهم جزء من كردستان . واعتاد الزنج ان يتركوا حامية قليلة في المناطق التي يحتلوها ويتراجعوا بعد ذلك الى الاهوار الكثيفة حيث أمنهم وسلامهم المضمون .

وفي سنة ٨٨١ ميلادية ، وبعد اثني عشرة سنة من قيام الزنج بثورتهم ، دخلت الحرب مرحلتها النهائية حيث حوصرت مدينتهم التي اطلقوا عليها اسم - المختارة - في حين كان اعدائهم يسمونها - المدينة البغيضة - ويقال انها كانت تضم في بداية

الحصار ثلاثمائة الف مقاتل يدير شؤونهم ملك زنجي .

واستطاعت المدينة ان تقاوم الحصار المضروب حولها مدة عامين ، وعندما سقطت اخيراً في عام ٨٨٣ م هرب ملك الزنج ، والقي رأس - علي البغيض - نفسه عند قدمي قائد جيش الخليفة . وقيل ان علياً قتل نفسه بيده حينما سقطت مدينته اذ لم يأت احد للخليفة للحصول على الجائزة التي وضعت ثمناً لقتله .

وحارب عدد من الزوج الذين هربوا من - المختارة - في مجاهل قصب الاهوار الكثيف ، واخيراً استسلم الى قوات الخليفة اولئك الافراد الذين نظموا انفسهم في عصابات كبيرة بعد سقوط مدينتهم ، وتبدد آخرون منهم في متاهات القصب والمياه ولم يسمع بهم بعد ذلك . واطلق اسم - البرابرة - على اولئك الزنج الذين استسلموا داخل المدينة . وهم لا يتكلمون العربية ويأكلون الميتة ولحم الانسان .

انه لمن العجيب حقاً ان مثل ذلك العدد الهائل من العبيد لم يترك له احفاداً في مناطق الاهوار هذه (١)

(١) تتضارب آراء المؤرخين كثيراً في الحكم على حركة الزنج الا ان هذه الحركة عبرت حقا عن القلق الاجتماعي والقلق الفكري في ذلك العصر ، واود هنا اقتباس بضع فقرات مختلفة من كتاب (ثورة الزنج) للدكتور فيصل السامر تعليقا على بعض ما ذكره المؤلف هنا عن الزنج وثورتهم : (ان بلاد الزنج في راي الجغرافيين المسلمين تمتد من اعلى نهر النيل حتى سفاله ، ويقول المسعودي ان الزنج شيّدوا مملكة واقاموا على راسها ملكا لقبوه « لوقلين » واشتهرت بلادهم بانتاج العاج الذي كان يصدره التجار الى البلدان الاسلامية ، اما طعامهم - في بلادهم الاصلية - فيتكون من النرة والموز واللحم والعسل ، على ان بينهم جماعة كانت من اكلة لحوم البشر) (وما زاد في سوء حالتهم الاجتماعية والنفسية انهم لم يكونوا على هيئة اسر مكونة من اباء وامهات وابناء وانما ابعدوا عن اسرهم في وطنهم الاصيل وحرّموا نعمة الاستقرار العائلي وزرعوا في بيئة غريبة عنهم دون ان تربطهم اية رابطة من التعاطف والتآلف والانسجام مع سادتهم او من كان يتوب عنهم) (ومهما يكن من امر فالباحث لا يملك الا ان يعترف بان حركة الزنج كانت محدودة لا تنطوي على برنامج اجتماعي شامل ، وانها لم تهدف الى الغاء العبودية كلية كما انها لم تحاول انشاء نوع من الاشتراكية كما يعتقد نظام الملك الذي يقول : ان مبادئ صاحب الزنج هي نفس مبادئ مزدك : ان المزدكية دعت الى احقاق المساواة بين الناس واعتبار الاموال ملكاً مشاعاً بينهم ، ولم تكن ثورة الزنج تدعو الى مثل هذا او الى شيء منه ، بل كانت ←

← رد فعل عنيف لما قاساه للعبيد من الاضطهاد الاجتماعي ومحاولة ايجابية للانتقام من سادتهم حتى ولو استدعي ذلك واسيادهم الى العبودية) (على اننا لا نستطيع ان نبريء صاحب الزنج واتباعه بما ارتكبه من اعمال القسوة التي نسبها اليهم المؤرخون ، فما من شك انهم دمروا المدن ونهبوا القرى وقتلوا الرجال وسبوا النساء واسترقوهن) (وما اظن احداً يستطيع الادعاء بان النزعات الانسانية كانت ذات وجود في اية حرب او ثورة شهدتها المصور الوسطى سواء كان ذلك في الشرق ام في الغرب . لقد كانت اعمال القسوة والتعذيب والتشهير والتمثيل تجري في المعسكرين : معسكر الزنج ومعسكر العباسيين ، غير ان هناك كثيراً من الشواهد تدل على ان صاحب الزنج كان يقصد بها اعداءه وحدهم ، وانه طالما وقف موقفاً نبيلاً من الاثرياء والمحايدين كما فعل في قريتي القادسية والجمقرية) (واعتنق صاحب الزنج مذهب الخوارج والازارقة وهؤلاء ييحبون استرقاق اعدائهم من المسلمين وقتل اطفالهم ونسائهم باعتبارهم كفاراً مارقين) (ان ابراهيم بن محمد بن كبار الموظفين وهارون بن عبدالرحيم الشيعي صاحب البريد كانا مطمئنين الى ان العرب لن يساندوا الزنج في حرب البصرة وان مجموع من جمعهم علي بن محمد من العرب لم يزيدوا على تسعة اشخاص ، هذا في الوقت الذي دخل الزنج البصرة وفي مقدمتهم فرقة كبيرة من الفرسان العرب الذين كان لهم دور كبير في احتلال المدينة .)

الفصل الثاني

وغادرنا البصرة بسيارة صغيرة بعد ان مكثنا فيها اربعة ايام وحشرنا ، وقد كنا خمسة اشخاص ، في داخلها مع كوم من الحقائب يحتوي اغلبها على الادوية ولا اتذكر من الساعة التي قضيناها في تلك السفرة غير القليل لما اعقبها من اشياء جديدة علي . وكل ما اذكره هو الدرب المترب الذي سلكناه والذي يمر في احيان كثيرة ببساتين النخيل وبالاھوار الموسمية الجافة ، وبأراضي منبسطة تحت سماء صافية تحلق فيها امراب الغربان السود ، وعلى جانب من الطريق انتصب صقر بكل تحد فوق جثة كلب ميتة .

ثم انخرقنا عن الطريق الرئيسي ، وراحت السيارة تترنح وتتعثر فوق أرض وعرة ، تقطعها قنوات الري ، في اتجاه بستان للنخيل بعيد . وعلى مقربة من نهر الفرات تقع قرية صغيرة معظم سكانها من ملاحى بساتين النخيل ، والىها جلب ملاحو قيريجر طرادتنا .

وظهرت السماء حالكة الالهاب تحت سعف النخيل ، بينما أشعة الشمس الواهنة تلتمع من بعيد ، وكل شيء من حولنا لاح غريباً عنا . وأخذنا نسير بين أكواخ القصب المبعثرة في تلك القرية ، وكانت تفصل هذه الاكواخ عن بعضها خنادق وقنوات تمتلئ بالماء ويقطع كل قناة جذع من النخيل كجسر يعبر عليه الناس . وشققنا طريقنا عبر تلك الجسور القلقة نحو اكبر كوخ في القرية . وكان ذلك هو ... المضيف .

وتتميز جميع قرى الاهوار بهذه (المضايف) وتستخدم لايواء الضيوف فقط يأكلون ويشربون فيها حتى ولو كانوا غرباء طارئين . وقد جرت العادة الا تكون ذلك لاكثر من ليلة واحدة . وتتكون المضايف كيبوت القصب الاخرى من صف من اقواس قصب عملاق يبلغ طوله عشرون قدماً ، وتغطي الاقواس من الخارج (بالبواري) . وعدد الاقواس يكون دائماً فردياً ، كأن يكون تسعة او احد عشر أو ثلاثة عشر أو خمسة عشر قوساً ، ومدخل (المضيف) يكون دائماً الى جهة مكة ، وهو في معظم المضايف المنفذ الوحيد للضوء ، على ان بعضها يزخرف بأشكال بديعة من القصب عند طرف المضيف الثاني . وفي كلتا الحالتين تجد الضوء في الداخل ضئيلاً والجو تحت الاقواس التي سودها الدخان يعيد ذكرى الكاتدرائية . ولا يحتوي المضيف على اثاث ومفروشات ولكن حالما يصل المضيف يقوم الخدم بفرش السجاد فوق (بواري) القصب ، ثم يضعون عليها وسائد خضراء أو قرمزية لان الوضع الاعتيادي للجلوس خارج المدف هو ان يتربع الشخص على الارض . ويرقد موقد أواني القهوة في ثلث المسافة عند مدخل المضيف . والموقد هذا عبارة عن شق صغير مكشوف في الارض تصطف الى جوانبه ادوات القهوة النحاسية والبرونزية المختلفة الحجم ، ويوجد بينها وعاء كبير يتميز غطاؤه عن البقية بعلامة خاصة مزخرفة ، ويظهر ان ادوات القهوة هذه متممة لمظهر المضيف ووقاره .

ولم يكن (شيخ) تلك القرية حاضراً فاستقبلنا اخوه ، وما زلت اتذكر ذقنه او بالاحرى انعدام الذقن في وجهه ، وقد كان اصغر ذقن رأيت في حياتي ، ولا تبين لهذا الذقن من أثر سوى بضعة شعيرات رمادية اللون ، هي امتداد للحية ، حلت محله ، ولو افترضت خطأ وهماً يصل ما بين شفته السفلى وبلعومه لما اعترض هذا الخط شيء .

وفي المرحلة الاولى من رحلتنا هذه كنت أجهل تماماً الاساليب والعادات التي تم عن التصرف السليم في نظرهم ، بينما معظمها شائع عند قسم كبير من العالم العربي ، وعند سكان الاهوار بصورة خاصة ، في حين لاح معظمها جديداً على .

وقد تعلمت شيئاً منها عن طريق المحاكاة والتقليد ، وثيريجر نفسه لقنني الشيء الكثير منها قبل ان تغادر البصرة . فتعلمت مثلاً ان ابسط اشكال التحية عندهم . هي ان يضع الشخص يده على قلبه بعد المصافحة ، وعليه ان يدخل الدار حافي القدمين . وعلمت انهم يعتبرون اليد اليسرى نجسة وتستخدم فقط للامور (القدرة) . وهذه العادة الاخيرة من اصعب الامور للاوربي غير المتمرن ان يتذكرها . والاشخاص الذين يستخدمون اليد اليمنى للاعمال (النظيفة) تراهم يعجزون عن عدم اشراك اليسرى في القيام بالاعمال كتممة وملحقة باليمنى . وادركت حالاً انه يلزم جهد كبير وشعور يقظ حتى يكف المرء عن استخدام اليد اليسرى في حياته اليومية .

وانا وثيريجر ، بالنسبة الى القيم والعادات التي تعارفوا عليها شخصان غير نظيفين ، لأن فكرة استعمال ورق التنظيف بعد قضاء الانسان حاجته الطبيعية ، لديهم شيء كرهه ، وليس ثمة ما يمكن عندهم ان ينظف الانسان حقاً غير الماء أو الرمل في حالة عرب الصحراء ، ويستخدم سكان الاهوار اليد اليسرى لذلك . فالرجل يجلس متفرصاً حتى ينتهي ، وقد يستمر ذلك لعدة دقائق . وبعد التبول ايضاً قد يغسل المرء نفسه بالماء .

ولأن اليد اليسرى هي التي تستخدم لكل تلك الاغراض وأشياء قدرة اخرى ، فإنها نفسها اصبحت قدرة ، حسب اعتقادهم ، وتعدت لذلك من الحلقات التي تحلتي اصابع اليد اليمنى . ومهما تكن نظافتها من الأوساخ فإنها يجب الات لمس الوجه أو الرأس أو تقوم بأي من الحركات العفوية التي لا حصر لها والتي تهدف الى لا شيء ، كقرص الشفة عند التفكير او لمس الذقن ، وكل هذه حركات تحدث لا شعورياً عند الاوربيين (١) .

وفكرة النظافة راسخة — بغض النظر عن درجة تطبيقها — حتى عند الأعراب

(١) صحيح ان سكان الاهوار لا يتناولون الطعام ولا يلمقون اليد اليسرى ، الا ان هذه اليد تقوم في الحقيقة بكل تلك الحركات العفوية التي تصور المؤلف انها محرمة للقيام بها باليسرى . المترجم

البدايين . فإنه لشيء مخجل مثلاً ان يترك المرء الشعر يغزو جسده . ونادراً ما تشاهد اظافر تحشوها الاوساخ في اليدين أو في القدمين . وقبل تناول الطعام بقليل يدور على الحاضرين احد الخدم او المضيف نفسه بابر يق وانا لغسل ايديهم ، وقد اعتاد المعدان غسل الفم بعد الفراغ من الطعام .

وتناول الطعام على الطريقة العربية يحتاج الى تعلم ومران طويل ، ووجدت ذلك في البداية من الصعوبة بمكان . والنوع الرئيس الغالب عندهم من الطعام جبل غروطي الشكل من الرز في صحن كبير عرضه قدمان وارتفاعه قدم واحد ويصعب كثيراً السيطرة على حوافه . وعند الاكل يجلس الضيوف متربعين في مضيف الشيخ امام واحد او اكثر من هذه الجبال التي تصطف حولها صحون المرق وأواني لحم الضأن والدجاج وصحون الحلويات المملوءة بمادة جيلاتينية ومادية رقيقة تشبه الصابون المعطر في رائحتها ، وكل ذلك يؤكل بواسطة اليد اليمنى ، على ان اليسرى تقوم باعباء حمل الدجاجة لتمزقها اليمنى شر تمزيق . والمضيف العربي الذي يستحق الشهرة لكرمه وحسن وفادته يقوم بذبح الدجاج لضيفه ، وثمن الدجاجة الواحدة هناك اربعة دراهم . اما الشيخ الكريم فيذبح في كثير من الاحايين شاة يوضع رأسها الكريه بين الصحون الاخرى ليدلل على هذه الحقيقة الناصعة . وتعتبر قطع اللحم المقطوعة من الاذن ، وبعض الشعيرات لا زالت عالقة بها ، شيئاً له حلاوته ولذته . واصابع المضيف تنبش في رأس الشاة لتقدم للضيوف شرائح لحم الفم اللذيذة الطعم لو لم يصر الرأس على التحديق في الشخص بعيونه الجاحظة المرعبة .

وجدت في وقت متأخر في كتاب المستر دزموند ستورات *Desmond Stewart* (بابل الجديدة *New Babylon*) مثلاً عربياً يقول : « كل كالجمل وكن السابق في القيام » ولو كنت قرأته من قبل لأعاني في تفسير كثير من الامور . وقعت امام ناظري فيما بعد . وفي الحقيقة ان كل وجبة طعام هي نوع من السباق . فكل شخص تراه يحشوفه بشراهة وهدوء لا يقلقه غير أفواه تمضغ وهمسات الازدراد تتصاعد من حين الى آخر . ومهما كانت الاشياء الملحقة ومهما كان التزيق

والتنميط فالرز هو الغذاء الرئيس ، حيث يصب الواحد منهم قليلاً من المرق على القسم الموجود امامه من جبل الرز ، ثم يحفر منه بأصابعه بينا ظاهر الكف الى الاعلى والابهام في راحة اليد ، وعندما تصل اللقمة الى الفم يدفعها الابهام اليه ، اذا بقي ثمة حبيبات خلال هذه الرحلة من الصحن الى الفم .

وفي الحقيقة انني كنت أجد يدي في ذلك المساء الاول تمتلئ من الصحن الا انها تصل الى فمي فارغة، لان مجرد جلوسي متربعا امام الرز يجعله بعيداً عني، وليس المهم حجم اللقمة التي كنت أتناولها ، لأنها سرعان ما تتضائل الى حبيبات فلائل قبل ان تصل إلى فمي . وكانت حبات الرز تتساقط من يدي لتستقر بين فخذي في فسحة الشمع السميك الذي فرشهُ الخدم قبل إحضار الطعام ، وكان هذه الحبيبات في طقطقاتها على الشمع زخات مطر على شوارع لندن . ورحت أراوغ حبيبات الرز هذه وأتحايل عليها فأصب المرق فوقها وأعصرها على شكل كرات في يدي . وعلى الرغم من انه لاحت تباشير الفشل والاندحار في محاولاتي تلك خلال الاسبوع الاول ، إلا انها كانت الفكرة الوحيدة التي يمكن تطبيقها للحد من استهتار حبيبات الرز التي تصر على الترحلق من بين اصابعي .

وعندما انتهى سباق تناول الطعام هذا – وطبق تيزيجر بينهم عادة البدو في القيام حالا بعد الانتهاء من عملية تناول الطعام – ادركت انه مهما كان الحُصم فعالا في كيفية تناوله الطعام فإنه يوجد بينهم من يفوقه شراهة ونها ، فقد انتثرت على الشمع أطال من الرز والعظام ونثار الطعام .

وتمكنت اخيراً من تناول الرز بخفة وحيوية دون ان تنزلق من بين اصابعي حبة واحدة منه ، بيد ان العرب ظلوا يصرون حتى النهاية على القول بأني لا اؤدي ذلك بطريقة صحيحة رغم انني لم الحظ في ذلك اي فرق بيني وبينهم .

كان شيئاً طبيعياً ان تغطى يد الشخص اليمنى بالرز وان يقطر منها المرق بعد الانتهاء من الطعام ، وانه لشيء طبيعي ايضاً ان تنظف بلعقها . واذا كان الدجاج ضمن وجبة الطعام وكانت اليد اليسرى قد قامت بعملها في مسك الدجاجة خير قيام لتنفث فيها اليمنى جام غضبها فلا بد ان المرق والرز قد غطاها ايضاً . وثبت

لدي كشيء مستحيل عملياً ان اندكر بأن العادات تسمح للمرء لعق إحدى يديه المغطاة بالطعام في حين ترى هذه العادات نفسها تمنعه من ذلك بالنسبة لليد الثانية التي هي الاخرى مغطاة بالمرق ونثار الطعام .

وهناك قواعد معينة لشرب القهوة عند سكان الاهوار يجب تعلمها ، وعدد قليل من السكان يكتنهم تقديم القهوة غير انه شيء طبيعي ان تلاحظ كل شخص معروف عندهم يقدمها لضيوفه . وتصنع القهوة بتحميم حبوبها على النار ثم تطحن (بالهاون) . والعادة تقضي ان تجري هاتان العمليتان في حضور الضيف . ولا يمكن لأحد ان يجرأ على تقديم قهوة سبق له أن أعدها قبل مجيء الضيف . وتصب هذه القهوة عند الموقد من وعاء الى آخر امام الضيوف بطريقة لا يمكنني ادراكها، ثم يقرب احد الخدم من الضيف حاملاً الوعاء في يد (والفنجان) في اليد الاخرى وتصب في (الفنجان) كمية قليلة في حجم ملعقة الشاي يشرها الضيف دفعة واحدة اذا استطاع لأنها تكون ساخنة جداً . فاذا لم يرغب في المزيد ، عليه ان يهز الفنجان بسرعة حالما يعيده الى الخادم . وعلى كل حال فمن غير اللائق ان يشرب المرء اكثر من ثلاثة (فناجين) قبل ان يعطي هذه الاشارة .

يقبع (مشحوف ^(١)) نيزيجر في احدى القنوات الضيقة التي يعلوها الزبد ، والتي تخترق القرية في عدة اماكن ، وقد تركه في هذا المكان ملاحونا عماره وسبيتي وحسن قبل مقابلتهم لنا في البصرة . وكلمة (مشحوف) أقل من ان تطلق على مثل تلك القوارب الانيقة ، وهي في جنوب العراق مختلفة الحجم والاشكال الا

(١) يطاق المعدان على قواربهم اصطلاحاً عاماً هو الشحوف وجمعه مشاحيف . وهذه المشاحيف على انواع مختلفة منها : جلابيه ، وبركاشه او دانك ، وطراة ، اما الماطور الصغير ، الذي يستخدم لصيد الطيور ، فلا عتق له كما في بقية القوارب الاخرى . وقد يربط المعدان عدداً من حزم البردي بعضها الى بعض ويصنعون منها قارباً يدعونه « الشاشة » .

عن (المعدان او سكان الاهوار ، تأليف ولفرد نيزيجر ترجمة باقر الدجيلي »

المترجم

ان مظهرها الخارجي يلوح بدائياً . ويبلغ طول (الطراده) أو قارب الحرب ٣٦ قدماً وعرضها اقل من ثلاثة اقدام ونصف في أوسع مكان منها. ومقدمتها عالية رشيقة ترتفع خمسة اقدام عن سطح الماء لتشكل قوساً يشبه مخلب النسور. وهذه (الطرادات) هي أرقى قوارب الاهوار ، ويزخرف داخلها برؤوس مسامير كبيرة كباب قلعة من قلاع القرون الوسطى . والمقدمة العالية تساعد (الطرادة) في شق طريقها خلال القصب والماء الضحل الذي لا يتجاوز عمقه بضعة انشات بينما لا يمكن للقوارب الاعتيادية ذلك .

وعند الغروب مرنا على الاقدام خلال بساتين النخيل واجتازنا وراونا طرادتنا المنتظرة ، ثم هبطنا الى ضفة القرات . ولم يكن ثمة مشحوف في النهر ، ولكن الافق انبسط وراونا عارياً لا يحجبه شيء، وامتد على بعد لا نهائي خط اسود معتم .. انه قصب الاهوار !

وحينا كنت نائماً تلك الليلة في المضيف راحت تراودني أحلام تطوف كلها حول الاهوار ، بينما كانت الكلاب تمزق حجاب الصمت المطبق بعوائها المتواصل طوال الليل واقعدت قرب موقد القهوة ثلاثة زنوج مسلحين صبغ سواد وجوههم أحلام ليلتي الموحشة .. تلك الاحلام التي ما انفكت تدور حول القصب العملاق، كأشجار الغابات ، يتوارى فيه ، عبر القرون ، جيش الزنوج من أكلة لحوم البشر . وغشت احلامي كذلك ثرثرة هؤلاء الزنوج الحفاقة والبرغوث الاسود اللعين .. البرغوث ! .. البرغوث !! وعند الفجر تناهت الى سمعي اصوات الوز الوحشي من بعيد تحتلط بقطعة المطر وخشخشته على سقف المضيف .

وفي صباح ذلك اليوم الرمادي البارد كخريف انكلماتنا وصل رابع ملاحني تيزيجر ويدعى - كذيه - .. وكذيه هذا من نوع الاشخاص الذين يخطئ المرء اول الامر في تقديره لهم ، ولكن شخصياتهم سرعان ما تظهر بمد فترة قصيرة متناقضة متضاربة . وكان شاباً ضخماً في التاسعة عشرة أو العشرين من العمر ذا سياء

مغولية^(١) . ويستوطن الاهوار عدد غفير من هذا الجنس، وربما انحدروا من سلالة جيش هولاء كوال الغازي حفيد جنكيزخان الذي قتل حوالي مليون مواطن عند نهبه بغداد في عام ١٢٨٥ ميلادية (وتردد هولاء كوال في قتل الخليفة ، فعقد اجتماعاً مع المنجيين والعرفان ليرشدوه ان كانت الطبيعة ستغضب من عمله هذا فردوا عليه في سخر بانها لم تغضب عند قتل الحسين أو يوحنا المعمدان أو المسيح ، فكان ان قطع هولاء كوال رأس الخليفة تحت ظروف من الخوف مرعبة) .

وكذبة .. الذي يظهر لأول وهلة سعيداً ومعتدلاً كان في الحقيقة شاباً مزاجي الطبع يتقلب بين الفرح والحزن وبالتالي فإنه أقل الاربعة ثقة في الاعتماد عليه .

وحلنا (الطراده) وبدأت رحلتنا الحقيقية حين شقت انطراة الطويلة طريقها خلال قنوات القرية . وكان الملاحون خلال سيرنا يرفعون الجسور المصنوعة من جذوع النخيل بين حين وآخر كما ترفع الجسور فوق الممرات البحرية الكبيرة لتعبر البوخر الضخمة من تحتها .

وشققنا طريقنا ضد مجرى نهر الفرات بمحاذاة أقرب الضفة لمسافة ميل واحد قبل ان نصل الى - الهوير - على الضفة الشمالية . والهوير .. قرية تكتظ بأكواخ القصب وهي احدى المراكز الرئيسية التي يعتمد عليها سكان الاهوار في صناعة القوارب . ولأن الخشب ينعدم في الاهوار ويقتل بصورة عامة في جنوب العراق ما عدا جنوع النخيل ، فإن كل المواد اللازمة لصناعة القوارب تستورد من الخارج ما عدا الزيت الذي تطلّى به فهو صناعة محلية .

(١) يقول الدكتور شاکر مصطفى سليم في كتابه « الجبايش » : « يبدو معقولا ان نعتقد ان قسماً من سكان اهوار العراق تحدروا عن اصول بابلية وسومرية ، وتعرضوا لكثير من الاختلاط الذي تسبب عن الهجرات او التزاوج مع الايرانيين في القسم الشرقي من منطقة الاهوار ، ومع بدو الجزيرة العربية في القسم الغربي ، والقسم الاخر هاجر ولجأ الى الاهوار جماعات وعشائر من ايران ومن الجزيرة العربية فتأقلم وقد الكثير من صفاته الاصلية » .

المرجم

وتضم هذه القرية المتخصصة في صناعة القوارب عدداً كبيراً من (السادة) الذين ينسبون انفسهم الى النبي ، بينما يقل عددهم كلما توغل المرء في داخل الأهوار . ويميز السادة انفسهم بارتداء عمامة تشابه الكوفية البيضاء المرقطة باللون الاسود غير انها عند هؤلاء السادة تكون مصبوغة باللون الازرق المعتم . ويتجول السادة في الاهوار للحصول على النقود من الناس كحق من حقوقهم الدينية ، ويقطن البعض الآخر منهم مسالك الانهار المحيطة بالاهوار حيث ترجح كفتهم ، وهناك يعملون ليكسبوا عيشتهم كبقية الناس .

ويعتبر السادة من اشد الناس في اظهار عداوتهم للمسيحيين ولغير المسلمين بصورة عامة ، وقد لاقى تيزيجر خلال اكتشافاته الاولى في المنطقة صعوبات كثيرة مع هؤلاء السادة كان عليه ان يتغلب عليها . وكان احد السادة مرة من بين جماعة ضمت تيزيجر نفسه ، فراح السيد يحمل المضيف لوماً كبيراً لاستضافته شخصاً كافراً ، ثم أخذ يتدب موت الايمان الذي جعل المسيحيين غير الطاهرين يأكلون في بيوت المؤمنين . ولعل توجيه ذلك الهجوم من قبل السيد الى المضيف بمثل تلك الصورة العلنية ساعد على ترجيح كفة تيزيجر ، حيث انه لا يوجد ثمة عربي يتحمل ان يشتم ضيفه أو يهان امامه . ورد المضيف على السيد قائلاً انه ليس عالماً دينياً وان تيزيجر ضيفه ويجب أن يعامل مثله ، اما بالنسبة لطهارته ونظافته فظهره على الأقل يدل على انه نظيف مثلهم . وبعد هذه المحاورة شعر ببقية الضيوف بأنه عليهم ان يحددوا موقفهم ايضاً ، وواحد بعد الآخر اخذوا يتركون جانب السيد ليجلسوا الى جانب تيزيجر . وقد استطاع بعد فترة قصيرة ان يداوي ابناء السادة واطفالهم فأحبه بعد ذلك الجميع واحترموه . وعلى اية حال فقد لاحظت الناس في - الهوير - لا يشربون من الاواني التي نشرب بها قبل غسلها بالماء ، ولاح لي ذلك مجرد تظاهر وأبهة ليس لها ما يبررها .

ومكثنا في - الهوير - فترة صنعت للطراة خلالها مجاذيف جدد . وغادرنا بعد الظهر الى قرية - الرملة - التي تحدد اليابسة قبل ان نصل الى الاهوار العظيمة .

الفصل الثالث

غادرنا القرية والرياح تعصف بمجدة والسما رمادية اللون خالية من الغيوم . وما خلفنا بساتين النخيل ومساحات اليابسة وراونا حتى تعرى الافق امامنا لا تحجبه غير سيقان القصب والبردي المحترق تتخلله مجاري المياه التي تراعت وكأنها اكثر عتمة من الافق الازرق الرمادي الداكن . وكشفت بقع متناثرة سوداء عن نفسها وكأنها مؤخرة جيش النخيل المنهزم امام طلائع قصب الهور الذي لاح لنا من بعيد . وامتدت الارض امامنا الى بعد لا نهائي منبسطة كالمرآة .. كبيرة شاحبة مقفرة . وسيقان البردي المزيبة تغوص في ماء يعكس صفحة سماء عظيمة مكفهرة . والقصب العملاق هنا وهناك يتلوى الماء وينحني صاعراً تحت ضغط الرياح العاصفة وفي اللحظة التي اشتدت فيها قسوة الريح واضطرب الماء بين سيقان القصب بارتعاشات من موجات متعاقبة ، انبعثت اصوات مختلفة غريبة كفرقة انشاد . وتساعدت عدة انغام سيمفونية عجيبة من انين الحلفاء الجافة ومن نقيق الضفادع ومن زئير العاصفة . ولئن امكن لشياطين هيرونيمس بوش *Hieronimus Bosch* (1) ان تتكلم من لوحاته الفنية فإن تلك الأنغام والضجة تظهر وكأنها منطلقة من أفواهاها .

(١) هيرونيمس بوش : فنان هولندي من فناني القرن الخامس عشر اشتهر بلوحاته الخيالية ظاتي تلور مواضعها حول الشياطين والجن .

لم يكن ثمة لون في الافق الا ان السماء الرمادية التي لا يحجبها قل ولا شجرة بدت واسعة فسيحة كما لو انك تحديق فيها من زورق في عرض البحر . وتمطي متة الرياح بين آونة واخرى أسراب – نيبع الماي *Pelicans* – بأجنحته المنشورة وبأجساده الضخمة الكبيرة كطائرات بحرية . وعبر السماء العظيمة العاصفة خطف مرب من طير – ابو منجل الابيض *White ibis* – بعيداً في أجواء الفضاء يعرض غلالته الجميلة . وهنا بين البردي والقصب القصير الشاحب اللاحد له يسيطر على الانسان شعور بأنه لا يمكن لسفينة ان تبحر ولا لأقدام مخلوق بشري ان تسير ويحس المرء انه من الصعب عليه إيجاد ملجأ يحميه او شيء يظله .

وشقت الطرادة دربها لمدة ثلاث ساعات والمنظر واحد ابداً لايتغير وزفيف الريح وعصفها المرعب بين القصب يرعد من حولنا بينما اخذت بساكن النخيل في – الرملة – التي لاحت كبقع سوداء تتوضح تدريجياً ، واخيراً اخذت الطرادة تسير في مسالك مائية ينبت القصب في اليابسة منها على الجانبين . وظهرت امام ناظرينا اكواخ القصب من بعيد تزدهم وتتكش حول النخيل .

وعلى الرغم من ان – الرملة – تقع في جزيرة منخفضة وتتبعثر من حولها بساكن النخيل فإنه لايمكن تسمية سكانها (معدان) بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة ، فإنها كانت تضم اول مجتمع بدائي اراه لان – الهوير – كاذت واقعة على طريق عام وقرية من معالم المدينة ، ثم اننا كنا قد نزلنا في مضيف (الشيخ) ولم نختلط بالعامّة من الناس . والاكواخ في الرملة صغيرة لايزيد عرض الواحد منها على ١٢ قدماً وطوله على ٣٥ قدماً ، وقد ظهر الكثير منها مضطرباً اثر العاصفة التي تلاعبت بالنخيل فاحالته الى اشكال مشوشة . وانحسر ماء الهوار عن قنوات طينية الجوانب ومستنقعات صغيرة بين الاكواخ يعلوها الزبد ، وجرفت الرياح قشور القصب في دوامة رملية على سطح الماء . وكانت تنتظرنا ، على ضفة تجاور داراً قريبة منا ، جماعة من رجال القرية بكوفياتهم وجلابيبهم التي راحت ترفرف مع الريح . وبعد دقائق من تبادل التحيات كنا نجر خطانا نحو احد البيوت . وكان المدخل شقاً في القصب العامودي ومن الضيق بحيث لايمكن لاحد دخوله الا منحضياً .

وفي تلك المرحلة الاولى من رحلتنا كنت امتليء غيظاً لارتكابي اخطاء اجتماعية عن لا قصد وكانني متعبد في كنيسة لم يتقن اصول ديانته بعد . وكنت حذراً في ان اضع يدي فوق قلبي بعد المصافحة تماماً كما يفعل اولئك الذين يضافحونني . وبأخذني الارتباك عندما ينحني احدهم ليقبل يدي . ودخلنا الكوخ وما وصلت منتصف المسافة عنمدخله حتى ادركت ان من الواجب ان اكون حافياً في داخله ، واضطربت الجماعة من خلفي عندما توقفت لاحل عقدة حذائي .

وكان الكوخ من الداخيل لا يختلف عن بقية الاكواخ في الاهوار ، فهناك تسعة اقواس من القصب ، وفي منتصفه دكة تشبه سرير النوم مصنوعة من القصب تشطره الى شطرين ولم تكن الدكة هذه في الواقع سريراً للمنامة وان اقترب الشبه بينهما لان سكان الاهوار ينامون على الارض دائماً ، وكما يستخدم الاوروبي خزانه لحفظ الاواني والحاجيات المنزلية فإن هذه الدكة استخدمت ايضاً لنفس الغرض ، فقد تكدست فيها المجاذيف والحبوب والفرش والبطنانيات والوسائد واشياء اخرى لم استطع تمييزها وسط الظلام الذي لفتنا حيث لا يحتوي كووخ القصب على اية نافذة يمكن للضوء ان يتسلل منها .

ان نصفي الكوخ يشبهان تقريباً غرفتي الطابق الاول من البيوت القديمة الطراز فاحدهما خصص لتطبخ فيه العائلة وتأكل وتجلس .. وتنام ايضاً . والنصف الثاني هو بمثابة غرفة استقبال ونادراً ما يسمح بالجلوس فيه لغير الضيوف . واستطعت ان المح وراء الدكة نساء واطفالاً تقرقصوا حول نار يعلوها قدر يرتكز على مساند مثلثة الشكل ، وتتوضح على ضوء اللهب حيوانات مختلفة ، فهناك كلبان وقطة وعدد من الدجاج وثلاثة عجول . وكانت الارض قرب الدكة مغطاة بابع (بوارى) حول فسحة مكشوفة في الوسط يشتعل فيها القصب ، والى جوارها صف من ادوات القهوة . واحضر لنا المضيف وسائد صنع غطاءؤها الخارجي من غزول صوفية متينة بنقوش ملونة براقة . وفي لحظة جلسنا متربعين مرة اخرى كما هو الحال عليه داخل (الطراة) . وهذا النوع من الجلوس ، ولو اني لم ادرك ذلك بعد ، هو الذي سيميز رحلتنا كلها . وانه لشيء مؤلم ومرهق حقاً لأولئك الذين لم

يعتادوا ان يصبروا عليه لساعتين او ثلاث ساعات .. وانه العذاب بعينه ان تففز من القارب لتعيد نفس الوضع من الجلوس بعد لحظات .

وشرينا بضعة اكواب من القهوة كما فعلنا سابقاً في - الهوير - ثم شربنا شاياً من اكواب صغيرة ملئت بالسكر الى النصف . ويقدم كل شخص من سكان الاهوار الشاي الى ضيوفه حتى اذا لم يتمكن من تقديم القهوة لهم . وما اخذت الساعات تمر حتى امتلأت الدار . واخيراً كان هنالك اكثر من ستين شخصاً حشروا انفسهم في مساحة طولها ١٨ قدماً وعرضها ١٢ قدماً ، وكلهم من الرجال والصبية لأن النساء يجلسن جانباً وقد لا يسمح لهن بالاختلاط مع الرجال من غير عوائلهن . وما اظن علبة الساردين تفوق هذا الحشد ضغطاً ، ومع ذلك فكل رجل منهم يحذر ويتجنب ان يولي ظهره الى الآخر لأن ذلك يعتبر كما لو انك تعرض باطن قدمك في وجهه .

وتملكني العجب من هراء هذه العادات التي يحيط هؤلاء الناس انفسهم بها . فكل ضيف يلقي التحية على مضيفه عند دخوله ، وفي بعض الحالات تمتد التحية والمصافحة الى حد اطلاق خمس عشرة أو عشرين اطلاقة بندقية كسؤال وجواب بين الأحبّة . وما يختار الضيف مجلسه ويستريح متربّعاً في فسحة ضيقة بين الحشد حتى يبدأ تطبيق العادات الاجتماعية المعروفة ، وفي لحظة يرتفع من بين الحاضرين صوت منطلق بتحية المساء : « مسأكم الله بالخير ! » وعندئذ يقوم الضيف ورجلاه متشابكتان من تحته كحدّي المقص ليحيب : « مسأكم الله بالخير احمد ! » ثم يجلس مرة اخرى ، وتنتقل من زاوية اخرى : « مسأكم الله بالخير ! » وللمرة الثالثة عليه ان يقوم . تالياً على مثلث ركبته المعقودتين ليحيب : « مسأكم الله بالخير داود ! » وعليه بمد لحظات ان يقفز الى اعلى واسفل باستمرار كمكبس السيارة ليرد على الجميع : « مسأكم الله بالخير محمود ! .. مسأكم الله بالخير حسين ! .. مسأكم الله بالخير فالح ! .. » حتى يكون كل رجل من الحاضرين قد أدّى دوره ، والقادم الجديد هذا يتهاى هو الآخر لإطلاق ذخيرته من (. مسأكم الله بالخير) على القادم الجديد

التالي (١) .

وأشعل حالاً مصباح وضع على الحد الفاصل في منتصف الدار بيد ان الضوء الواهن المنبعث من ذبائنه حجبه الاجساد الكثيرة من حوله . ولا ضوء ينعكس على وجوه ذلك الحشد سوى لهيب القصب في الوسط . وانحنى مضيفنا على الموقد وبين ركبته حزمة من القصب ، فما ان تلتهم النار اطراف القصب حتى يدفعها الى النار .

(١) آداب المضيف شيء مهم معقد لدى سكان الاحوار الا ان المؤلف لم يذكر الا الجزء اليسير جداً منها ، فآثرت هنا اقتباس بضع فقرات في ذلك عن الدكتور شاكر مصطفى في كتابه الجبايش : « يلعب المضيف دوراً هاماً للغاية في حياة المجتمع — مجتمع الاحوار — كمركز اجتماعي وقاعة للاجتماعات السياسية ومحكمة عدل .

فيجتمع افراد العشرة في المضيف لتمضية اوقات فراغهم في شرب القهوة والتدخين وتبادل الاخبار . وفي المضيف تقام احتفالات الزواج حيث يغني المحتفلون ويطلقون العيارات النارية ويولمون الولائم . وتقام في المضاييف كذلك الفوانج على ارواح الموتى ، حيث يأتي الناس لمدة ثلاثة ايام ليقدموا تمازيهم لعائلة المتوفي ، وحيث تقدم لهم في المضاييف القهوة والسجائر والطعام . وفي المضاييف ايضاً تقام الاحتفالات الدينية في شهر محرم في ذكرى امةشهاد الامام الحسين واهله وصحبه في موقعة كربلاء .

وللمضاييف دور هام آخر في المجتمع ، فهي اماكن او قاعات للاجتماعات السياسية تدرس وتبحث فيها كافة الشؤون السياسية كالضرائب وشؤون الاراضي والامور المتعلقة بالحكومة . « ويدخل الماذهب في المضيف ، حتى لو كان ذلك مضيف اعدائه لاجئاً ومحتماً ، حيث يضمن الامن فلا يستطيع احد ان يعتدي عليه . »

« ويعتبر الاعتداء على شخص في مضيف جرماً كبيراً وغلطاً فاحشاً والمفروض بمن يقع عليه الاعتداء ان يمتنع عن حضور ذلك المضيف احتجاجاً على صاحبه حتى يعتذر منه بارسال وفد خاص (مشية) له . »

« وعلى نفس الاساس لاتقدم القهوة في المضاييف للذين يقترفون جرائم منكرة . ولا بد لصاحب المضيف ان يبين السبب الذي يجذو به الى الامتناع عن تقديم القهوة لهم . ويعتبر الرجال ذلك العمل عيباً وخزياً كبيرين وواجبهم ان يمتنعوا البتة عن ارتياد ذلك المضيف حتى يصلحوا ما اتهموا بالتقصير فيه ، والى ان يستعيدوا اسمهم وشرفهم كاملاً بصدد ذلك الأمر . فان لم يكن لدى صاحب المضيف سبب داع يبرر امتناعه عن تقديم القهوة لاولئك الرجال فلهم ان يطالبوه بتعويض (حشم) عن هذه الحالة . »

(المترجم)

لا يمكنني بأية حال ان اتصور كيف لا تشتعل الاكواخ المصنوعة من القصب ، فالرياح تزار وتعصف بالبوراري في الخارج بوحشية وعنف ، والقصب يتأجج ويضطرم في الوسط ، وشرار النار الحاقدة يتطاير الى أعلى ليشق ظلام الليل ببريق أخاذ تحت سقف الكوخ المغم ، والرجال يلقون بأعقاب السجاير هنا وهناك دون خشية أو حذر . ولاح لي وكأنت الكوخ والهب وشرار النار المضطرم كلها اشياء خادعة وانها ليست اكثر من مونتاج للأفلام السينمائية والا فكيف لا تأتي النار على الكوخ لتلتهمه . وتساءلت ونفسي عما ستأخذه شركة تأمين اوروبية لو طلب منها ان تقبل تأميناً ضد الحريق على هذه الأكواخ .

وفي الحقيقة ان العاصفة التهمت الكثير من اكواخ قرية مجاورة في الليلة الفاتنة وتركت نصف سكانها بلا مأوى . والنار احدي التكببات الاخرى ، غير الموت او المرض ، التي يتعرض لها الناس في الاهوار . ففي مثل هذه الحال عليهم قطع مسافات شاسعة ليحصلوا على قصب طويل وعليهم ان يشترخوا في اقصى ظروف فقرهم المدقع (بوراري) جديدة لانشاء اكواخ اخرى بدلاً عن تلك التي التهمتها النيران .

وكانت تلك هي الليلة الاولى التي افضيها في داخل بيت قروي ، ولو لم يكن فيها ثمة حادث معين اكانت نموذجاً لليلي التي اعقبته . فقبل منتصف الليل ابدي تيزيجر رغبته في النوم فأخذ الحشد يتفرق ويفادر الدار . وللمم مضيقنا رماد النار وفرش الملاحون بطانياتنا على الارض واخذنا حذرنا خوفاً من حوادث السرقة المنتشرة في الاهوار ، وطويت سترتي وبطلوني كالمخدة تحت رأسي وحشر سبتي ، الذي تظاهر بمسؤوليته عني ، كل ما املك كالمنظار والكاميرا والبندقية تحت حقيبة نومي حتى احسست وكأني كاليفر مضطجماً على جبل من جبال ليلبيوت . ثم ابتدأت عملية التدليك التي تعتبر من اغرب عادات مجتمع الاهوار واكثرها الما في بعض الأحيان . وهي عبارة عن عجن ثقيل للجسم لا يمكن لعضلة ان تفلت منه ، وتظهر متعبة مرهقة لمن لم يعتدها . وعندهم اعتقاد راسخ بفائدة التدليك صحياً ، ولكني اظنها ليست اكثر من عادة اجتماعية تدل عندهم على الصداقة وطيبة السريرة

وربما تمتد الى ان تحمل في حناياها ظلال معان مختلفة . وتجري هذه العملية عادة قبل النوم الا انها من الممكن ان تكون في اي وقت وفي اي مكان . وبينما يكون الشخص جالساً بين حشد من الضيوف ، او واقفاً بين جماعته في الخارج ، يدرفيه المجاور له يده يقوم لا شعورياً بتدليك كتفه او ساقه ، كما لو كان يلعب بجبات مسبحة ، اللعبة التي لا يمكن فصلها عنه .

ورحت أتأوى تحت تدليك سبتي المؤلم لاطراف أصابعي واطراف أصابعي واطراف أصابعي مدة ربع ساعة قبل ان أدرك بأن العرف والعايدات الجارية تسمح لي ان اطلب منه الكف عن ذلك . ولاحظت تيزير مستسلماً الى تدليك عماره وحسن بهدوء عجيب . واخيراً انتهت هذه العملية واطفء المصباح وتحت رداء الليل القاتم تسالت يدي خلسة وحركت بندقيتي ومنظاري من تحت ظهري . وقد كنت محاطاً بأجسام سبتي وحسن وكذبة . وظهر لي اني في مأمن من لصوص الظلام . وطويت رباط منظاري حول اصابع يدي اليمنى ونمت .

كانت تأخذني اغفاه خفيفة للحظات أصحو بعدها جافلاً دون ان اعرف ما الذي ايقظني . الظلام مطبق حالك ويرتفع الشخير عالياً من حولي ، ولكن ليس بمثل تلك القوة التي يرتفع بها من سبتي الذي يلامس رأسه المحلوق وأمي من الخلف ونحن نتشارك على مائدة واحدة بينما ساقاه ممدودتان الى الجبهة الاخرى . ولم استطع ان ارى شيئاً وسط الظلام المطبق فيما عدا ما يتراءى لي من السماء عبر شق الباب ، بينما العاصفة في الخارج تعوي وتتلعب بقصب الكوخ . وما لامست ريشة النوم اجفاني ثانية حتى احسست بشيء يجذب رباط منظاري من بين اصابعي . وممدت يدي اليمنى اتلمس الرباط الجلدي فاذا بي المس يداً اخرى . وكان طبيعياً ان اقبض عليها وخفت ان يكون الشخص يحمل سكيناً ، لذلك تركت يده حالماً سحبها . واطلمت فتحة الباب عندما تسلل زائرنا الليلي هذا خارجاً . وتحسست موضع البندقية التي كنت وضعتها على بعد انشات قلائل عني ، ويا للهول ! .. لم تكن البندقية هناك . وأدركت ان حالتي وانا نائم وتحت ظهري بندقية ، لا بد انكثرت الشك من حولي ، وان حيلتي في اخفائها قد انكشفت ، ورأيت انه ليس

امامي إلا ايقاظ سيبتي . وفتحت مصباحي اليدوي وكلي ثقة ان البندقية قد اخفت من الكوخ كله . ولم استطع ان اشرح لسيبتي ما حدث لان مفرداتي العربية كانت في ذلك الوقت لا تعدو الدزينة من الكلمات . ولكني استطعت ان اوضح له قضية اختفاء البندقية . وحينئذ انهال عليّ بثرثرة مدمدمة من اللوم والتقريع كانت من الوضوح والفهم كما لو انه كان يكلمني بالانكليزية . وأسدل ستار الحتام على ثرثرته تلك بأن القى البطانية عنه فانكشفت ساقاه ملفوفتين حول بندقيتين كما لو كانتا تتسلقان جبلا . وظهرت امامه بعد هذا بوقف بليد ... تماماً كما توقعه هو .

ويمكنني القول ان الطريقة التي استيقظنا بها صباح ذلك اليوم تعد نموذجاً لكل ما اعقبها خلال الشهرين التاليين . ففي باديء الامر يستفيق الشخص وتهدير النوم ما يزال يتمل في عروقه وعندئذ سيرغم نباح الكلاب المتواصل ، على بعد اقدام فلائل من رأسه ، سباته وغيوبته على التقهقر من اجفانه يضاف الى ذلك اصوات العائلة وجلبتها خلف الحاجز القصبي وهي تنهياً لليوم الجديد . ووجدت ان باستطاعة المرء تجاهل نباح الكلاب ، بيد ان اصوات البشر كفيلة بسلب كل رعشة من رعشات النعاس عن جفونه حتى ولو لم يدرك معاني كلماتهم . وكان رنين (الهاون) وهو يسحق حبوب القهوة ، يلعلع بالقرب منا . وارتفع استنكار ملاحينا حيث كان تيزيجر يمزج معهم بالضرب على رؤوسهم بمخدة صغيرة . ولكنها كانت صلدة ثقيلة ، ليوقظهم ظناً منه انها لا تؤذي . اما طريقة غسل الوجه عندهم فإنها على شيء كبير من البساطة ، حيث يتقرفص الشخص خارج الدار وتصب دفعات ماء بارد على يديه من فوهة طويلة لابرئق نحاسي يتشابه شكله في جميع مناطق الاهوار . وكنا في ذلك الحين نخلق كل ثلاثة او اربعة ايام وعندما نكون ضيوفاً على الشيخ . وبعد فترة طويت بطانياتنا وخبثت ثم اوقدت النار في موقد القهوة القائم وسط ساحة الدار وتربعنا حوله نشرب اكواب الشاي اللذيذ ، ونأكل خبزاً رقيقاً تعده معظم العوائل القروية اليسيرة العيش لضيوفها . والخبز العربي يختلف وما تتضمنه هذه الكلمة من معناها الاوربي لانه خال من

الخيرة . ويكون اقراصاً رمادية ستود لهيب الموقد اجزاء مختلفة منها . والخبز الاعتيادي اليومي في الاهوار يكون سمكه نصف انش . ويصنع بالصاق العجينة فوق لوح دائري ذا فتحة في الوسط تندلع منها السنة اللهب لتعلق العجينة (١) . اما الخبز الرقيق اللذيذ الطعم فيصنع بصب مزيج كالزيت من الطحين والماء على سطح صفيحة مقعرة وناعمة ومقلوبة . تسندها فوق النار ثلاثة ركائز من طين يابس . ثم يغطى بصفيحة اخرى مقعرة يمكن اراحتها بعد أقل من دقيقة . ليخرج من تحتها رغيف ذهبي اللون شهبي . وهذا النوع من الخبز الرقيق مثير للشهية في شكله وفي طعمه على العكس من الخبز الاوروي الاعتيادي الذي يعتبر غير صالح للأكل عند معظم الاوربيين (٢) .

وبدأ عمل تيزيجر الطي بعد الفطور مباشرة ، والرياح لا زالت تعوي في سماء صافية زرقاء ، وتثير زوابع التراب من الارض اليابسة في الجزيرة وتملأ الجو بحطام وقشور القصب الذهبية المتطايرة . وأخذ اعجابي واكباري لثقة تيزيجر بنفسه يزداد في كل لحظة . وأحس في داخلي واثقاً بأن لا طبيب في انكلترا يمكنه ، لو حاول ، ان يتدبر مثل هذه العلل والشكاوى المتباينة التي واجهها تيزيجر . ولهذا تراه حصل على شهرة وسعة واسعة بين مجتمع الاهوار بعد سنوات قلائل من العمل ، وربما كان تشخيصه للمرض صائباً مرة وخاطئاً مرة اخرى ... تشخيصاً شحذته التجارب الطويلة يتبعه استعمال العقاقير والادوية الغالية المضادة للفطريات التي جعلت للتشخيص ، صحيحاً كان أم خاطئاً ، أهمية ثانوية .

وتعبث مختلف الامراض بأجساد سكان الاهوار ، وانه لشيء مرعب ان تنظر في وجوه بعضهم الشاحبة والتي تتجسم عليها كل تلك الامراض الخبيثة . ومن المحتمل انهم مدينون في بقائهم لنسبة الموتى الكبيرة بينهم لان هذه المساحات الضائعة في المياه لا يمكنها ان تحتل ابداً هذا العدد المتزايد من السكان . وعدد كبير

(١) هذا النوع يدعى عندهم (خبز طابق) او (رغقان) . المترجم

(٢) كلمة (خبز ساج) يطلقها سكان الاهوار على هذا النوع من الخبز .

(المترجم)

من هذه الامراض سريع العدوى . وعندما غادرت الاهوار زال تعجبي في اني لم أصب بأي مرض حينما تصورت تيزيجر وهو يقضي بينهم أربع سنوات في اختلاط تام . ومع ذلك لم يصب بأي مرض من الامراض المنتشرة بين سكان الاهوار .

والدزانتري أحد الامراض المتوطنة في مناطق الاهوار حيث يصعد الماء . نفس ماء الشرب . ويحيط بالبيوت من جميع الجهات . تطفو على سطحه فضلات الانسان الى جانب العدد الهائل من الكائنات المجهرية واللاجهرية فيتماسك كل ذلك الخليط ليعطيه منظر شوربة خضراء . وهناك نوع من السفلس يختلف عن ذلك النوع الذي يتسبب عن الدلاقات الجذسية . ويصبت جلد الانسان بشكل مخيف وهو سريع العدوى . وعدد كبير من سكان الاهوار مصابون به .

ويمكنك ان تتوقع أمراضاً جلدية اخرى في رؤوس عدد كبير من الاطفال . وينتشر بينهم مرض الانكلستوما بسرعة لانهم أبدأ حفاة الاقدام . والبلهارزيا مرض لا مفر منه لسكان الاهوار لانهم يقضون ، بحكم بيئتهم والضرورة . معظم اوقاتهم عراة في المياه . ويمكننا القول ان البلهارزيا من اوسع الامراض انتشاراً بينهم . لانه لا يوجد ثمة علاج يضمن شفاؤه العاجل .

ومرض البلهارزيا بطيء في ظهوره . وربما حمل الشخص جراثيمه عدة سنوات دون ان يحس بأكثر من ألم قليل اذا كانت الاصابة خفيفة . ولكن لا بد لاعضاء الحوض ان تتأثر عاجلاً او آجلاً وتظل تعاني الاماً مبرحة بالاضافة الى تأثيرات ثانوية كالحصى الذي يتشكل حول البويضات في المثانة .

هذا قليل من كثير من الامراض التي تصيب سكان الاهوار . وليس غريباً ان يحاط تيزيجر الذي قام لهم بما يشبه المعجزات لسنوات أربع بجمهور ملحاح في كل قرية نحل فيها . وعدد مراجعيه من المرضى ينمو بسرعة من نواة صغيرة تتكون من شخصين او ثلاثة من افراد العائلة التي نستضيفها . وما ينتشر خبر فتح صندوق الادوية حتى يتوافد الناس من كل انحاء القرية ليتدافعوا حوله . ويرتفع عددهم في بعض الاحيان الى المئات . ومن المستحيل معالجتهم كلهم . فلا يمكن لصندوق من الادوية يحمل في طرادة ان يكفي لاكثر من قرينين او ثلاث قرى .

وكثيراً ما يضطر ثيزيجر الى الامتناع عن معالجة الاصابات الخفيفة . او الى طرد من يشك في غرضهم من يحشروا انفسهم لمجرد الحشر . ومنذ اليوم الاول اختمر في رؤوسهم الاعتقاد بأني خير وسيط لهم . وان مظهري أقل رهبة من ثيزيجر . واني شخص من الممكن ان يلين قلبه لهم . لذا سرعان ما اصبحت نواة لحشد لا يقل عن الجمهور المحيط بثيزيجر نفسه . ولم يجد تكراري القول بأني لا افهم اللغة العربية نفعاً لا في تقليل عددهم ولا في الحد من الكلام والتوجع المثال من افواههم .

واصبحت رؤيتي وسط الزحام من حوالي ، تتحدد في عيون متفرحة وبشور متقيحة وبقع من الحصف في جلود سمراء . وجروح واعضاء تناسلية متورمة لاولاد تمت عملية ختانهم حديثاً .

وقضى ثيزيجر ثلاث ساعات دأب فيها على العمل بلا هوادة ولا ملل وسط هذا اللغط والضجيج . وكانت حقنته تدخل وتخرج بانتظام من تلك الاجساد السمر . وفرش بالاضافة الى ذلك سيولاً من المرهم على اميال من الضادات . وكان يخيظ كأربع خياط عضات كلب وجروح خنزير . ومئات من الاقراص كانت يعدها ليوزعها على تلك الايدي اليابسة الممتدة اليه بينما حجب المرضى المنتظرين واقاربهم الضوء عنه حتى لم يبقى موطيء لقدم .

واخيراً جاء الحتانون وكثيراً ما كان ثيزيجر يستدعي خلال السنة الاولى التي قضاها بين اولئك الناس ليعالج ضرراً كبيراً سببه الحتانون المتجولون . الذين يقومون بالعملية مقابل خمسة دراهم لا غير فيحدثوا تشويهاً مؤلماً طويل الامد تدوم عقابله من تسمم ثم شفاء بطيء عدة اشهر ، وقد حير ثيزيجر في البداية تسمم الجروح ومضاعفاته لان مناعة سكان الاهوار ضد الامراض قليلة بطبيعتها . وبعد فترة اكتشف سبباً خطيراً لا يمكن تصديقه . فإن اولئك الرجال المتجولون . لكي يعطوا للخمسة دراهم حقها ، اعتادوا على تغليف الجروح بمسحوق عجيب يتكون من غلفة يابسة مطحونة لاولاد اجريت لهم العملية سابقاً . وقد سببت محاولات ثيزيجر اليائسة في توضيح القواعد الاولى لمنع التسمم . نعمة من يعيشون

على توريد هذا المسحوق . ولكن المدان مع ذلك كانت تأخذهم الرغبة في ان يجري تيزيجر لهم العملية بنفسه . وتكملت محاولاته الاولى بالنجاح فلا ألم . ولا نتائج سيئة للعمليات التي يقوم هو باجرائها . حتى ان منافسيه وجدوا انفسهم مجبرين ان يطيروا اشاعة مفادها ان عمليات تيزيجر تفقد قواهم الجنسية . ولما كان تيزيجر قد اعتاد على التنقل باستمرار فلوهم لم يدر كوا كم هي واهية اشاعتهم تلك . لانهم لم يعرفوا عدد البالغين والشباب الذين اجري تيزيجر لهم العملية بنفسه . وفي العام التالي أنجب عدد كبير من تزوجوا منهم أبناء اصحاء . ووجد الحثانون المتجولون انهم لا اعتبار لهم . كما انهم كذابون بالاضافة الى كونهم جزاؤون . واقتلع تيزيجر كل آثار للخوف من تلك العملية . واصبح الآن عدد قليل منهم يرضى ان تجرى له العملية من قبل شخص غير تيزيجر . وفي بعض الاحيان كان عدد من المرضى من القرى المجاورة يتبعنا عدة ايام حتى يصلوا القرية التي نحل فيها ، اي قرية ، لكي يعالجوا انفسهم .

وعملية الحثان التي تجري في سن تتراوح فيما بين العاشرة والتاسعة عشر انما هي مناسبة خاصة للفرح على اختلافها في المراسيم والاحتفالات التي تقوم بها بعض الشعوب . فقبل اجراء العملية يجتمع واحد أو اثنين من الاولاد . وقد يرتفع هذا العدد الى الخمسين . على الارض في صفوف والحثان يطوف بينهم كطبيب يتجول بين مرضاه في ردهة مستشفى . وتتجمهر كل القرية تقريباً للمشاهدة ، ويكثرون النساء والبنات من مختلف الاعمار قسماً كبيراً منهم . وغالباً ما تجلس ام الولد او اخته الى جانبه تشجعه قبل اجراء العملية وتطرد عنه الذباب بعدها . ونادراً ما يظهر الاولاد ارتباكاً في حضور النساء او يسألون ان تجري لهم العملية في وحدة مختلصة لان رجال الاهوار اعتادوا ان يظهروا شبه عراة امام النساء دون ان يخالطهم الحجل . ويظهر الناس هناك عاطفة قليلة واستهجاناً كبيراً لمن يخاف او يصرخ من الاولاد اثناء اجراء عملية الحثان . وسببت احدهم يوجب عندما سئل كيف شعر اثناء عملية تيزيجر له . قائلاً : احسست كأن برغوثاً لدغني . وما تنتهي العملية حتى تنفجر الام بزغرودة غريبة من الفرح . وفي بعض الاحيان يطلق.

الاب اطلاقه او اطلاقتين من بندقيته . وغالباً ما يقيم كل واحد منهم حفلة صغيرة لمن ختنوا معه وقيل ان رابطة قوية تقوم بين مثل هؤلاء الاولاد .

ويضطجع الاولاد لساعة واحدة بعد اجراء عملية الختان كوقاية لهم من نزيف الدم . يذهبون بعدها الى بيوتهم . ومنذ ذلك الوقت حتى يلتئم الجرح تراهم يعلقون رأسين او ثلاثة رؤوس من البصل بخيط حول رقابهم . لانهم يجزمون ان الجرح يصيبه التعفن اذا ما شم الولد رائحة الطبخ او الخبز او اي نوع من العطور . فاذا اقترب الولد من هذه الروائح سد منخريه بنهايات البصل الصغيرة حتى يمر الخطر . والطريف في الامر انهم يعتبرونها مجازفة ان تشم الروائح العطرية الزكية في حين يعتبرون انه لا خوف من شم الروائح الكريهة . وجرت العادة على اجراء عملية الختان في الصيف لان من يقومون بها أشاعوا ان اجراءها في الشتاء يثير الجرح ويسبب له مضاعفات كثيرة .

واخذت الرياح تهب بلا هوادة بعد العصر وأصبح واضحاً الآن انه يتعين علينا قضاء ليلة اخرى في - الرملة - وكشء حتمي ظهر نيزجراً مهموماً لانه سيقضي ليلتين تحت سقف واحد . ولان واجبات الضيافة في نظر سكان الاهوار تتطلب ذبح افراخ الدجاج للضيوف مما يؤدي الى خسارة رب البيت الشيء غير القليل من ماله .

وكم وددت لو أبحول فوق امتدادات اليابسة المحيطة بالقرية إلا ان الكلاب كانت تحول دون ذلك في هذه القرية وفي كل قرية اخرى زرناها فيما بعد . وكل دار في الاهوار يحرسها كلب واحد على الاقل . واحياناً اكثر من اربعة أو خمسة كلاب كبيرة متوحشة لانها روضت ان تكون كذلك أولاً ، ثم لكونها تعتبر في نظر المسلمين حيوانات نجسة فقد حرمت من الحنو الذي تجده خارج العالم الاسلامي . وتصرفها تجاه الاشخاص من غير افراد العائلة التي تعيش عندها يتميز بالشراسة والقسوة وحدة الطبع . ويمكنك ان تلاحظ ببساطة عواها المتواصل ليلاً ونهاراً . وقد رأيت ان عدداً كبيراً منها يبح صوته فأصبح لا يطلق غير عواء خافت مبجوح .

وبسبب عراقتها مع بعضها أصبحنا نلاحظ الكلاب الكبيرة العمر منها مشوهة الجسم الى درجة اليأس في شفاؤها . وآذانها . ان كانت ما تزال لها آذان . مشرشفة كسقف التخيل وذبولها مقطوعة الى النصف . وانوفها في بعض الاحيان ملتوية في زوايا تشوه وجهها او انها معلقة في عصب لم ينقطع تماماً بعد . وعلى اكتافها وجوانبها تتقاطع آثار اسنان حادة . والنوع الغالب من هذه الكلاب يتأرجح بين النوع الالزاسي *Alsacian* والنوع الهسكي *Husky* الذي يتميز بالشعر الكثيف الفاتح اللون والذيل المرتفع الى اعلى كثيراً او قليلاً . والنوع الشائع هو الكلاب الترايبية اللون التي تدل ملاحظتها على انها انحدرت في الاصل من الكلاب الهندية الحمراء المتوحشة . وقد تكون مرقطة او مخططة الجلد وغالباً ما يكون ذلك باللون الابيض . ومهما يكن اصلها فإنها وصلت الآن اقصى تطور يمكن ان يصله صنفها . ولا يمكنك ان تجد بينها كلاباً صغيرة او غير متوحشة لسبب بسيط هو انه في حالة وجودها لا بد للكلاب الكبيرة من الانقراض عليها .

وعدم طهارة الكلاب في الدين الاسلامي - او بالاحرى عدم طهارتها في العرف السائد - لان سكان الاهوار لا يملكون من اصول ديانتهم غير القشور - لا يمنعها ان تكون في حالة من الالفة والمودة مع العائلة التي تخدمها وعلى الاخص الصغار منهم . اما الكبار فلا يشجعون اظهار المحبة نحو الكلاب . ورغم هذا فقد رأيت كثيراً اطفالاً ينامون ويحتضنون كلابهم الجبلية . ويلعب الصبية الكبار منهم الكلاب تماماً كما يفعل الاوربيون . وحتى في ذلك المجتمع اللاعاطفي نلاحظ تجاوباً من الحماية كبير بين الكلاب وبين البشر . ويمكن ان يورث قتل الكلب عندهم ضغينة واحقاداً . تماماً كما يورثها قتل الانسان .

وتحدد هذه الكلاب في القرية حركات الغريب ويصبح من المستحيل عليه ان يخرج لقضاء الحاجة الطبيعية من دون شخص يقف الى جانبه . وفي الواقع ان ما يثير الاستغراب حقاً كيف ينجح رجال الاهوار بوجه ما في سرقة بعضهم البعض على الرغم من وجود هذه الكلاب الضارية .

* * *

وعندما حل المساء كانت الرياح ما تزال تعصف بيد ان قوتها لا بد هدأت قليلا ، لان جماعة من الصيادين المتعبين وصلوا القرية بعد قضائهم ثلاثة ايام من الجوع في احدى الجزر . وقد كانوا قبل وصولهم يصيدون السمك بإلقاء كتل مسمومة من الطعام في الماء . وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يسمح المعدان لانفسهم القيام بها في صيد السمك . في حين يحرم الصيد بالشباك لسبب مجهول . وهم ينظرون الى (البربرة) الذين يستخدمون هذه الطريقة في الصيد نظرة سخرية وازدراء . ولذلك حدد المعدان صيدهم بأساليب مضحكة بآليه كالصيد (بالفاله) أو نشر الماء بطعام سام يأكله السمك فيطفو على سطح الماء . واذا حدث ان التقطت القوارب العابرة هذا السمك فسرعان ما يكون ذلك سببا لمشادة بين الجماعتين . وهبط الظلام على الاهوار بكابة ووحشة . فلم يكن لطيف الغروب العسجدي ولا لاي لون اخر من أثر . وانما فقط تلاش الضوء من السماء الرمادية المزججة حتى تراءت اشباح النخيل معتمة غير واضحة يفرقها ظلام سماء احتجبت نجومها الوضاءة . وأخذ البيت يتملى بالضيوف كما هو الحال في الليلة السابقة . وعندما تناولنا الطعام وأصبحنا مرة ثانية جزءاً من حشد مزدحم حول النار التفت مضيفنا الى شاب يجلس بقربه وسأله ان يغني .

— ما اقدر ! .. ما اقدر !! .

أجاب الشاب بجياء متكلف لا معنى له ولكني وجدته شيئاً اعتيادياً عندهم . وبعد لحظات من التردد ابتداءً يبعث الالحان . وراح يغني بهدوء يصاحبه ثلاثة اشخاص بزميرهم . وكان من الصعب على الغريب ان تميز اذناه لحناً معيناً . وكان الطابع البدائي يغلب على الغناء حيث ينطلق الصوت من الانف ، وترتفع نغمته بين حين وآخر بما لا ينسجم واللحن . وقد وجدت في البداية ان من الصعب عليّ تقبل ذلك اللحن الغريب ولكن ما تتابعت الاغاني حتى رأيتني أنوب فيها وأحترق . ومشاعري تتلاعب بها تلك الالحان الحادة . ومعظم سكان الاهوار لا يستطيعون الغناء الا ان ذلك لا يمنعهم من المحاولة . فحسن مثلاً يقضي يومه منطلقاً بغناء عذب غير مقتعل يصدره من انفه ليضرب على طبلة الاذن بما يشبه صوت التلفزيون قبل

إدارة القرص . ويداه تعملان في المجداف يتود به زورقتنا على مسافة ياردة عني .
والمغني ذو الصوت الصافي العذب تنهال عليه الطلبات في مختلف المناسبات . فاذا
حدث وفشل في ادائه فنصيبه ليس أقل من الكارثة . وعلى اية حال ففي كل قرية
تقريباً يوجد عدد من الشبان ممن لهم موهبة الصوت الجميل المؤثر . موهبة هذبهما
المران الطويل منذ الصغر . ويستدعى هؤلاء للغناء كلما حلّ في القرية ضيف أو
حدثت مناسبة سعيدة .

وعندما انتهى الغناء استدعى مضيفنا شاباً زنجياً مرحح الطبع لطيف الملامح
وطلب منه ان يرقص :

— ما اقدر !.. ما اقدر !!

أجاب العبد معارضاً . الا انه نهض بعد لحظات . فتراجع الحشد عن النار الى
الوراء قليلاً تاركاً له مربعاً طول ضلعه حوالي الخمسة أقدام .

وادركت منذ اللحظات الاولى انه على الرغم من كون اغانيهم تعتمد على
مدى استجابة السامع للمغني كاستجابة الوسيط للمنوم المغناطيسي فإن اداء الرقص
كان كاملاً من النواحي الفنية ، والايقاع متقطعاً ومع ذلك فكل حركة يؤديها
الراقص تتفق مع اللحن ببراعة عجيبة . وكانت الرقصة تعبر عن قصة . كما هو
الحال في انواع عديدة اخرى من الرقص . ويكون الغناء عادة متمم له والكل
يسير على ايقاع واحد تتم تتم . وذاب المتفرجون في نشوة مع الايقاع
فأخذوا يوقعون على الارض بكعوب اقدمهم اليمنى الممدودة وايدهم متشابكة
بطريقة خاصة يقومون فيها بطقطقه اصابعهم كما لو كانوا يصفقون . وحتى
الاطفال يستطيعون ذلك . وحتى اني رأيت طفلاً عمره ست سنوات يقوم بها
فيصدر من بين اصابمه الصغيرة الناعمة صوتاً يشبه صوت مسدس صغير .

ولم استطع ان افهم الكلمات التي ينشدها الراقص . ولكنني ادركت معانيها
في حركاته .. انها قصة عامل غرر به سيده . كان صوت العبد ناعماً وأهياً يصطبغ
بمعارضة واحتجاج . اما الحنين والشجن الذي ينساب من رعشات انغامه فلا بد انه
يحكي قصة الظلم الذي عاناه اجداده العبيد على مر العصور والاجيال . وعندما

اقتربت الرقصة من نهايتها اخذ الراقص يقفز مع ايقاع الطبل . حول الساحة يقتش عن اجرة العامل الذي افترض ان سيده خدعه فلم يعطها له . ويرفع خلال دورانه زوايا (بوارى) القصب . ويمعن النظر في ادوات القهوة وجرر الموقد يلمع في عينية وهو ينشد بجنان والم : اريد اجرتي ! .. اريد اجرتي !!

وكانت الرقصة الثانية تعبر عن الشهوة والرغبة الجنسية كمعظم الرقصات التي شاهدها خلال الرحلة . ومثل هذه الرقصات وصفت في المجالات الغريبة ذات الاختصاص بهذا النوع من الدراسات على انها «شوانية في غير ما ابتدال» والتعبير في هذه الرقصة واضح الا ان الكلمات التي تصاحبها تحتاج الى تعريف قبل ان يدرك المرء بيت القصيد فيها . ومعظم الحركات في هذه الرقصات جنسية تماماً وتختتم بما يدل على وصول العملية الجنسية ذروتها . ولكل راقص هناك مدربه الخاص . وهو يتعلم منذ الطفولة كيفية اداء خطوات راقصة بسيطة ويتمرن على كيفية القيام بحركات جسمية خاصة ثم يطور ذلك ويحسنه ويضيف اليه من عندياته .

ويلوح ان اضطرار مئات الاجيال من المعدان على الرقص في مسافات هنيئة حول موقد النار في داخل الكوخ مثلاً ، وضرورة اداء اوسع حركة في اصغر فسحة ، كل ذلك سبب براعتهم في تحريك اجسامهم والتلاعب بعضلاتها كيفما شاءوا ، على العكس من اقدمهم التي لم تنهياً لها المساحة الكافية لتلعب دورها الكامل . لذلك يمكنك ان تلاحظ جيداً بأن راقصاً معروفاً هناك حتى وان كان طفلاً صغيراً ، يمكنه ان يحرك من جسمه اجزاء وعضلات لا يمكن للاوزلي ان يتصور نفسه يوماً ليستطيع اداها . وثمة حركة مدهشة لا بد ان يقوم بها كل راقص في الاهوار ، وهي تحريك كتف واحد او تحريك الكتفين معاً وترجيئها بحفة وسرعة وبراعة .

وكانت رقصة العبد الثانية في تلك الليلة تدور حول موضوع مألوف لدى سكان الاهوار ، وهو طريقة اداء الصلاة عند المسلمين ، حيث الجبهة تلامس الارض والعجز الى اعلى . كان ذلك العبد فناناً في ادائه ، ولا يمكن للمرء ان يواخذه او

ينتقده في شيء من تعابير رقصه .

وبالإضافة الى الراقصين الهواة الذين يمكنك ان تجد منهم عدداً كبيراً في كل قرية ، فإنه يوجد هناك عدد آخر غيرهم ، ولكن من راقصين محترفين يفترض فيهم الغناء وضرب الطبله (واشياء اخرى !) . وهم ينقلون بين القرى وكلهم بالطبع من الرجال لعدم امكانية المرأة ان تظهر بمثل تلك الاوضاع المغرية امام الناس والاولاد من الراقصين ذوي شعور طويلة ، وتحريك خصلات شعرهم الاسود هذا يأتقاع منتظم هو الطابع المميز لرقصاتهم . ولم يتيسر لي مشاهدة ذلك من قبل لأن الولد الراقص المحترف الوحيد الذي رأيته ، فيما عدا الراقصين في شوارع البصرة ، كان قد قص شعره قبل يومين استعداداً لدخوله المدرسة .

ويلاقى ابناء القرويين تشجيعاً من آبائهم على الرقص منذ الطفولة . ولا يسبب الرقص معها كانت نوعيته تجريد الشخص من رجولته . والراقص الماهر سواء كان طفلاً او شاباً يكون بصورة عامة ماهراً في كل شيء ويجب ان يتمتع بقوة عضلات كبيرة لان وصلات الرقص تكون طويلة عنيفة ومتعبة ، والمشاهدون يلحون على اعادة الرقصة مرة بعد اخرى وهم لا يصبرون على مشاهدة راقص غير ماهر امامهم ومع ذلك فقد رأيت مرة حوالي ستين او سبعين منهم يتحرقون على جمر الصبر لنصف ساعة امام طفل لا يزيد عمره على خمس سنوات وهو يتعثر في رقصه بحركات مشوشة غير منتظمة .

وانتهى الرقص والغناء بعد منتصف الليل بفترة غير قصيرة ، وأخيراً تهبأنا للنوم والعاصفة ما تزال تعوي في الخارج وهي تضرب وتلعب بقصب الكوخ رافعة (البواري) المفروشة على الارض من اماكنها في حركات كأمواج البحر . وكنت وثيريجر نتلف بفارغ الصبر لمغادرة - الرملة - ... ثيزيجر يتلف بسبب العبء الذي القاه على عاتق مضيفنا ويعود ذلك الى متطلبات الضيافة عندهم .. وانه اتلف لاني اشعر بأن الاهوار ما زالت بيده امامنا ، واننا ما زلنا في اول الطريق .

الفصل الرابع

تلاشت السحب في الصباح بيد ان الرياح استمرت تهب بشدة . ولم يكن ثيزيبحر مرتاحاً لمغادرتنا في مثل هذا الجو العاصف ، ومع ذلك فقد قال : « علينا مغادرة هذه القرية ، وهذا كل ما في الامر فقد ذبح الرجل نصف دجاجاته وربما استمر الجو عاصفاً هكذا لعدة ايام . والمشكلة الآن هي انه يتعين علينا عبور بحيرة - زجري - . التي تمتد اثني عشر ميلاً قبل ان نصل المكان الذي نقصده ، وكثيراً ما يغرق الناس في تلك البحيرة في حين يخافها الاطفال وينفرون منها . وما أظن طرادتنا يمكنها الصمود بوجه الامواج وهي بمثل تلك المحولة الثقيلة .

وغادرتنا قرية - الرملة - وكان آخر شيء يترأى لنا منها هو سفح النخيل تتلاعب به الرياح كما تتلاعب بجلايبب الرجال الذين وقفوا على الشاطئ ، يلقون علينا تحية الوداع . ورافقنا مضيفنا ، الذي قضينا عنده الليلتين السابقتين ، كمرشد لنا في زورق صيد صغير وظهر كما لو ان اقل ريح تستطيع ان تقلب زورقه رأساً على عقب .

وأخذت معابر الاهوار الكبيرة تتضائل وتختفي حتى وجدنا انفسنا وسط ممرات متشابكة في غاية من قصب وحلفاء جافة تعصف بها الرياح . وتوضحت القنوات مرة اخرى ، واخذت تكبر تدريجياً حتى اصبحنا نسير خلال بحيرات صافية زرقاء يزخرف جانبها قصب كثيف عملاق يرتفع الى علو عشرين قدماً تنعكس عليه اشعة الشمس الساطعة فيظهر بجله ذهبية أخاذة لتسجد عند اقدامه

نباتات صغيرة خضراء . وكان هناك عدد من الجزر المتناثرة نستطيع ان نأوي اليها خلال رحلتنا عبر البحيرة الواسعة . وغابات قصب هناك كثيفة متماسكة لم تستطع العاصفة ان تنال منها اكثر من ان تحني رؤسها العالية فقط . اما الجزر العديدة هناك فمتحركة غير مستقرة في مكان واحد ، وتنساب فوق الماء كما تنساب فوق قطع الجليد في البحار القطبية . ويمكن للمرء ان يلح من خلالها المياه المكشوفة للبحيرة نفسها ، زرقاء تحت اشعة الشمس وتمتد بعيداً غابات القصب وكأنها شواطئ رملية صفراء . ولم تتوضح ثمة حدود معينة للبحيرة بيد ان الجزر اخذت تتضاءل لتكشف صفحة البحيرة عن نفسها حتى اختفت جميع الجزر العائمة (١)

ويجوز فوق الماء ، حيثما وليت وجهك ، الكثير من الطيور الجميلة كدجاج الماء coots والبط الغواص duck diving . وفجأة قال تيزيجر : « اننا لم نقرر بعد اين ستقضي ليلتنا ، واظن الافضل لنا اصطياء بعض الطيور لنا من غائل

(١) هناك أربعة أصناف من المساكن في مناطق الاهوار يذكرها الدكتور شاكر مصطفى سليم في كتابه - الجبايش - ، والمؤلف هنا يمر بين حين واخر بأحد هذه الاصناف دون ان يعطي لها اسماً محلي . ودون ان يحددها وفق هذا التصنيف : (١ - اكسف) : ويمكن ان نطلق عليه اسم قرية وهو كثير الوجود والمناطق المزدهة بالسكان ويتكون من بيوت يتراوح عددها بين مائه وثلاثمائة كوخ - حسب كثافة السكان والموقع . ٢ - (الايشان) : وهي جزيرة في الاهوار العميق الدائمة يقطنها عادة اما جماعو القصب أو رعاة الجاموس . وفي كل من أهوار الخمار والكساء والحوز العميق الدائمة يوجد عدد من هذه (الاشن) التي يمتد انها مدن اثرية قديمة يتكون (الايشان) عادة من عدد من الاكواخ المبنية بشكل بسيط جداً القصب أو البردي ، ويتراوح عددها بين الثلاثين والاربعين فوق (الاشن) الصغيره ولكنه قد يصل الخمسائة كوخ في (الاشن) الكبيرة . ٣ - (الدبون) : في موسم الفيضان يصنع رعاة الجاموس مصاطب عائمة Floating Platforms أو Rafts من القصب والبردي والتراب وفضلات الجاموس يتسع الواحد منها لكوخ او لعند من الجاموس ويمكن دفعها ونقلها في الماء من مكان لآخر واستبدالها كما يمكن جمع عدد من المصاطب العائمة فتكون في بعض الاحيان قرية صغيرة ٤٠ (جبايش) ومفردتها (جباشة) وهي مأخوذة من الاصل الغربي كبس : تستحدث بعض الجزر او يرفع سطح الوطئة منها خاصة في المناطق الهورية التي بكثرت فيها القصب بفرش طبقات من القصب البردي والتراب في موسم الفيضان لضمان عدم غمر الماء للجزيرة ولا مكان استمر استعمالها كمنسكن في ذلك الموسم) .

المترجم

الجوع . والصيد هنا يختلف في اسلوبه وغايته عن اية فكرة عرفتها عنه سابقاً ، فليس هو بالعمل الرياضي او ان الغرض منه التسلية المجردة ، ونحن نتوقع ان نصيد بمعدل مائتين بالمائة على الأقل ، وغالباً ما نحصل على ذلك بالفعل . وتراعى لي ان قول ثيزيجر هذا غير صحيح ، وان لم اقرر ذلك بعد بصورة اكيدة . واستطرد ثيزيجر قائلاً : « ويمكن ان تجد امامك صفاً من دجاج الماء لتطلق عليه النار ، وكان الله في عونك اذ اخطأت لاتنا نبحت عن طعام نسد به حاجات اجسامنا في حين لا يمكننا ان نحمل معنا كمية كافية من الرصاص للرياضة فحسب . وبإضافة الى ذلك فإن سمعتك بين المعدان تتوقف على ما تصيده او لا تصيده والكل عيون تراقبك » .

وشجعتي ثيزيجر كثيراً على الصيد متربعا في داخل طرادة تتهايل مع الامواج في حين وجدت ان من الصعب تحقيق ذلك عملياً . ولكنني اصبحت امام الامر الواقع عندما ناولني اطلاقتين اعقبها بهذه الكلمات : « ان هذا هو كل ما تستطيع الحصول عليه » .

واتجه الملاحون بالزورق الى اقرب سرب من دجاج الماء ، وتراعى لي انهم برهنوا على غباء وعدم فهم عندما اتجهوا الى الطيور بعكس اتجاه الرياح التي ظننتها ليست من القوة بحيث يمكنها دفع الطيور من مكانها الى اتجاها . ولاح لي وكأنه غاب عن اذهانهم انهم اذا اتجهوا بالطرادة الى الهدف مباشرة فسيكون بيني وبين ذلك الهدف ثلاثة رجال ومقدمة الطرادة العالية . لذلك باءت محاولتهم الاولى في دفعي الى اطلاق النار بالفشل ، حيث احتفظت انا بالاطلاقتين دون ان اجرؤ على اطلاقها .

واتجهت الطرادة اخيراً الى سرب من دجاج الماء يطفو على سطح الماء عند شاطئ جزيرة صغيرة . وعندما صرنا على بعد ثمانين ياردة منه اخذ يتطاير وينثر الجوبيرذاذ الماء العالق بريشه ، وكان عليه ان يأخذ اتجاه الرياح ليرتفع في الجو ، فوجدتها فرصة مناسبة ، فما اصبح على علو مناسب حتى صار احسن هدف لي وأطلقت عليه اطلاقتي الاولى ، فهرب كله . وما كان اشد دهشتي حين ادركت

انني اسقطت اثنتين منه . وابتعدت الرياح البقية عني وانحرف الزورق هو الآخر تحت ضغط العاصفة . وادركت انه لكي يتمكن الشخص على الالتفات وهو يقبع متربعا في قعر الطرادة عليه ان يدير نصفه الاعلى كما تدير الدبابة برجاها . وفجأة رأيت ثلاثا منه لم يأخذها الخوف الا بعد اطلاقتي الاولى فابتدأت الآن تتطاير من على سطح الماء . وفي الجوصارت كتلة سوداء عاجلتها باطلاقتي الثانية فسقطت كلها مرة واحدة وكأنها طير واحد .

وقد ظهر واضحا الآن ان اي ادعاء بين ملاحي ثيزيجر يقول بإمكان الصيد مائتين بالمائة انما هو ادعاء فاشل وقد اظهروا لي دهشتهم واعجابهم لمهارتي في الصيد . وراح ثيزيجر ينظر لي نظرات كشاف الى اكبر واغبي تلامذته الذي افلح بالصدفة في شد عقدة جبل بنجاح كبير وقال : « انه لشيء مؤسف انك لن تقادرننا الآن ، وستكشف مهارتك الحقيقية في الصيد قريبا ولا يمكن لشهرة تعتمد على الصدفة أن تعمر طويلا .

ولكي نجتمع الطيور التي نصطادها وتسقط بعيدة عنا علينا ان نغادر ملجأنا الذي نختبئ به في الجزر العائمة وتتوغل الى الداخل في مياه الاوار المائجة . وكانت الطرادة محملة لدرجة انه ليس بين حافتها والماء غير اربعة انشات . ودجاج الماء يسبح ويفر قبل ان نجمعه . وكان أحده جريحا وقد سبب لنا ارهاقا كبيرا في تتبعه قبل ان تمسكه . وترك ملاحونا الطرادة تنحدر داخل المور بينما انشغلوا بذبح الطير في اتجاه مكة حتى وجدنا انفسنا وقد ابتعدنا عن ملجأنا بمسافة تزيد عن اقرب جزيرة الينا . ولم تكن هذه تبعد اكثر من اربعمائة ياردة ولكن الرياح اخذت تهب بقوة بين الجزر العائمة حتى اختفت عن ناظري مياه البحيرة نفسها ، في حين كانت كل يارده نتقدم فيها تكلفنا مشقة وجهدا كبيرا . واستقل حسن زورق المرشد الصغير وراح يغالب الامواج العاتية الى اليمين حتى تواري الزورق عن اعيننا ، ولم استطع ان المح بين الامواج الزرقاء والخضراء غير جذع حسن وهو يجذف كالمجنون . وعلى اية حال فإنه في وضع افضل منا بكثير فزورقه صغير وغير محمل بالامتعة ، بينما كنا نحن سبعة رجال مع متاعنا

الثقيل . وطرادتنا كانت تعرف بين حين وآخر شيئاً من الامواج التي تضرب عليها من كل جانب . وعلى الرغم من ان كمية المياه التي تجمعت في داخلها لم تكن كبيرة الا انها اصبحت تشكل خطراً كبيراً . وسألت نيزيجر : « هل تطفو هذه القوارب عندما تنقلب ؟ » .

— كلا ، انها تغوص كالصخر .. ارجو ان تكون يا صاحبي قد استمتعت برأى الاهوار ! .

وتراءى لي اني ضمننت لحد الان سمعتي بين المعدات في صيد دجاج الماء ولن تنكشف حقيقتي بعد الآن فإننا على وشك الرحيل الى العالم الآخر هذا اليوم بين الامواج العاتية والرياح الحاقدة . وانا ، لا استطيع السباحة مطلقاً رغم اني قضيت شطراً كبيراً من حياتي في المياه ، ومهما يكن من امر فحتى الماهرين من بيننا في السباحة لا يمكنهم قطع كل تلك المسافة من المياه ليصلوا الى شاطئ السلامة . ورغم انني كنت امتلك سترة واقية من الغرق الا انها كانت مطمورة بين الامتعة وليس هذا بالوقت المناسب للتفكير بها . ولاح لي وكان هذا خير مكان مناسب للفرق فيه كأي مكان غيره . ولحمت أمامي وجهة عمارة والخوف يتجسم على وجهه في تلك اللحظة بكل جلاء ووضوح .

وظهر لنا الآن وكان الطرادة لا يمكنها ان تتقدم خمسين ياردة اخرى . واخذنا نجذب باتجاه الجزيرة والطرادة تتمايل وتترنح ومقدمتها العالية تمزق القصب المتكاثف ، والنباتات المائية الصغيرة من تحتها تحد من سيرها . وفي لحظة كانت الماء .. ماء الشاطئ البارد يبرق من حولنا ، وفي اللحظة الثانية كنا نفتش طرادتنا في أرض تكتض بنباتات شوكية ، وفوق رؤوسنا تلتقي اطراف القصب العملاق .

ولم يستطع حسن ان يصل جزيرتنا في قارب الصيد الذي يمتطيه . وفر غنا طرادتنا تفريفاً تاماً كما لو ان مصيرنا تحدد في هذه البقعة من الارض ، لأننا ، كما أشار نيزيجر سبقي هنا لعدة ، ايام وفوق ذلك كله لم تتمكن طرادتنا من انقاذ حسن من محنته الا بعد تفريغها تماماً من الامتعة ومن المياه التي غرقتها خلال سيرها .

وجزيرتنا هذه لا يزيد عرضها عن خمس عشرة خطوة الا انها تتكون من غابة قصب عملاق ومن أحراش صغيرة . وتقدمت الطراوة بكسل واعياء خلال البحيرة الزرقاء ، وتباطأ سيرها بسبب النباتات المائية والحشائش المتكاثفة من تحتها . وطهرنا أعلى منطقة في الجزيرة ، واتخذنا من صناديق الامتعة والادوية ملجأ ضد الرياح العاصفة وانطلق عماره وسيلتي لينقذا حسن من ورطته ، بينما انهمك كذيه ومضيفنا الذي رافقنا منذ مفارقتنا قرية الرملة ، يمدان لنا الطعام .

كان الطبخ بسيطاً ساذجاً الى حد بعيد ، فقد غرزت اجسام الطيور الذبيحة المسلوخة الجلد في سيقان قصب مقطوع وثبتت هذه الاعواد على حافة النار . وكان مضيفنا الذي اصطحبنا كمرشد لنا قد احضر معه سمكة كبيرة وكمية من الطحين . وقد صنع من الطحين اقراصاً خشنة من عجين صلب حشره حول اللهب ، واما السمكة فقد دفنها في رماد نار القصب الملتببة ، وبالتالي تها لنا افخر وألذ وجبة طعام ، كما يقولون . وفي الحقيقة ان معظم المتحضرين سيفضلون البقاء جياً ، بعد تناول اللقمة الاولى على ان يأكلوا مثل هذا الطعام معجوناً بالرماد . وانا ، الذي اعتاد ان يأكل قليلاً ويكسره من الاطعمة قليلاً ، وجدته ردي والطعم ولكني كنت جائعاً الى درجة دفعتني ان التهم السمك مع كتل الرماد العالقة به .

وهدأت الرياح قليلاً بعد الظهر ولكن ليس للدرجة التي تسمح لطراوة محملة على السير ، في حين كانت قوتها تسمح لقارب الصيد ان يجاهد خلال البحيرات . ونحن الآن بلا طعام ومن المحتمل ان يلفنا الليل الذي يزحف نحو الجزيرة ، ولذلك فقد انطلقت مع حسن نقش عن مزيد من الطيور نصيده . ولم يظهر ان قارباً في المحيط اصبح في خطر كما لاح قارب الصيد الذي كنا نصارع به الامواج الهائجة في تلك اللحظات . فقد كانت الامواج الزرقاء تضرب في اندفاعها على حافة القارب وهو يتمايل عند كل ضربة من ضربات الجذاف على سطح الماء . وانتشر البط ودجاج الماء في كل مكان ولكنه كان وحشياً كالرياح نفسها ، يطير بعيداً وينقض كأوراق الخريف المتساقطة فوق الماء المضطرب والقصب العملاق الذي لاح ذهبياً براقاً تداعبه آخر شعاعات الشمس المنحدرة نحو المغرب . واخيراً تراعت في الافق

بطة تندفع مع الريح بلونها الاسود والابيض وهي غارقة في اشعة الشمس الباردة الغاربة . وتراعى لي ان هذا خير هدف لن تعاني فيه سمعتي كبير جهد . وفوق ذلك كله كانت قد مرت من امامي ، لذا لم تكن لي حاجة الى اداء حركة جمناسيكية في الالتفات وانا اجلس متريماً في داخل القارب الصغير . ولم اتوقع اني سأصيبها ، غير انها سقطت . وفي الحقيقة ان حسن لم يتوقع مني ذلك ، واندھشة التي ارتسمت على ملامحه ملأتني اوتياحاً وقناعة بنفسني .

ولما تراعى لنا انه لم يبق عدد آخر من الطيور في المنطقة قررنا ان نعود . وعندما اقتربنا من جزيرتنا التقينا بسرب من البط لم يكن له الوقت الكافي لكي يطير مع الريح في اتجاهنا . واقتربنا منه وصرنا على بعد ثلاثين أو اربعين ياردة عنه قبل ان يطير مرة واحدة . وما أطلقت اطلاقتي الاولى حتى هبط الزورق في الماء فخطفت الاطلاقاة على مسافة ياردة واحدة من تحت الطيور . وعندما ارتفع الزورق مرة اخرى عبرت اطلاقتي الثانية على بعد ستة اقدام من فوق ظهورها . وراحت عينا حسن تملقان في باستغراب ودهشة .

وعندما عدت الى الجزيرة لم الحظ أي نوع من الرضا في عيني تيزيجر الذي كان ينتظرنا بلمفة ، وبعد لحظات قال لي : « انني ارى الافضل لنا مغادرة الجزيرة مها كانت رداة الجو ، وانت هل تظن هذه البطة الصغيرة تكفي لاطعام سبعة رجال ؟ .. و كنت انا قد اخبرتك عن اخطار شهرة واهية تعتمد على الصدفة ، ولتعلم جيداً انك مرغت سمعتك بالوحد بين هؤلاء الغلمان » .

ولكن الرياح كانت قد هدأت عندما غادرنا الجزيرة مساء ذلك اليوم . وسرنا بمحاذاة بحيرة - زجري - نشق طريقنا بين الجزر والبحيرات التي اخذت تصغر تدريجياً حتى اصبحنا مرة اخرى بين ممرات واسعة تضائل على جانبها القصب والبردي طولاً وكثافة .

وعندما ابتدأت الشمس تغرب توقفت الرياح العاصفة وأصبحت مجرد نسيم خفيفة ، وهدأت كذلك صفحة الماء فصارت مرآة تعكس سماء انحسر عنها كل لون ، حتى الشمس الغاربة انحدرت

وراء رؤوس القصب ولكن بلعان ابيض صاف . وفي ذلك القفر من المياه والقصب لا يمكنك الا ان تشعر بالرهبة وبالغموض وكأنك في غابة يزحف فوقها الظلام المعتم . وتسلل حسيس الماء وسط السكون المطبق وانطلقت الضفادع بنقيتها المعهود .

وان غابت عن ذهني مناظر الاهوار التي استمتعت بها أو نسيت تلك الاصوات المختلفة المنطلقة من كل جانب في الهور فلن أنسى ابدأ نقيت الضفادع الهائل . مليون مليون من الانغام تتصاعد لتمسخ هدوء الهور المهجور الى عالم من ضجيج . وعندما كنا مرة نعبّر بركة من المياه تراهي لنا القصب من بعيد جداراً ذهبياً صلباً ، واطبق الصمت .. صمت موحش كثيب لأن كل شيء يحيط بنا كان غريباً علي . ولكن عندما اصبحت الطرادة على بعد نصف ميل من ذلك القصب البعيد زحفت الينا أصوات الضفادع من بعيد كهمة جماعة كبيرة من الرجال . ولما اقتربنا وصرنا على مسافة ربع ميل منه تحولت تلك الهمة الى جلبة حادة وكأنها أصوات عشرات الألوف من القرود في اواسط افريقيا . وحينما دخلنا تلك المنطقة واطبق القصب على الطرادة من كل جانب اطبق علينا معه صخب هائل من نقيت الضفادع ... مليون مليون من الاصوات حتى شعرنا وكأننا انفصلنا عن العالم الخارجي تماماً .

وهناك اصوات كثيرة متنوعة في داخل الهور تحتلظ لتخلق ذلك الصخب المجنون ، فما غرقت الشمس البيضاء وراء الأفق في ذلك المساء الاول وتناثرت أشعتها الواهنة ترسم اعالي القصب حتى انطلقت الاصوات منفردة قبل ان تجتمع لتبتلع الليل بظلامه . ولذلك فقد كان ممكناً ان أميز الانغام لدقيقة أو دقيقتين واقتش عن وجه للمقارنة بينها . وكان الصوت الاول القريب مني عالياً متقطعاً لا يمكن تمييزه عن صوت العمق *Magtye* يختلظ بتنهيدات القطرات الصغيره المتساقطة من الجذاف على سطح الماء . وأجابه صوت آخر خشنٌ فظ ذو ايقاع مزدوج كصوت منشار يعمل في الخشب . أما الصوت الثالث فكان صاخباً وكأنه صوت ذكر البط . وانطلق الصوت الرابع خشناً وكأنه صوت كلب . وعلى الرغم من

اختلاف تلك الاصوات الا انها تشابهت في انها كانت مشبوبة باللذة والعاطفة والحماس . وتمازجت كلها في ضجيج مختلط تعذر معه التمييز بينها الا ما كان قريباً منا جداً .

ونادراً ما يمكن للمرء ان يرى الحيوانات التي تطلق تلك الاصوات ، بيد انه يستطيع تحديد مكانها من حركه خاطفة في الماء ، وانا اظن معظمها ليس من الحجم الكبير . وعندما كنت اخطو مرة فوق ارض غطاها الماء نسيباً على حدود الاهوار الدائمة التقطت واحدة من الصدفة الفارغ المتناثر على الحشيش الاخضر ورحت اقلبها في يدي عندما برز من الثقب الذي يخرج منه رأس السلحفاة وجه صغير يختلط لونه الرمادي بالأخضر واطلق صرخة فظة وحلق في بعينين صلتين كعيني ضابط بحرية وانسحب الى داخل الصدفة ثانية . واخذت احدق في اثره عندما برز من الطرف الآخر رأس آخر اكبر واكثر اخضراراً من الاول واطلق صوتاً حاداً وظل يرمقني بحدة ايضاً للحظة او لحظتين بينما توارت نبضات عرق في خده باضطراب وغضب كبير . وتكلمت بالفشل الذريع جميع محاولاتي في اقناع مستوطني تلك الصدفة على الخروج مرة ثانية . فقدفتها جانباً وسرت في طريقي ولكن ما خطوت خطوتين أو ثلاث حتى سمعت ضحكاً عالياً مجنوناً من خلفي والتفت فاصطدمت نظراتي بصدفتين تقفزان من جانبي الصدفة الى الماء الضحل . وكانت هذه المرة الوحيدة التي اتفحص فيها جيداً واحداً من افراد تلك الاوركسترا الهائلة .

وتلاشى ضوء النهار عن المساء تماماً فاصطبغت بسواد الليل البهيم وسطعت النجوم تبدد بعض ذلك الظلام الموحش وانعكست على صفحة الماء كقطع فضية تتراقص راعشة كلما لامستها مجاذيف الطرادة . ولاحت لي الاهوار في تلك اللحظة وكأنها وجدت على نمط واحد لا مكان لبقعة من اليابسة فيها . واعالي القصب ظهر لنا اكثر عتمة من السماء ، وتراءى الطريق الذي سلكناه بين مجاري النهيرات مربكاً مظلاً وشمرت كأننا نسير على غير هدى .

وسرنا اكثر من ثلاث ساعات وسط هذا الظلام الحالك ووسط ضجيج الضفادع المطبق . ثم اخذ القصب يتضاءل ويقل طولهُ ، وفجأة ... لاحت الانوار امامنا .

وكانت تلك المرة الاولى التي اشهد فيها قرية من قرى الاهوار في الليل . ولم يكن سهلاً في البداية ان أقدر ماهية تلك الاضواء وهي تبرق ككهرب متوهج .

ومعظم قرى الاهوار تقوم وسط المياه وعلى بعد قليل من القصب لتجنب البعوض في الصيف . وكل كوخ عبارة عن جزيرة صغيرة قائمة بذاتها . وتبنى كل واحد من هذه الجزر بوضع حزم من القصب وتكديسها بعضها فوق البعض ، ثم تملأ الفراغات فيما بينها بحشوها بمختلف الحشائش والنباتات حتى يرتفع مستواها اخيراً عن مستوى سطح الماء (١) وهذا الارتفاع عن سطح الماء ضئيل الى درجة ينعكس فيها ليلاً مثلث الضوء المنبثق من فتحة باب الكوخ على ماء البحيرة المحيط بالجزيرة من دون أن يتعثر بقعة واضحة من اليابسة .

وعندما اقتربنا من تلك البيوت الغريبة وابتدأنا نمر من خلالها ظهرت لنا وكأنها اسطول من زوارق مضاءة راسية في بحر هادىء . ولاحت محلات الجاموس المسورة بزخارف من القصب خلف الاكواخ وكأنها النهايات المقوسة لسفن القرون الوسطى . وتراءت لنا في الظلام اشباح رؤوس الجاموس وقرونه الناتئة وكذلك مقدمات المشاحيف العالية . وعندما كنا نحدف بهدوء فوق الماء الهادىء والاكواخ تحيط بنا من كل جانب ، كنا نلمح من خلال فتحاتها ، وعلى ضوء النار الموقدة في الداخل ، الجاموس وصغاره يشارك الانسان الدفء . وهكذا كانت تلك الاكواخ أشبه بسفينة نوح منها بسفن القرون الوسطى .

وفي احد اكواخ قرية – الكبور – قضينا تلك الليلة ، ولكننا كنا قد وصلنا اليها متأخرين وغادرتها مبكرين في صباح اليوم التالي . ولم تتباور عندي فكرة ثابتة عن مجتمع الاهوار حتى وصلنا قرية غربية الاسم تدعى – ام الجريفات – في منتصف نهار اليوم التالي .

وكانت هذه القرية مركز تيزيجر وربما عرف فيها اكثر من أي مكان آخر في

(١) يطلق المعدان كلمة (جياشه) على الواحدة من هذه الجزر ، وقد سبق ايضاح ذلك قبل قليل .
الترجم

الاهوار . وكان اثنان من ملاحينا من هذه القرية وحتى اعتبر سكانها تيزيجر وكأنه ملكهم الخاص دون سائر قرى الاهوار الاخرى . وكل كوخ فيها جزيرة قائمة بذاتها اما على (جباشة) من القصب او على ركام طيني . ويفتح باب الكوخ على الماء المحيط به مباشرة ، رغم كونه مفصولا عنه بمسافة من ارض رطبة لا يزيد طولها عن القدمين . وتحت مدخل الكوخ ، الذي لا يزيد عرضه عن ثمان عشرة بوصة تظهر الارض سوداء بسبب الرماد الذي يكتس من الموقد الى الخارج وتخدع الناظر اليها بانها صلبة ولكنها في الحقيقة طينية رخوة . وبقيت انا خلال رحلتنا الطويلة لا استطيع ان اقفز من الطرادة الى الارض دون مساعدة الضيف وهو يمد لي يده من باب الكوخ .

والبيت الذي نزلنا فيه تلك الليلة يختلف قليلا عن البيت الذي حللنا به في الرملة - وعن اي بيت آخر في منطقة الاهوار حيث لا توجد غير فروق طفيفة بينها . وكان هذا البيت صغيراً غير منتظم تناثرت فيه اعواد وقشور القصب ، ووراء النصف الخلفي البعيد ، حيث تطبخ النسوة ، امتد رصيف الجاموس الدائري القصير الذي يتميز به كل كوخ في الاهوار .

والجاموس عماد اقتصاديات العدان وتدور حوله معظم نشاطات وحياة العائلة اليومية هناك . ويمكننا ان نقدر من نتائج التنقيبات التي اجريت خارج الاهوار ان دخول الجاموس من الشرق الاقصى الى هذه المناطق يرجع الى ٣٥٠٠ سنة قبل الميلاد . وقد أثرت عليه الخمسة آلاف عام التي عاشها بعيداً عن منطقتة الاصلية في تغيير شكله عن اجداده الذين هم من اصل هندي فأصبح اشبه بالبقر المائي الضخم الاسود منه بالجاموس .

واظنه في سيره الوثيد ابطاً من اي حيوان رأيت في حياته ، ماعدا الفيلة ، وحتى حركة فكه في الاجترار بطيئة وبمعدل مرة واحدة كل ثلاث ثوان . وحين يكون في الماء ، حيث يقضي معظم حياته فيه ، يلوح رأسه المتعب وبعض ظهره فقط خارج الماء . ويظهر متعباً صبوراً تتجسم عليه علائم المساة بأجلى صورها . ويلوح في عيني الجاموس عتاب والم دفين وفي صوته يأس وحيرة . والجاموسة

عندما تدافع عن وليدها فإنها تصدر صوتاً وآهة عميقة بانفاس حارة بينما تلاحظ شعر وجهها يرتجف على الجانبين خلال ذلك .

ولا يذبح الجاموس للاكل ابداً ما لم يكن مريضاً جداً لكي لا يجسر صاحبه جلده الثمين قبل فوات الاوان . وهكذا تراه يعيش حياة مملّة رتيبة حتى يلوح للمرء وكأنه يندع الموت ببقائه ، ولكنه عندما يموت ويطفو فوق الماء تنهال عليه الطيور الجارحة نهشاً وتمزيقاً وحينئذ لا بد ان يستدر منظره الرثاء والحزن .

وفي الحقيقة ان ليس له غير القليل من العذر لشكواه فحياته كلها راحة وهدوء وأمن ، فهو يعيش في ترف ودلال ايضاً لغرض الحصول على حليبه وفضلاته . ويشرب المعدان الحليب سائلاً أو مخترأً أو يستخلصون منه الزبدة بخض اللبن في جلد شاة او بقرة وليدة ، بيد ان فائدة الجاموس العظيمة تكمن في فضلاته . وفيما عدا القصب السريع الاشتعال تعتبر هذه الفضلات الوقود الرئيسي عند المعدان . وتجمع فضلات الجاموس من قبل النساء فقط ، ولأنه عمل قذر فقد اختصت به المرأة دون الرجل الذي لا يمكن ان يتصور نفسه يوماً وهو يلمس تلك الفضلات القذرة . واذا كان الغرض من جمعه استعماله كوقود فحينئذ يشكل على هيئة اقراص دائرية تحمل طبعة اصابع اليد اليسرى للمرأة (١) .

والطريقة المتبعة في ايقاد (المطال) هي بإسناد الواحدة الى الاخرى بشكل دائري كالقبة مع فتحة صغيرة في احد الجوانب ترمس في داخلها حزمة من القصب الملتهب حتى يصل (المطال) درجة الاتقاد . وحينئذ ينجم الدخان الاسود الخائق على المكان ، ولا يظهر المعدان كبير اهتمام له ، ولكني كنت أجد الدموع تنهمر من عيني كلما اوقدوه ، وادركت بعد ذلك كيف اختار لي مكاناً مناسباً لتجنب الدخان الكثيف متى اوقدت النار .

وفضلات الجاموس ذات فوائد لا تحصى للمعدان ، وبما انه يشبه السمنت في صلابته وجفافه بسرعة فقد تعددت استعمالاته . حيث تطلّى به سقوف القصب والبواري ، ويستخدم لتكوين طبقة تسد فوهات مخازن الجبوب الدائرية المصنوعة من البواري ، وفي كثير من الأحيان ترصف تلك الأقراص كما يرصف

(١) كلمة (مطال) هي الاسم العلمي الذي يطلق على هذه الاقراص .

الموزائيك ، الواحدة الى جانب الاخرى ، لتسقيف البيت بكامله (١) . واستعمالته الاخرى لديهم متعددة ، ولا يمكن ان يحل محله شيء آخر . والمرء عندما يعلم بأن سعر الجاموسة الواحدة حوالي خمسة وعشرين ديناراً فلا بد انه سيردد مع نفسه : كل هذا (السرجين) بمثل هذا السعر التافه ؟ (٢)

والجاموس كان ولم يزل عماد حياة سكان الأهوار ، وهم لذلك يبدلون قصارى جهودهم وطاقاتهم للعناية به . وباستثناء القبائل المتنقلة التي تمتلك قطعاناً كبيرة تنتقل معها حسب الظروف ، فإن المواثل المستقرة نادراً ما تمتلك اكثر من ستة ، ولا يزيد العدد عادة على الثلاث . ويغادر الجاموس الكوخ عند الفجر ، حيث يقضي ليله في الرصيف الخاص به أو ينام عادة مع العائلة حول النار ، ويسير الى القصب البعيد بحذر وببطء وهو يوقع لخطواته في الوحل بأصواته الهادئة اليائسة . ويقف على رصيفه لوقت طويل قبل نزوله الى الماء ، وتبتدىء كل جاموسة تجاراً للاخرى معلنة قدوم يوم رقيب جديد ، حتى يأتي الراعي فيقفز في الماء ويتبعه الجاموس يحسده الضخم وتلك امرع حركة يقوم بها فيما عدا حركة ذيله وهو في اليابسة . يطرد الذباب عنه . وحتى عملياته الجنسية يقوم بها وكأنه لا يشعر معها بأية لذة . واستمتع ، أو انها عبء ثقيل لا بد له من القيام به لتخليص جسمه من الآلام الغريزية التي يحسها في داخله .

ويتنابه التعب والاعياء فيقف في الماء ويظل يدور بنظرات تائهة وكأنه فقد ذاكرته ولم يعد بإمكانه معرفة طريقه اليومي الاعتيادي حيث الحشيش والبردي ، وربما تصاعدت شكواه في صوت عميق منخفض لعدة دقائق ثم يتوغل في الماء تدريجياً بحركة غير ملحوظة . وأخيراً يبدأ السباحة وحينئذ لا يتراءى منه غير الانف يرفعه فوق الماء يجهد يلوح وكأنه بقايا قوى خائرة ، ونظراته

(١) في الحقيقة ان هذه الاقراص (المطال توضع على السطح فعلا وترصف كالـموزائيك كما ذكر المؤلف ولكن ليس لغرض تسقيف البيت وانما فقط لكي تجف .
(٢) كلمة (السرجين) . . . تعني فضلات الجاموس او البقر .

المندرجة واصواته الحزينة المتعبة تعلن ان نهاية حياته قد اقتربت وانه على وشك ان يفرق .

وهناك بين القصب والبردي يقضي الجاموس يومه بصبر وأناة وهو يتناول بكسل واعياء الحشائش التي يمكن ان تقع عليها عيناه بينما يكون كل جسمه ما عدا الرأس خارج الماء وكثيراً ما كان يفاجأ بنا أثناء رحلتنا في الطرادة فتظهر على البعد الرؤوس منه فقط فوق سطح الماء . اما خارج الاهوار الدائمة حيث يتذبذب مستوى المياه صعوداً وهبوطاً وحيث الحشائش تنمو عادة على بعد قدم او اثنين تحت سطح الماء فإننا نلاحظ الجاموس وهو يقف ليمدّ رأسه في الماء حتى القرون ليتناول تلك النباتات الصغيرة ، ويبدو ان هذه خدعة يجب ادراكها لأن جاموس الاهوار الحقيقية العميقة لا يتمكن من تناولها ان وجدت تحت سطح الماء .

ولا تعتمد هذه الحيوانات الطويلة الصبر على ما تستطيع الحصول عليه خلال اليوم من غذاء وهي عائمة في الماء الذي يصل مستواه الى الكنف ، ففي الوقت الذي تخرج فيه عند الفجر من نصف الكوخ المخصص لها ، تخرج معها العائلة كلها بمشاحيفها من النصف الثاني تاركة الكوخ تحت رحمة كلاب الحراسة التي يصبح وجودها في هذه الحالة لازماً . وتتضي العائلة هي الاخرى يومها بقطع الحشائش الخضراء الطرية وتحملها في المشاحيف . ويعتبر جمعها الروتين اليومي للمعدان . وربما تناهى الى سمع شخص يسير في الاهوار في يوم هادىء ، حفيف الحشيش يقطع من بعيد وهو يختلط بغنائهم والحانهم ونداء الواحد منهم للاخر عبر ستار القصب الذهبي العملاق وهم يشقون طريقهم خلاله . والرجال منهم والاولاد يخوضون الى النصف وهم عراة يجرون مشاحيفهم الى جانبهم والماء يلتمع على اجسامهم الهادئة اللون .

وعند الاصيل حينما تكون الشمس قد ابتدأت تصبغ القصب البعيد بلون برتقالي هادىء يعود المعدان الى اكوأخهم ويلقون بالحشيش امام الجاموس الذي يكون قد عاد في هذا الوقت مع انتهاء يومه المتعب الرتيب . فإذا ما استقر راح

يقضي ليلة هائلة عذبة مع الحشيش . ولكن لا بد ان نقول ان الجاموس في الحقيقة اكثر بقبائل من مكائن صابرة لتحويل القصب والحشيش بعد ان يمر بامعائه الى وقود عظيم الفائدة . وتلاقي هذه الحيوانات الأمرين من لسعات البعوض والذباب حينما تكون في اليابسة فسرعان ما تثور تأثيرتها وتضطرب اعصابها اذا لم يوضع حد لتلك اللسعات بأقصى سرعة ممكنة . وهنا ترى اصحابها او العائلة تعرض خدمتها لها ثانية بكل تقدير ، فتشعل ناراً من المطال لتطرد تلك الحشرات وصرعات ما تمصاعد سحب من دخان ازرق شاحب تسبح فيه رؤوس الجاموس المتجمعة الضخمة كآلهة فوق غيمة من بخور .

وعلى الرغم من ان علامات الغباء تتجلى على ملامح الجاموس الا انه يعطيك عملياً انطباعاً يثير الدهشة عن ذكائه حين تلاحظ ان كل جاموسة تجيب على النداء الموجه باسمها حالاً حينما يراد حلبها . والرجال فقط يقومون بالحلب دون النساء ، وهذا ما لاحظته نيزيجر بالنسبة للجمال عند البدو في شرق الجزيرة العربية .

ولم أستطع أن أتأكد تماماً هل ان الجاموس ينام في الرصيف المخصص له ام ينام مع العائلة حول النار . فاما صفاره وخاصة عندما تبلغ دور الفطام وتوضع على فمها كمامة تحول بينها وبين الرضاعة فانها تفضل النوم في داخل الكوخ قرب النار . ويطرد الجاموس في بعض الاحيان بعنف عندما يحاول دخول الكوخ خوفاً من عبثه ، وقد عالج نيزيجر حالة اكثر من طفل وطنت وجهه خلال الليل جاموسة هائجة .

وبعد تناولنا الطعام ارسلني نيزيجر لصيد (الخضير Duck) فخرجت ومعى اربع اطلاقات وعدت بعد ساعتين بحقيبة من صيد دمى يتكون من واحدة من طير الخضير ، وواحدة من نوع البط البحري ، وواحد من (نعيم الماي) وحية مائية .

وكانت وجهتنا منطقة من البحيرات والمستنقعات هادئة ولكنها تعج بأسراب

الخضيري ودجاج الماء . وكنت قد اخذت درسا في كيفية استعمال ذخيرتي في الوقت المناسب لذا قاومت بشدة الحاح احد ملاحينا بالاطلاق على طيور قريبة منا لم اتأكد بعد من نجاحي في صيدها . وحينما اقتربنا منها اكثر طارت إلا واحداً ، ووجدته خيره دى لي فعاجلته باطلاقه سقط اثرها يتخبط في الماء الازرق الهادى . وبعد ذلك تمكنت من اصطياد الخضيري واكتنفي عند اصابته نوع من الامى لسراستي في قتل حيوان ضعيف قبيح كهذا . وشقت الطراة دربها خلال غابة من القصب ودخلت بنا بحيرة اخرى استراح على سطحها سرب من نعيم الماي .

ولسبب ما لم يتعلم نعيم الماي كيف يخشى الانسان على الرغم من ان عدداً غير قليل منه يصيده العرب ليس للحمه الذي يلقى جانبا ولا لريشه وانما للجلد الرقيق الذي يتدلّى تحت الرقبة حيث ينشر ويجفف حتى يصبح سطحاً ناعماً يشبه تلك الجلود التي كانت تستخدم للكتابة في زمن ما ، وهذا الجلد هو الذي يعطي لطلبات المعدان الحانها المستيرية العالية . وعندما يأخذهم الطرب في الافراج ويزداد الضرب على الطبلات مرعة وقوة فمن الملاحظ ان هذا الجلد كثيراً ما يتمزق . وليس غريباً ان يحرق الشخص منهم اكثر من طبله عندما تبلغ به النشوة واللذة ذروتها في حفلة ما . ولكن طيور نعيم الماي البيضاء الكبيرة ، التي تبدو على اليابسة او الماء قبيحة مشوهة في حين تتجلى روعة جمالها عندما تطير ، اما انها لم تتعلم كيف تعتبر الانسان عدواً حقيقياً لها او أنها تظنه اقل من ان يصلها . وصحيح انها تظهر نوعاً من الغضب والانفعال ولكن فقط حين يكون الشخص على مسافة قريبة منها ، وفي هذه الحال تضرب الهواء بأجنحتها المنشورة وتطير وهي تتلفت اليه حزينة تطفح بالعتاب .

كنت في البداية أتحرق شوقاً لسماع تعليل معقول يفسر لي السبب الذي حدا بهم الى تنبسيي بأن اكون حذراً عند اطلاق النار على نعيم الماي ، وعلي الا اصيب رأسه . وشعرت بالارتياح عندما اصبت الطير في جناحه ، وما ضج الجو بصوت الاطلاقه حتى طارت البقية تحفق في الهواء بأجنحتها الكبيرة . وعندما كان

احد ملاحينا يسلخ الجلد عن الطير ، عادت بقية الطيور المسكينة مرة اخرى تحوم فوق رؤوسنا وهي تنظر بدهشة الى جثة الطائر القليل المعزقة .

كنا في طريق عودتنا من الصيد ونحن نجدف فوق سطح هادىء من المياه ، والى يميننا على مسافة ثلاثين ياردة غابة من القصب الطويل وهناك رأيت الحية ... لامعة نحاسية اللون ملتفة كالحلزون حول حزمة من القصب لمسافة قدم او قدمين فوق سطح الماء . وكان لونها النحاسي ووضعها ذاك كلاهما يوحي بالشر والخوف ، ولم اكن بحاجة الى التتميات المعمومة التي اطلقها احد ملاحينا ليخبرني بأننا امام عدو خطير .

وفي تلك الانفعالات مد الشاب اصبعه يشير الى الحية بعد ان كنت انا قد لفتُ نظره اليها . وحين وضعت البندقية على كتفي في محاولة لاطلاق النار كانت صوته وهو يدفني الى الاطلاق متحسرا كصوت مرب من الخفاش يدق على طبله اذني . ولم تكن الحية كبيرة وربما لايزيد طولها على الاربعة او الخمسة اقدام . ولا تعتبر شيئا يذكر بالنسبة للحية التي اصطدمت عيناها بها في فزع ورعب بعد عدة اسابيع .

ولم اكن اعرف هل ان هذه الحيات المائية من فصيلة واحدة ولم اعرف حتى اسمها العلمي . والمعدان ينظرون الى الحيات بخوف كبير وحتى ان مجرد لمسها يصيبهم بالاضطراب . وهم يسمونها (عرييد) ويدعون انها قاتلة تميم ضحيتها في عشرين دقيقة . وقد قابل ثيزيجر في السنة الماضية جماعة كانوا عائدون من دفن فتاة قتلها عرييد ، وكانوا يحملون جسم الفتاة في المشحوف الى مكان الدفن ، وحين انزلوها الى ضفة النهر اندفع من فيها دم اسود بكية كبيرة . وهذه القصة تدل على ان العرييد من فصيلة الحيات السامة *Viper* التي تهلك الانسان بسرعة بإحداثها نزيفا دمويا في جسمه وبهذا تختلف عن نوع الحيات الاخرى التي تقتله بتعطيل جهاز التنفس عنده .

(والعراييد) بلا شك تنمو الى حجم كبير ، فبعد عدة اسابيع من اطلاق النار على تلك الحية وقع نظري على حية اخرى لن اذكر تقديراً لطولها خوفاً من

سخرية القارىء . فقد كنا نسير مرة بين القرى بطرادتنا المحملة مع ملاحينا الاربعة وانا احتل الصدارة في الطرادة حيث كانت ثيزيجر ابدأ يؤثرني به ووجهي الى المقدمة بينما جلس هو امامي في الجهة الاخرى ووراءه اثنان من الملاحين يجذفان وخلفي ايضا اثنان آخران ، وكان هو الوحيد من بيننا تقع نظراته على المناطق التي نطويها في سيرنا . وقد كنا نسير خلال ممر مائي ضيق يحف به من الجانبين قصب طويل حين اصطدمت عيني بوجه ثيزيجر ، ولدهشتي الكبيرة رأيت نظراته تتجمد برعب لا يصدق في اتجاه مرفقي الايمن . انه لشيء غريب لم اعلمه في طبعه المهديء من قبل ، ولم افكر في ان اسأله السبب وانما استدرت برأسي لا اراديا الى وراء .. الى الجهة التي كان يحدق فيها دون حاجة الى سؤاله عما يلفت نظره هكذا . ورأيتويا للهول مؤخر ثعبان لاحت لي عدة اقدام من طوله ينزلق من القصب الى الماء ، ومع ذلك فقد كان عرض القسم الذي تراهي لي منه لا يقل عن عرض ساعدي . وادركت ان الثعبان لا بد أنه كان قريبا مني قبل ثانية أو اثنتين ، ومما لاشك فيه ان ثيزيجر قد رأى منه اكثر مما رأيت إذ انني لم المح منه غير ذنبه وهو يغوص في الماء .

واستمتعنا ذلك المساء بمشاهدة رقصات قام بها راقص لا يحضرنى اسمه الآن واطنه كان صعباً في تلفظ كلماته ، واذكر انني كنت اشير اليه (بالبرغوث الراقص) ولعله كان في الثامنة من عمره . وعندما يضطر للاستراحة خلال وصلات الرقص فإنه يتراهى طفلاً صغيراً حالماً ، وعيناه كبيرتان براقتان والحزن يلوح على ملامحه ، ومظهره الساذج هذا لا يدل على ماله من موهبة ساحرة في الرقص وكأنه بهذا أصابع صغيرة من المتفجرات لا يدل مظهرها الخارجي على ما فيها من طاقات كامنة ، واني الآن ، وعندما اتذكر رقص المعدان تقفز الى تخيلتي صورة ذلك الطفل الفنان .

المنظر ساحر خلاب والنجوم اللامعة تنعكس على صفحة الماء الذي يتراهى خلال فتحة الكوخ ، واللهب يتصاعد من نار القصب اللامبة وقد احاط بها الرجال

في ساحة مربعة طول ضلعها اربع ياردات ، اما اولئك البعيدون عن النار فلاحت رؤوسهم غارقة في عتمة الظلال .

— ارقص !!

صاح احدهم في الصبي فقام دون ممانعة ما . وتراجع الحشد عن النار ليفسح له مكاناً في الوسط استطعت تقديره بما لا يزيد على ثلاثة اقدام عرضاً واربعة طولاً .

وابتدأت الضربات على الطلبة بايتماع بطيء في البداية حيث كان الصبي يتقدم خطوتين الى الامام ويتراجع خطوتين الى وراه دون ان يلتفت . وتصاعد ايقاع الطلبة تتم تتم ، تتم تتم . ولاح الصبي هادئاً ساحراً مسيطراً على نفسه . وكانت اعضاؤه تتحرك بدقة وهدوء وتجلت سيطرته على كل عضو من اعضائه واضحه وكأنه شاب كبير . وتدرجياً ازداد قرع الطبلات وازدادت ضربات اقدمه على الارض ، مع مرور الدقائق ، حدة ومرعة ايقاع يتساق مع اللحن ... تتم تتم ، تتم تتم ، ومال يجسده الى الامام وكأنه يريد ان ينقض على المتفرجين وقفز الى وراه فجأة . وازداد الايقاع مرعة وعنفاً ، وفي لحظة ابتداء كتفاه يضبطان الايقاع مع قدميه ، وكل منهما يتحرك على انفراد وكأنها جزءا ماكنة يحركها مصدر واحد ، قدماه تتحركان الى امام والى وراه وكتفاه يرتجفان الى اعلى والى اسفل ، والرجال المحيطون به يرددون نعماً واحداً في وقت واحد واصابعهم تفرقع مع ايقاع الطبلات . وانغمز الرجل الذي عهدت اليه مداراة النار في موجة من طرب فنسي واجبه وكان ان خفت اللهب واختفى جسد الصبي في دشداشته الفضفاضة . وفجأة تصاعد اللهب مرة اخرى عندما القيت في النار حزمة جديدة من القصب فتجسدت اعضاؤه من تحت الدشداشة الشفاقة الناعمة على ضوء النار الدافىء . وشاركت عضلات اخرى في الرقص حتى كان جسده كله يهتز مع الايقاع بقدمين تلعبان بخفة في الهواء وكتفين راعشتين واصبح كل عضو فيه يؤدي دوره التام بهارة وفن عجيبين ، واشتد الايقاع وصار الرقص الآن مثيراً للشهوة الى حد كبير . فكلما ازداد الايقاع مرعة كلما توقف الصبي فجأة بين الحين والآخر وراح يرجف أحد كتفيه ثم يتبعه بترجيف الكتف الآخر ، او ان يلوي ويرجف ردفه بخلاعة

وإثارة ، وعيناه تدوران ولسانه يندلع الى الخارج خلال الرقص . ولولا تلك الحركات الرائعة الموقوتة ذات الايقاع المتساق مع الطبل لخلته منصاباً بنسوبة صرع .

وهكذا لاح الصبي وقد اخذت عليه حر كاته العنيفة المجنونة تلك كل حواسه حتى تراءى وكان لا نهاية لذلك الرقص . فقد استمر الصبي يؤدي حر كاته الراقصة الراقصة مدة عشرين دقيقة في تلك البقعة الضيقة من الارض دون تكلف أو عناء ، وفجأةلقى بنفسه على الارض واستلقى وهو يتلوى ويرجف اعضاءه بسحر ويحرك عضلاته يجنون ، ومع ذلك فقد كانت حر كاته في كل ادوارها منسجمة مع الايقاع .

وتوقف الطبل عن ايقاعه فنهض الطفل بين عاصفة من الضحك ونظرات الاعجاب والاكبار . وجلس مرة اخرى متربعا قرب الموقد فعاد طفلاً هادئاً خجولاً من جديد ! ولم تبد عليه علائم من تعب او اعياء بعد كل ذلك الجهد العظيم ، وحتى انه عندما عاد للرقص ثانية تحت الحاح المتفرجين لم يظهر عليه اكثر من انه استيقظ من اغفائة خفيفة عاود فيها نشاطه وحيويته .

☆☆☆

وخرجنا في الصباح لاصطياد الخنازير . واذا كان الجاموس اخلص اصدقاء المعدان واكثرهم فائدة فالخنازير عدوم الاكبر وهي من الحيوانات المنتشرة في الاهوار وحجمها يفوق حجم خنازير اوربا والهند بل انها من اضخم خنازير العالم كله ، فهي شرسة ضارية عديمة الفائدة لأن لحمها محرّم في الدين الاسلامي ، وتختفي في كل بقعة من الاهوار لتبني لنفسها جزراً صغيرة من القصب تنام فيها . وكثيراً ما يصادفها المعدان اثناء قطعهم الحشيش فتهاجمهم وتتركهم عظاماً نخرة تحت الشمس واذا نجح الحيوان في محاولاته القاتلة ام لا واذا سقط الشخص على ظهره أو على بطنه فالمسألة مسألة صدفة ، ولكن المعروف ان الخنزير سرعان ما يدير ظهره ويولي عادة الأدبار بعد مناوشات قليلة .

وأخطر الجروح تحدث عندما تسقط الضحية على الظهر وحينئذ يكون الوجه والرقبة والبطن تحت رحمة أنياب الخنزير بطعناتها القاتلة وحقيقة كون الخنزير لا يبصر حتى يعرف مصير ضحيته يترك للانسان فرصة كبيرة للهرب . ويحمل الكثير من المعدان على اجسادهم آثار طعنات الخنازير التي تهاجم حتى القوارب اذا ما فاجأتها وهي نائمة . وأخبرني ثيزيجر مرة انه رأى طراداة طولها خمسة وثلاثين قدما وقد مزقتها انياب الخنزير .

فلا غرابة اذا علمت ان المعدان يكرهون الخنازير ويقتلونها بكل طريقة ممكنة حينما وجدت . وقد حصل ثيزيجر ، الصياد الماهر ، على اكبار واعجاب عدد كبير من السكان من قرى مختلفة لأنه استطاع قتل مئات الخنازير خلال السنوات الاربع التي قضى بعضها بينهم حتى اخذوا يعتقدون ان قتل الخنازير جزء أساسي من عمله الى جانب تطبيبيهم ، غير ان السلاح قليل والذخيرة ضئيلة اذا ما قورنت بعدد الخنازير الهائل ، لذلك فالوسائل المتبعة في صيدها محدودة وهم يقولون ان الخنزير عندما يكون سابجا في الماء فعلى الشخص ان يفوص في الماء ويأتيه من ورائه ليمسك بقائمتيه الخلفيتين ويمكنه حينئذ اغراقه غير انني لم اشاهد ذلك بنفسي ، وهو يتضارب والرعب الذي يظهرونه عند رؤيتهم خنزيراً سابجا في الماء . ويتم كذلك عدد كبير منها (بالفالات) والهرارات عندما تكون سابجة في الماء . وادعت احدى القرى امامنا انها قتلت مائة واربعين خنزيراً خلال عام واحد . والمعدان يقتلون صغار الخنازير بلا رحمة ولا شفقة لأنها عدوهم المجرى عن القابلية والسلاح . وفي هذه الحالة يظهرون تجاه الحيوان قسوة متناهية . ومن الصعب على المرء ان يميز عندهم شعوراً بالشفقة والرحمة لحيوان يتعذب . وهذه القسوة الكبيرة التي يظهرونها تعطي لأول وهلة انطباعاً خاطئاً بأنهم مصابون بالتسادية العنيفة . وعلى كل مسلم ان يتجه برأس الحيوان عند ذبحه الى جهة القبلة اذا كان الغرض منه الاكل ، اما اذا كان الحيوان كبيراً فعملية ذبحه تصبح قاسية عنيفة . وتراهم يظهرون غبطة لاهبة بينما الحيوان الجريح يتلوى الماء . وقد رأيت بعضاً منهم يضجرون بضحك مجنون امام بطة الحّ عليها الألم فراحت تتلوى . وتختلف المشاعر وتزداد عنفاً

عندما يكون الحيوان القليل خنزيرا .

لذا تراهم يتبعون في صيد الخنازير من الشدة والحزم اكثر مما يتبعون في صيد أي حيوان آخر . واني وانا اكتب الآن تنشال على خاطري ذكريات عذبة لصيد الخنازير .. ذكريات محومة من حذر واصرار وعزم وخوف .

وبينما كنا نجذف مرّة خلال غابات القصب وكلنا يقظة وعيون متفحصه وهدوء مطبق الاّ من همسات قطرات ماء المجداف تتساقط عائدا الى النهر بينا الطرادة تنساب على سطح الماء بخفة وهدوء ، والاّ من صوت غريب لطائر يدعى بالبرهان *Gallinule* ، وصوت عقاب انطلق فجأة يخفق في السماء والرياح تضرب على جناحيه الكبيرتين الضخمتين بقوة وبصوت يشبه اندفاعها بين القصب وحسيس (الجريح والكولان *Sedges*) اليابس بين القصب العملاق يتناهى الى اسماعنا خافتا . والمجاذيف تضرب في الماء بهدوء وقطرات الماء البراقة تتساقط منها ليحتضنها ماء المستنقع الازرق من جديد . والطرادة تشق دريها خلال قصب كثيف نحو مستنقع جديد والاصوات تتضخم تدريجيا من كل جانب حادة تصم الآذان . وتراهي لنا من بعيد نسيج عنكبوت كبير وقد تعلق به مئات الذباب تسطع الشمس على اجسادها الخضرو ما تركت الطرادة القصب حتى توقف الضجيج فجأة ومرة اخرى عشنا في عالم من هدوء واعداد من العقاب تحوم فوقنا في سماء زرقاء صافية . (والتسماك *kingfisher*) من امامنا تبرق الوان ريشه الزاهية . واخذ كل منا يتسمع .. يتسمع بكل حواسه صوتا خافتا تعذر علي تمييزه أو ادراكه .

ويتمتع سكان الاهوار بأذان حساسة وبقوة ادراك عجيبة لصوت العدو لا يمكن تصديقها . وخلال اقامتي القصيرة بينهم رأيت الشيء العجيب منهم في هذه الناحية ، فحفيف ناعم بين القصب مثلا والاصوات الخافتة المتسللة من حيوانات مندسة بين مجاهل القصب والبردي ، تلوح لي متشابهة لا يمكن تمييزها ، اما بالنسبة للمعدان فكل صوت منها كان ضيلا يرسم امامهم صورة للشيء او الحيوان الذي يصدر ذلك الصوت .

وقد تجاهلوا مرّة صوتا عنيفا ظننته في بادىء الامر صوت خنزير هائج في حين

اخذوا يصغون بجذر بعد بضع ثوان الى همس خافت تعذر علي سماعه . وامتدت الاصابع تشير باضطراب الى جهة معينة ، ووقف ثيزيجر وسط الطرادة والبندقية في يده متهيئة للانطلاق . واطبق الصمت حتى من القطرات المتناثرة من المجاذيف ورحنا نسير فوق صفحة الماء البراقة في سكون ثقيل . ثم سدّد ثيزيجر بندقيته الى هدف لم استطع رؤيته بين القصب على بعد خمسين ياردة عن يسارنا . وتبع الاطلاق صوت عنيف وسقط جسم ضخّم بنيّ الشعر في المياه . وراح الخنزير يسبح في مساحة مستديرة وكأنه قطة تطارد ذيلها ، وفكه الاسفل المتهشم يتدلى والدماء تنزف منه قانية تصبغ الماء الازرق بلون احمر قان ، ثم غاص في الاعماق ولم يبق من أثره غير بقعة حمراء وسط المياه ... لقد كانت مية مخيفة لحيوان مرعب مخيف .

ووصلنا بعد ذلك الى بحيرة - الدوينة - الكبيرة بصفتها الزرقاء تحتضنها غابات القصب من كل جانب . وعندما كنا نترك المر المائي الذي اخذ يكبر تدريجياً لندخل هذه البحيرة رأيت للمرة الاولى عملية صيد السمك (بالغالة) هناك .

وتعتبر (الغالة) ذات الخمس رؤوس مع العصا ذات الرأس المعدنية والخنجر الذي يصنع غمده من قرن الجاموس ، تعتبر هذه كلها من الاسلحة التي لا يمكن لرجل من الاهوار الاستغناء عنها . (والغالة) عصا يبلغ طولها حوالي عشرة اقدام تشد الى احد طرفيها قطعة حديد كبيرة ذات خمس رؤوس مدببة . واكثر صيد السمك عندهم يكون بهذا السلاح المرعب ، ويستخدم ايضاً لقتل الخنازير وفي احيان اخرى لقتل العدو من الانسان . واذا كان الهدف ظاهراً فالمية محتمة ، ولكن استعمال الغالة الشائع هو قذفها بقوة عند جذور القصب حيث تتجمع الاسماك .

وقد لاحظ عمارة مرة على سطح الماء الماديء حوكة واضطراباً خفيفاً على مسافة عشرة او خمس عشرة ياردة فرمى المجذاف جانباً وتناول الغالة وامسك بها بكل قوّة ثم قذفها بعنف شديد على تلك الفقاعات واصابت نهايتها الهدف .

فأخذت الفألة ترتجف بقوة وقد غاص منها قدمان في الماء الضحل . ولم تتوقع إيجاد شيء في نهايتها ، الا اننا عندما التقطناها وجدنا ثلاث رؤوس حادة منها وقد انفرزت في سمكة كبيرة يزيد طولها على تسعة انشات ولو كنت عدت الى انكلترا ذلك الوقت لنقلت اساطير خارقة عن مهارة المعدان في الصيد بالفألة ، ولتحدثت كثيراً عن الهدف الذي يبلغ طوله تسعة انشات وعرضه ثلاثة والذي اصيب وهو على بعد خمسة واربعين قدماً من قارب يتأرجح ويتمايل . ولكنها وبيا للأسف كانت شهرة زائفة كشهريتي في صيد دجاج الماء التي مرعان ما تلاشت .

ولاح لنا في وسط البحيرة من بعيد خط أو امتداد اسود ولعل طوله يزيد على الميل ، وعندما امعنت فيه النظر لمحت ثمة شيء كبير ينقض فوقه كطائرة تنقض على هدفها ، واعقبه ثان وتبعه ثالث . وفجأة ظهر خط ابيض من زبد الماء وكأنه بقعة من الارض الى جانب الخط الاسود ثم انطلق صوت هادر . وكان الخط الاول يتكون من الاف من دجاج الماء انضم الى بعضه تحت مهاجمة خمسة من طير العقاب *eagles* من الجو . وهي لا تستطيع الانقراض ودجاج الماء في المياه ، لذلك كانت تنقض عليه عدة مرات في محاولات لافزاعه واقتناصه حينما يطير . وعند كل هجوم من العقاب ترى دجاج الماء ينشر اجنحته ويرفرف فوق الماء لمسافة قريبة فيشير الماء من امامه في موجات بيض ، وحين يرتفع العقاب يتجمع دجاج الماء مرة اخرى وينضم الى بعضه حتى ان المرء اذا اسقط بينه ابرة فلا بد انها ستسقط على احده . وهنا فقط يمكن لأتفه اطلاقه تلبية اوامر ئيزيجر في الصيد مائتين بالمائة .

ومرنا عبر البحيرة نحو ذلك السرب من دجاج الماء وقبل ان نصل الى منتصف المسافة عنه كانت طيور العقاب قد يئست من صيد سمين لها . وقبل ان نبتعد عن تلك المنطقة رأيت اثنتين منها تطير فوق رؤوسنا بانخفاض كبير وكانت من نوع العقاب البحري البيض الذبول الذي يبيض بين القصب . وحين تكون صفاره في العش ويمر بها المعدان وهم يجمعون الحشيش افزعهم العقاب فجأة وأرعبهم . وطيور العقاب الاخرى اصغر واشد سواداً ولا يمكنني ان اطلق الاسم العلمي

الصحيح لكل حيوان في الاهوار ، لأن الحيوان الوحيد الذي جلبته معي الى انكلترا ظهر جديداً على العلم . وخلال الشتاء واول الربيع يزداد عدد طيور العقاب في الاهوار فلا تخلو السماء في اية لحظة من عدد منها ، وهي متعددة الانواع والاشكال الى حد يثير الحيرة . وبما ان العرب لا يقتلوننا لذا تراها لا تخشى الانسان كالغراب الابيض والاسود الذي يحط كعصافير الاهوار على سيقان القصب العملاق المنحنية ، غالباً ما تسمح للمشاحيف بالمرور قريباً من تحتها دون ان تتعرض لها .

وبعد ابتعاد طيور العقاب عاد دجاج الماء وانضم الى بعضه على سطح الماء باعداده الهائلة حتى خيّل لي انه اصبح كقطعة ارض يمكن للانسان السير عليها لمسافة نصف ميل . وحين صرنا على بعد ثمانين ياردة عنه اخذ ينفذ عنه الماء ولما طار امتلأ الهواء برذاذ الماء وتشكل منه في السماء قوس قزح مختلف الالوان ، ولو كان مرّ فوق رؤوسنا لحجب الشمس عنا بيد انه طار الى يميننا . واطلقت عليه رصاصة ، ولأن اعداده هائلة جداً لذا لم اتمكن من ادراك عدد القتلى منه ، ولكنه حينما ابتعد عن المنطقة ولم يبق من أثر غير طيف قوس القزح في الجو وجدت ان ما اسقطت منه لا يقل عن التسعة عشر .

وفي ذلك الوقت تلاشي كل ما كنت احمه للمعدان من اعجاب في استخدام الفألة ، حيث كان علينا ان نتعقب الطيور الجريحة بالطراوة ، ومرة بعد اخرى كان عمارة وحسن يقذفان الفألة على احد الطيور القريبة ، ومرة بعد اخرى كانا يخطئان الهدف .

وتناولنا طعامنا تماماً كما تناولناه في اليوم الاول من وصولنا الاهوار في جزيرة غير مستقرة والقصب يحيطنا من كل جانب . وطعامنا يتكون من طيور ذبيحة ملوثة بالرماد وخبز غير ناضج وسمكة كان قد اصطادها عماره ، مع دبس أسود ربما كان يسرق للمرة الثانية او الثالثة . وكان الدبس في جرار لمحتها عيون ملاحينا الحادة محشورة بين القصب ، وقد قيل انها كانت قد مرقت واخفيت هناك ، وعلى هذا فهي الآن تسرق للمرة الثانية .

واخذت الرياح تهب مرة اخرى بشدة قبل ان نعود الى القرية في تلك الليلة .
وفي احد الاكواخ في قرية - ام الجريفات - كان الدخان المتصاعد من (المطال)
خانقاً والرياح تخرق فجوات الكوخ .

☆☆☆

كانت تلك ايامنا الثلاثة الاولى في الاهوار الدائمة وقد مضت بعد ذلك عشرة
ايام قبل ان نعود اليها مرة اخرى ، لأننا سافرنا في صباح اليوم التالي الى التربة -
الرفيعة - موطن عائلة كل من عماره وسبتي . وبعد ثلاثة ايام كنا نمر في الاهوار -
الوسطى - التي تقع الى غرب نهر دجلة - من الجنوب الى الشمال . ونحن الآن
نسير في اقصى طرفها الشمالي على بعد عشرين ميلاً جنوب مدينة العمارة . والمسالك
المائية تبقى شريان الموصلات حتى خارج مناطق الاهوار ، واما التغير فيها فهو
تدريجي . وكلما توغلنا خارج الاهوار اكثر كلما اصبح القصب اقل طولاً ومبعثراً
هنا وهناك حتى لم نعد اخيراً نرى له اثرأ واخيراً صارت المسالك المائية مربكة
وماؤها بني اللون طينياً . وعندما تهب الرياح تصطبغ مياه هذه القنوات بلون خاص بها لا
يمكن تمييزه في البداية . ويضطرب سطح الماء ويتجمع في موجات تشبه كثيراً
رملية في الصحراء احد جانبيها يرتقالي اللون وهو لون الماء العكر . في حين ترى
الجانب الآخر ازرق بعكس لون السماء . ومع ذلك فالكل ، الذي يلوح وكأنه لا
يمكن تمييز لونه ، في الحقيقة متكون من لونين وتناسقهما في الحركة مع التيار يجعلهما
يظهران كما لو انها لون واحد .

وتحولنا من هذه المسالك المائية الطينية الى قنوات ضيقة خلال حقول الرز
وعلى جوانبنا ضفاف من اليابسة تناثرت عليها مغالب سرطان وقطع حجار من
مختلف الاشكال .

ومناطق الرز منبسطة يطغى عليها لون واحد ، فعندما تلقى البوارى على
اقواس الاكواخ الجديدة عند انشائها تكون ذهبية براقه ولكن الطقس سرعات
ما يحولها الى رمادية شاحبة وتصبح جزءاً من عالم داكن يشمل الارض وبيوت
القصب وحتى الابقار والاعنام ما عدا اعواد الرز الغضة الخضراء . انها ارض ممتة

مقشابهة الاشياء لم اشعر فيها بالراحة ، ومع ذلك فعندما خرجنا من الاهوار كان الحنين يتململ في اعماقي للعودة اليها .

ولم اشعر بالانهاك والتعب في اعصابي وعضلات جسمي خلال الايام الثلاثة الاولى من رحلتنا الا عندما وصلنا - الرفيعة - حيث ادركت هناك كم تأثرت عضلات جسمي من جراء الوضع الواحد الذي عانته اجسادنا خلال الرحلة والذي لم يتغير الا نادراً . فعندما سحبت خطاي الى الضفة الرملية حيث ينتظرنا جماعة من المعدان شعرت ان رجلي في غير وضعها الطبيعي فأخذت اتعثر خلال سيرتي وأترنح كطفل صغير لم يتعلم المشي بعد ، وأحس برأسي ترتفع عالياً في الهواء . وكل عضلة وعظم من خصري الى الاسفل يلتهب فيه اعياء وتعب . ولم ارغب عند تلك اللحظات في شيء اكثر من ان تتحول المسافة القصيرة البالغة عشرة او عشرين ياردة بيني وبين البيت الذي نقصده الى اميال عدة لكي تستعيد ساقاي فيها بعض قواهما المفقودة خلال الرحلة الطويلة ، ولكن لم اقف على قدمي اكثر من دقيقة بين الرياح المماتجة والافق العاري حتى وجدت نفسي مرة اخرى اجلس متربعا في داخل الكوخ .

وفي هذه القرية التي ينتمي اليها اثنان من ملاحي ثيزيجر امتلأ البيت بسرعة وصندوق الادوية تنهال عليه الطلبات . وكما هو الحال في قرية - الرملة - كانت هناك عاصفة من التراب لا تسمح للمرضى بالانتظار في الخارج وهكذا عولجوا في احدي زوايا الكوخ . وانحدرت الشمس نحو المغرب فلم يكن يضيء الحشد من المرضى غير الضوء المتراقص من نار (المطال) الملتهب ولاح ثيزيجر ، وهو يعالج احد المرضى يجسده المنحني ، وكأنه شبح طيب من السحرة في قصص الاساطير ، وقطعة البطانية التي يرتديها كالشال تلقي على الجدران المقوسة ظللاً سوداء كبيرة كطير ضخم يجناحيه المشورين باعداد .

وفي هذا الوقت كانت امراضهم ما تزال تحمل لدي انطباعاً واضحاً عنهم ، وقد وجدت اني كتبت في مذكراتي ما يأتي عن تلك الساعة :

عدد الاشخاص العور .

- عدد الاشخاص الذين يحملون عضات الكلاب .
- عدد الاشخاص المصابين بأمراض مرعبة متنوعة .
- اربعة وجوه بلا أنف رأيتها في تلك الليلة .

وكلّما مرّ عليّ الوقت في الاهوار كلما صارت تلك الاشياء مألوفة لديّ ،
وأخيراً اصبح تناولي الطعام مع شخص مجنومٍ مثلاً ، لم يترك له المرض غير اصبع
واحدة في يده ، شيئاً اعتيادياً !

واني اتذكر الآن تلك الليلة بكل مزعجاتها ، فخلال ساعاتها الثقيلة الخطى
كانت الكلاب تعوي وتنبح حول جدران اكواخ القصب النخيفة وفي حوالي
الساعة الثالثة عند الفجر سمعت حواراً يدور بين بعض الشبان الذين تقرقصوا حول
جمرات النار في الموقد . وكان ذلك بداية لمفاوضات لاحت لا نهاية لها حول زواج
عمارة من أخت سبتي . . تحديد المهر وتعيين موعد الزفاف ، وتوقع المشاحات
التي قد تحدث في المستقبل . كان ذلك كله يدور خلال الليل بينما عمارة نفسه ،
واقولها بصراحة ، لا يدري بالأمر وانما راح يغط في نومه العميق قريبا منهم
ورجه الجميل الشاحب غارق في سباته العميق ترسم على صفحته علائم من غطرسة
ونوع من قسوة .

الفصل الخامس

ان شيوخ العشائر في تلك المناطق هم كما يتصورهم الغربيون الى حد كبير ... رجال يميلون الى ان يظهروا اقوياء اشداء ويرتدون الملابس الفضفاضة - وغالبا ما تطرزها اشربة من الذهب - فوق اجسامهم ورؤوسهم . ولأنهم يقضون معظم اوقاتهم متربعين على الارض لذا اصبحت ارجلهم صغيرة وقصيرة بالنسبة لأجسامهم . وقد اعتادوا ان تقبل ايديهم في شيء غير قليل من التذلل والخضوع . والشيوخ يرسمون خطط شؤونهم بأنفسهم وتلوح امارات الاستبداد والظلم على محيا بعضهم الا ان وجوه البعض الاخر تطفح بالرحمة والبشر . وعدد قليل منهم يظهر بليدا شريرا . وعلى الغالب يلوحون وانفة مركزهم تسيطر عليهم .

والشيوخ يحكون مناطق كبيرة او صغيرة من الارض وقد تكون ارضا خصبة تتبع نظام ري معقد ، او تكون منطقة من الاهوار الدائمة لا يمكن اصلاحها الا بصرف ملايين الدنانير من واردات النفط . وكلمة (شيخ) تعني اكثر من سيد او صاحب ارض ، لأنها كلمة تتوارث وتحمل معها معنى المسؤولية والمركز الكبير في المجتمع . والحقيقة ان جميع اراضي العراق تعود الى الحكومة ولكن الشيوخ يسيطرون على اراضيهم بواسطة نوع من الايجار يدفعونه للحكومة . ويكونون مسؤولين عن ادارة وسلامة القرويين التابعين لهم .

كانت العشائر قبل الحرب العالمية الاولى ضمن الامبراطورية العثمانية في ثورات واضطرابات دائمة فيما بينها يشجعها الاتراك لكي يجعلوا العشائر في حالة من الضعف

لا تقوى فيها على القيام بثورة مشتركة ضدهم . وقاربت هذه المنازعات نهايتها خلال فترة الحكم البريطاني . ومركز الشيوخ الوراثي كقواد للعشائر في حالة الحرب يتناقض وتطور الزمن ، وحتى وجودهم ما هو الا مرحلة عابرة ليس لها غير الزوال . والماء هو المشكلة الرئيسية هناك وتوزيعه توزيعاً عادلاً كفيلاً بحفظ الامن بين الشيوخ . وعندما يكون احدهم مسؤولاً عن ارض في عهده فإنه يود ان يرى فلاحيه يحصلون على المياه الكافية لسقي محاصيلهم في الوقت المناسب ، وكل شيخ يعرف هو و (سركاله) حقيقة المشكلة ، وكيف ومتى تأخذ كل منطقة دورها في الارواء . وقد يكون احد موظفي الحكومة مسؤولاً عن المياه والسيطرة عليها وتصريفها الا ان هذا الشخص المسؤول عن توزيع المياه ليس له من دافع لأن يرى كل مزارع يحصل على ما يحتاجه من الماء ما لم يحصل هو على شيء يلائم جيبه ، ولذلك يكون من السهل ان يتقبل الرشوة التي بواسطتها يستطيع كل من يدفع اكثر ان يحصل على ما يحتاجه لارواء ارضه . ويتطلب حفظ المياه بناء سدود كبيرة ضخمة وهذا عمل خطير معقد يقوم به الفلاحون ، ولا يمكنهم القيام به بالتعاون فيما بينهم لو لا اوامر الاقطاع الصارمة الصادرة اليهم من قبل الشيخ . وتأخذ الحكومة حسب سياستها الحالية نصف الارض من الشيخ وتوزيعها بين المزارعين الذين سيتعاونون حينئذ فيما بينهم للحصول على الماء الذي لولاها لجفت ارضهم وماتت ، ويعني ذلك بالتالي هلاك عوائلهم .

وقد ادرك فاتحو تلك الاراضي السهلة لنهري دجلة والفرات منذ البداية ان الماء الوفير هو دم الحياة الذي يتوقف الوجود كله عليه . ولكنهم لم يركزوا اهتمامهم في القنوات والانهار الرئيسية وانما تركوا المياه تنساب في غير ما فائدة ، في حين راحوا يقتلون أو يبعدون وكلاء الاراضي الذين عرفوا جيداً بحكم تجاربهم ان يجب ان تذهب المياه وتوزع لتستمر الحياة . وتوجد اليوم مساحات شاسعة ظلت صحراء قفراً منذ عهد الفاتحين الاوائل ، اما الناس الذين كانوا يسكنونها فقد هربوا خوفاً ورعباً من الجفاف في هذه الاراضي السهلة ، دون ان تبقى ثمة اسطورة تحكي فرارهم هذا .

والعدد الاكبر من الشيوخ لا يقوم اليوم بإنجاز مسؤولياته الوراثية ، وخاصة اولئك الذين احتكوا منهم بالثقافة الغربية التي بدأت ، كشيء حتمي ، تقتحم عليهم عالمهم الخاص . وربما كان مثل هذا النوع من الشيوخ يمتلك ارضا تسقى بالمضخات ، وقد علمه الاوروبيون عاداتهم فصار مقامراً . وهو لا يستطيع المراهنة بأرضه التابعة للحكومة ، لذا يلجأ الى المراهنة بأشياء ارضه المنقولة العائدة له كمكثن الضخ مثلا . وهكذا يأتي الشخص الرابع ليأخذ المضخات وحينئذ تستحيل الارض الى صحراء مجذبة ، ويهاجر الفلاحون ويمضي الزمن ويغطي غباره المتراكم على الايام وليس ثمة ذكر او سؤال الى ابن انتقلوا وأبن صاروا . وتأتي حكومة غاضبة فتتدخل في الامر لتأخذ الارض من الشيخ المفلس وتعطيها الى تاجر كبير واسع الثراء . ويأتي هذا بمضخات جديدة مرة اخرى ، ويأتي بمازرعين جدد يعملون في الارض ، ويقوم عداء مستحکم بين التاجر والشيخ المطرود الذي يحتاج مدعياً ان ارضه قد اغتصبت منه . وتقوم حرب اهلية بينها وحينئذ على السلطة ان تتدخل ثانية .

ولا يعيش غير عدد ضئيل جداً من الشيوخ ، ان وجد ، في الاهوار الدائمة مع ان سلطتهم تمتد لتشمل كل فرد من المعدان ، وانما تراهم يسكنون الضفاف اليابسة من الانهار أو ضفاف الاهوار حيث يشيدون لهم قلاعاً حجرية معدة للقتال بحرسها زنوج افريقيون حصلوا على مر الاجيال على مساواتهم وعلى حريتهم الدينية . وينشأ اطفال هؤلاء الزنوج يشاركون اطفال الشيخ ولعبهم . ولذلك لا ترى غير القليل منهم ، ان وجد ، يرغب في ترك خدمة اسياده ، وهم يتمتعون بالحماية ويعيشون في حال افضل بكثير من رجال العشائر انفسهم . ويوجد صنف آخر من الشيوخ يعيشون في قلب الاهوار الحقيقية ومركزهم جاء عن سمعة وشهرة مرموقة وليس عن غنى او ثراء متوارث . وهؤلاء عادة لا يملكون ارضا أو مالا وهم أو آباؤهم قد اختارهم رجال الاهوار كحكام لاتقن لفض المنازعات التي تحدث بينهم من قتل أو نأر وحتى لابداء رأيهم في ابسط القضايا العارضة .

وقلاع الشيوخ ذات نمط واحد ، وقد رأيت عدداً كبيراً منها فكانت خربة

من الداخل . وكل قلعة تحتوي على غرفة استقبال اوروبية المظهر انشئت اثناء الاحتلال الانكليزي ، ولا تستعمل إلا عند استقبال موظفي الحكومة . وهي طويلة ضيقة رصفت بمحاذاة جدرانها وبصورة متقاربة بكراسي وثيرة من انتاج البصرة وبغداد . والغرفة عادة تمتلىء بالغبار وجدرانها مهترئة ويتدلى من سقفها مصباح كهربائي كئيب . وقد كنا خلال رحلتنا نستقبل عادة في هذه الغرف ، ولما لم يتيسر لي دخول بقية الحجرات الاخرى الخاصة للسكنى من القلاع فقد بقيت احل عنها فكرة للخراب ، ولكنه خراب يحمل في حناياه احلى معاني الكرم . ولكل شيخ او شخص مرموق مضيف مبني من القصب يقوم قرب قلعته ويمكن للغرباء ان يجلّوا فيه ضيوفا معززين ، وفي منتصف المسافة بين القلعة والمضيف تقوم (الصريفة) وهي شكل مستطيل مبني بالقصب خصص لاستقبال ضيوف أقل عدداً واكثر صداقة ومعرفة .

وكل عائلة من الشيوخ تقريبا ترتبط مع عوائل الشيوخ الآخرين بروابط المصاهرة كما هو الحال مع عوائل دوقات انكلترا ، ولذلك وجدت ، بعد نزولنا مساء اليوم في مضيف - عبدالنبي بن دخيل - احد اعضاء امرة معروفة ، ان معظم المضيفات التي زرتها فيما بعد كانت لأعمامه واولاده واجداده واولاد اخوته ، وهؤلاء فروع لشجرة كبيرة من الانساب لا يمكن استيعابها الا بعد تشذيب فروغها . وغادرنا - الرفيعة - خلال قنوات ري ضيقة يحف بها النخيل وحقول الرز من الجانبين ، وتغرد فيها بزهو واعتداد طيور جميلة تحت سماء غائمة . وبمقارنة هذا المنظر مع منظر الطيور الزاهية في اعماق الاهوار فإن الاول يظهر وكأنه منظر اوروبي يثير الملل . ودخلنا قنوات اكبر يبلغ عرضها خمسين ياردة تقريبا وماؤها شاحب يزخرف الصفصاف و« الطّرفه » ضفافه وتتناثر على شطآنه اكواخ المعدان دون انتظام او ترتيب ، والكلاب الوحشية تعوي بينها بشراسة وغضب مما اضطر ملاحينا الى الابتعاد بالطراة عنها .

وابتدأت السحب تتفشع عندما اخذت الشمس تتحدر وراء الافق ، ولاح المضيف معتماً تحت سماء اختلط فيها اللون القرمزي بالاسود .

وتناثرت هنا وهناك بعض قزعات من الغيوم ولاحت معتمة .. كالمضيف نفسه ، كالارض الممتدة على البعد ، كتلك النخلة الوحيدة التي طغنت الافق الاصفر من بعيد .. قزعات سود مظلمة كمقدمة الطرادة العالية تمزق الابعاد الصفراء التي تنحدر هي على صفحاتها . ولم ار في اية بقعة من بقاع العالم اطياف الغروب غريبة تتلعب بالسحر والجمال كتلك الاطياف التي تلمع كل مساء ببريق أخاذ فوق سهول دجلة والفرات . وتلوح لي في تلك الالوان فوق الارض الزراعية عند الغروب اكثر جمالاً وروعة على العكس منها في النهار حيث سطح الارض واكواخ القصب تظهر بالوان مية شاحبة . وأطياف الغروب هنا تختلف عنها في الشمال حيث انها ليست متنافرة الالوان شاحبها بحيث تنفر منها العين .

ومع ان غروب كل يوم فوق تلك السهول يختلف عن غروب اليوم السابق ولا يمكن ان تتكرر فيه نفس الالوان الا انه يكون عادة تدريجياً ، حيث ترى الشمس في البداية منخفضة شديدة الضياء ، والاكواخ والاشخاص على ضفاف الانهار يصطبغون بلون برتقالي امام افق شرقي بنفسجي اللوث داخن . وفي الجو تحلق اسراب (نعيم الماي) فتنعكس اشعة الشمس على صدورها من الاسفل لتبدو وكأنها دروع من البرونز . ويحذف فوق ذلك كله ليل ازرق شاحب تتناثر فيه النجوم البراقة . وتنحدر الشمس وراء الافق فجأة فتتراى آثار رحيلها يصبغها لون برتقالي يختلط بلون اخضر ثم بلون ازرق داكن ويتحول اللوث الأصفر تدريجياً الى لون احمر . ويبدو الافق البعيد معتماً والنجوم تتألق لامعة فوق الرؤوس . وحينئذ لا يقلق صمت الماء الشاحب غير المشاحيف المناسبة بمقدماتها العالية تمزق الآفاق البعيدة .

انه ضوء اللحظات الاخيرة الساحر الواهن الذي طالعنا من بعيد قبل ان نصل مضيف عبدالنبي . ثم تلاشى كل ضوء من الارض وحجب المضيف من امامنا ضوء الافق البعيد الذي انعكس عليه فلاح هيكلاً مقوساً اصفر كالذهب .

✧ ✧ ✧

كان - عبدالنبي - قد خلف والده - دخيل - اثر حادث امتدت مأساته

وملابساته فترة طويلة بعد حدوثه كما هو الحال عند كل موت مفاجيء غامض هناك . وكان دخيل والد عبدالنبي صديقاً حميماً لثيزيجر الذي زاره في مضيفه عدة مرات حتى عرض عليه دخيل اخيراً ان يزوره في القلعة وان يقضي ليااليه فيها بدلاً من المضيف ، وفوق ذلك كله ان يعتبر نفسه احد افراد العائلة . وفي صباح الليلة الاولى التي قضاها ثيزيجر في القلعة اقترح دخيل ان يقضوا يومهم ذاك بصيد البط في الاهوار مع عدد من الضيوف الآخرين بينهم شخص يدعى - عبود - وهو ابن اخ دخيل وفي الوقت نفسه زوج ابنته . وفي طريقهم الى الصيد لاحظ ثيزيجر حوالي احدى عشرة خرطوشة تحمل علامة LG ولما لم يلاحظ هذا النوع من الخراطيش هناك من قبل فقد سأل دخيل عنها فأجابه انها اطلاقات لصيد البط ، ولكن ثيزيجر اخذه الشك في الأمر وفتح واحدة فتدحرجت في يده ست قطعات ثقيلة من الرصاص ، ولم يحتمل ان قال : « لا بد ان شخصاً ما اعدت هذه الاطلاقات لقتله . فهي لا تستخدم إلا لصيد حيوانات كبيرة كالخنازير مثلاً ، وانه شيء مرعب ان تستخدم لصيد كهذا » . ولكن دخيل ظهر غير متنبه لهذه الملاحظة وانما كان تفكيره يسرح بعيداً في اشياء اخرى .

وتفرقت الجماعة بين القصب وفي كل مشحوف صغير بندقية مع فرد واحد يقوده وغاب كل منهم عن الآخر . وأخذ عدد من البط يتطاير من حولنا وسرعان ما دوت الاطلاقات في الجو بغير انتظام . وسمع ثيزيجر مرّة صوتاً مدوياً غريباً ينطلق من احدى البنادق ، فأشار لمن معه : « يوجد واحد من جماعتنا الآن يطلق بصورة خطيرة » .

وعند الظهر انطلقت رصاصة غير بعيد عن ثيزيجر وفجأة سمع دخيل يصرخ : « قتلتني !.. قتلتني !! » وظهر ابن اخيه عبود في جنون ورعب من وراء قصب كثيف يبعد سبعين ياردة عن ثيزيجر وهو يصرخ بأنه لا يدري بعينه هناك . ولم ينتظر ليرى هل قتل عمه ام لا وانما اطبق الخوف على مشاعره فهرب خلال القصب وهو يلجّ على الصبي الذي يقود مشحوفه ان يحذف بسرعة .

وفي مثل تلك الحال يبدأ النار عند العشائر . فالقتل يجب ان يؤخذ بمنه وان

كان غير متعمد ، و اذا لم يكن من القاتل نفسه فبذكر من اقاربه ، وهذا بدوره
برجل من عائلة القاتل الاخير . وهكذا يستمر هذا اللغو الذي لا يستند على ذرة
من العقل مطلقاً الى ان يسوّى الامر بدية من النساء . والقاتل في الاحوار
لا يعاقب بمثل الشدة التي يعاقب بها في المدن ، وتخفف العقوبة كثيراً اذا كانت
الجريمة ارتكبت في فورة من الغضب كأن تكون قد ارتكبت بعد عدد من
الساعات معينة من القتل الذي اخذ بثأره .

وفي نظر هؤلاء القرويين ليس لعبود في مشكلته غير طريق عشائري واحد
يمكنه ان يسلكه ليتخلص مما جنت يده وهو ان يأخذ والده الى محسن والد دخيل
- وهو شيخ قوي معروف وأحد الشخصيات الكبيرة هناك - ويقول له : « هذا
ولدي تحت رحمتك . لقد قتل ابنك غير متعمد فاقتله مقابل ذلك ان شئت . ويقال
ان ذلك يستدر رحمة وعطفه على القاتل » .

واقترح ثيزيخر من مشحوف دخيل بعد دقائق معدودات من اصابته فوجده
منهاراً والملاح يحاول باعجاب ان يحفظ توازن المشحوف في المياه . كانت دخيل
غائباً عن الوعي والدم يبلل قميصه من جهة صدره اليسرى وعندما رفع ثيزيخر
ثوبه وجد الاطلاقة وقد اخترقت حلقة ثديه الايسر .

واستعاد دخيل وعيه حين كانوا يحملونه الى البيت فأرسل يطلب ابنه عبد النبي
على الفور ولكن هذا تأخر عن بقية الجماعة لأنه كان يسير حافياً في الأشواك على
ضفاف الاحوار . ولم يمكن ثمة وقت للانتظار لذلك فقد ترك دخيل الى ابنه وصية
يخبره فيها انه مهما يكن القاتل فعليهم اعادته الى ابيه دون ان يمس احد بسوء .

وفي القلعة ثار جدل عنيف حول ارسال دخيل حالاً لمعالجته بيد ابن الرجل
اصبح واهناً والأمل فيه ضعيف . واخيراً ارسلت طائرة خاصة لنقله من مدينة
العمارة الى بغداد ولكنها لم تصل الا بعد ست وعشرين ساعة من اختراق الرصاصة
صدره .

وفي ذلك الحين هرب عبود المرتعب الى والده الذي سلم ابنه الى السلطات

الحكومية بدلاً من أن يذهب وإياه إلى الوالد القليل ويضعانفسهما تحت رحمته ، وبذلك يكون قد تحدى التقاليد والمثل العشائرية القائمة واثار الحقد والكراهية ضده .
واتبع والد عبود الطرق الرسمية في القضية فوكل المحامين عن ولده واخيراً حكم على عبود بالسجن لمدة ثلاث سنوات وهي المدة الاعتيادية للحكم في قضايا القتل العشائرية . (١)

ولكن محسن كان يصر ان يأخذ بنأر ابنه .وفوق ذلك كله فقد قتل رجل آخر من ابنائه تحت ظروف غامضة ولم يكن محسن يحمل لابنه ووريثه الوحيد الباقي حباً أو إعجاباً كافياً لذلك راح يندب ابنه دخيل قائلاً : « آه يا ولدي ... لم يبق لدي احد يستحق ان يحمل اسمي بعدك » . واخذ محسن ينتظر خروج عبود من السجن لينتقم منه .

واخيراً خرج عبود من السجن فأرسل إليه حالا يهدده بالقتل ان هو عاد إلى المنطقة ثانية . فرجع عبود خائفاً إلى الحكومة التي ارسلته إلى الاوار مرة اخرى قاطعة له عهداً بحمايته . ولكن محسن أثار رجال العشائر فأغرقوا مشحوف عبود قبل ان يصل إلى ارضه ونجح هو في الهرب والتجأ مرة اخرى إلى السلطات الحكومية لحمايته .

ونفى محسن التهمة عنه مدعياً انه لا علم له بما قام به العشائر ضد عبود . ولكن الحكومة سجنّت ابنه مدة غير قليلة وسبب لهم هذا شيئاً من الخجل والفضيحة . وفي ذلك الحين اعيد عبود ليعيش قرب مركز للشرطة بلا مزارعين يتبعونه وبلا ارض يقوم بزراعتها ليحني ثمارها . وتم تهديد اصحاب المشاحيف والتجار المتجولين بعدم التعامل مع عبود فامتنعوا عن ذلك مباشرة بعد وصول التهديدات لهم . وبعد هذا كله لا اتصور احدى شركات التأمين في العالم كله لها من الجرأة بحيث تجازف بالتأمين على حياة ... عبود !

(١) النفي قانون العشائر بعد ثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ . المترجم

يلاحظ الزائر ان الجو تحت اقواس مضيف الشيخ المعتمة يختلف عنه في اي كوخ من القرية . وكلما تقدمت ساعات النهار كلما امتلأ المضيف بالرجال ولكن معظمهم من الرجال الكبار السن ومن المرموقين في القرية الذين سرعان ما يجلسون متربعين في صمت وهدوء . وحين يتحدثون يكون ذلك برزانة وحرصانة وتتصاعد طقطقات مسبحاتهم من بين اصابعهم وكأنها اصوات دجاج في حقل زراعي . وتتصاعد معها سحب دخان ازرق كبخور الكهنة من (المطال) المشتعل في موقد القهوة لتحيل قصب وبواري السقف الى لون اسود كلون خشب الماهوكني اللامع الشمين .

وخرج الناس من المضيف في الليل مبكرين فلا يمكن ان يقوموا بالرقص او الغناء في مثل هذا المكان الذي يتسم بالوقار والاحترام . وحين اضطجعنا لننام اخذت جموع الحفاش تطير فوق رؤوسنا بين اقواس المضيف المعتمة وهي تلقي ظلالا كبيرة على اعالي تلك الاقواس . وينعكس ضوء (لوكس) قرب الباب على اربعة وجوه لأربعة عبيد سود اقتعدوا حول النار واسلحتهم حول ارجلهم ، وظلالهم ترتسم ضخمة على الجدران فوق رؤوسهم .

☆☆☆

وتناولنا طعام الغداء في اليوم التالي في قلعة شقيق محسن وكان طبيعياً في مثل ذلك الحقد والعداء بينها ان تجدهما لا يتكلمان مع بعضها حتى قيل انها يتبادلان الشتائم والسباب عبر النهر .

وقد تميز ذلك اليوم بحادث ساخر مؤلم وقع لي ، حيث كنت قد احضرت معي من انكلترا بندقية لصيد الاسماك بالسهم وهي من النوع الذي يستخدمه المصطافون على شواطئ البحر الابيض المتوسط . ولم تكن البندقية تعود لي ولم استعملها قط وحتى صاحبها الاصلي لم يستخدمها ابداً . وكان قد حدثني مرة فأنك انه اكتشف تحت ظروف خاصة مخجلة عجزه عن استخدامها في وقت كان فيه هذا النوع من السلاح جديداً على الناس .

كان صاحبي مضطجماً مرة على رمال شاطئ ايطالي ويحانبه تلك البندقية عندما اقترب منه جماعة الايطاليين وسألوه عنها ، ثم تفحصوها برغبة واعجاب ، وتساءلوا هل من الممكن حقاً صيد السمك بسهام تطلقها هذه البندقية فأكد لهم صاحبي ذلك بفخر واعتزاز . وذكروا له ان استعمالها لا بد يتطلب مهارة كبيرة فازداد الرجل تيباً ، ورغبوا اليه في استعمالها بكلمات من الاعجاب والمراوغة وسألوه بهيبة ووجل عن كيفية تعبتتها بالسهام .

وكان يعرف ذلك نظرياً إلا انه لم يجربه عملياً . وكانت عند فوهة البندقية عقدتان من المطاط في سمك الاصبع ويجب سحبها بقوة كبيرة حتى يثبتها عند شقين في نهاية انبوب الاطلاق . ولم يتصور صاحبي انه سيلقي كبير صعوبة في ذلك وبسرعة تناول البندقية منهم .

وتحت نظرات الايطاليين المندهشة الساخرة جاهد صاحبي في سحب احدى العقدتين إلا انه لم يتمكن من سحبها الى اكثر من نصف المسافة عن الشق . واخذته الحيرة ولفته الخجل فراح ينضح بعرق العار والخجل ورفع رأسه بعد عدة دقائق ونظراته تضج بحيرة لاهبة وانفاسه مضطربة ليقول لهم انه في الحقيقة اخطأ وان هذه البندقية لا تستخدم لصيد الاسماك واعادها الى انكلترا لكي لا تثير في نفسه ذكريات خيبته وفشله ... وهناك حصلت عليها .

وكنا في قلعة جابر قرب النهر حين فكرت في تجربتها لأثبت لنفسي اني اكثر كفاءة من صاحبها نفسه . وقبل استخدامها اوضحت للمشاهدين اني لم اجرها ولا مرة واحدة من قبل . وبسبب العقدتين من المطاط في طرفها اطلق عليها ملاحونا اسم - ام الكرون - (وبنفس الطريقة يسمون بيتاً معيناً : ابو البرغوث . ويشيرون الى شيخ كريم يضع عند باب مضيئه ضوءاً يدعوا الغرباء لاستضافته في اي من ساعات الليل الطويل ، يشيرون الى هذا الشيخ : ابو الضوء) ولم يكونوا اقل رغبة مني في رؤية ما يمكن ان تعمله (الكرون) هذه .

وجلست على ضفة النهر وضغطت البندقية الى بطني وحاولت سحب العقدتين بقوة حتى شعرت بالألم في مفاصلي وامعائي ونجحت اخيراً في ان اضع احدهما في

مكانها بأنفاس لاهثة وأتبعها بالثانية وثبت مسمار الأمان في مكانه .

ولم يطق حسن صبراً فأحضر عدداً من (المطال) كهدف لي ووجدت نفسي في أتم استعداد للاطلاق ، ورمى واحدة من الاقراص في الماء الاصفر العكر على مسافة عشرين قدماً عني ثم جرفها التيار باتجاهي . وحركت مسمار الامان وسددت البندقية نحو الهدف بعذر وأخصها على بعد انشين من وجهي وسحبت الزناد .

وفي لحظة شعرت بشيء يدق على جسر انفي بشدة وعنف فانقلبت على ظهري وحين نهضت اوتوماتيكياً باعياء وجدت قيصي مبللاً بالدماء النازفة من انفي بغزارة . واخذت اقتش في جيبي عن منديل لأمسح الدم وما تحسست انفي حتى فوجئت بعظامه تطقق في الداخل فتحدث صوتاً يشبه طقطقات مكعبات الزار . ولاح ثيزيجر متأثراً لاصابتي بيد انه لم يتالك نفسه من الانفجار ضحكاً والدموع تنفر من عينيه كالدماء المتدفقة من انفي .

وفي تلك اللحظة راح احد العبيد ، وقد هزته حالتي ، يطلق صيحات عطف وخوف لحالي وصرخ بانفعال قائلاً انه سيذهب للمضيف لاحضار دواء يوقف به نزيف الدم من انفي . واوضح له ثيزيجر انه سيحضر بنفسه دواء لي من صندوق الادوية الذي لا يبعد عنا غير بضعة اقدم ، الا ان ذلك لم يقف دون رغبة العبد البريئة لاحضار الدواء من القلعة . وعاد بعد قليل وهو يلهث ويترنح من التعب والقى بين يدي قنينة دواء قرأت كتابتها بالانكليزية فأدركت انه يستعمل لعسر الهضم ، وهزتي أنا وثيزيجر منظر العبد وحاسه ليوقف دمي النازف بدواء عسر الهضم فلم اتمالك ان غرقت في موجة من الضحك شددت عليها اكنمها براحة يدي ولكن دون جدوى ، ووجدتني وقد افلتت من يدي زمام السيطرة على نفسي وانطلقت في ضحك وقهقهة عالية حتى ظن العبد انه حدث لاعصابي شيء بسبب ضربة البندقية العنيفة .

وعندما توقف النزيف من انفي ونظفت قيصي من الدماء حاولت استخدام البندقية ثانية . وفي هذا الوقت وضعتها بعيداً عن وجهي واطلقتها وكانت من الشدة بحيث شعرت بالام حادة في عضلاتي المتوترة . وهنا ادركت لماذا تحطم

أنفي وأحسست بها وقد سلخ الخط المتحرك الذي يربط السهم الى البندقية انشأ من جلد اصبعي . ولم يكن امامي الا ان اعيد هذه البندقية المرعبة الى الطرادة ولم يجد معي دواء عسر الهضم الذي قدمه لي العبد ثانية لأوقف به الدم النازف ولكن . . من اصبعي في هذه المرة .

وغادرتنا مضيف جابر عند العصر لزيارة جده محسن ، ولكننا عندما وصلنا إلى قلعتنا وجدناه يستعد للركوب في زورق بخاري لزيارة ابنه علي . فتركنا الطرادة مع الملاحين وصعدنا معه وشق الزورق طريقه بين القرى المزدهمة البرتقالية اللون تحت طيف الغروب اللامع .

وعندما وصلنا إلى المضيف كانت الشمس تنحدر وراء الافق لترسم اطياف الغروب الساحرة هناك . وكان المضيف يميل بزواوية حادة لأف اسسه قد تأثرت بالفيضانات قبل ثلاث سنوات . وقد وضع علي تصاميم لبنائه مجدداً في العام السابق غير ان قلة القصب في ذلك الوقت حالت دون ذلك . وقيل ان عاصفة لا مثيل لها هبت على المنطقة فتسببت في قتل عدد كبير من الناس ، واهلكت الطيور وهشمت قصب الاهوار فألقته محطماً على صفحة الماء كغلة انكليزية ملقاة على الارض في نهاية صيف انكليزي رطب عاصف .

ونقل العبيد عدة مقاعد ضخمة من غرفة الاستقبال في القلعة الى المضيف . وجلس محسن على احدها قرب المدخل يجسده الضخم المهيب وراح يدخن باستمرار . ولاح لي انه بشاربه الكث ولحيته البيضاء الكثيفة اشبه ما يكون يتشارلز لوفتون *Charles Laughton* . وكان كل رجل يقبل يده قبل ان يدخل المضيف ، وفي كل لحظة كان البعض يهمس في اذنه اشياء خاصة . وظهر في جلسته تلك ممتلىء الجسم الى حد كبير بيد انه يبدو بارعاً في الظهور بالمظهر اللائق بمكاته الرفيعة . وتجاهل نوافضات السجائر طول الوقت وراح يرمي باعقاب سجائره على البواري دون ان يظفنها . وكان طعام الغداء فخماً متعدد الالوان ولكن محسن جلس في ركن خاص يتناول من سمكة كبيرة .

وبالرغم من عادانه تلك فإنه يعطيك انطباعاً واضحاً عن قوته وذكائه ولياقته للمركز الذي يحتله كأحد الشخصيات البارزة في جنوب العراق . وخلال مساء ذلك اليوم كان سر كاله يجلس قريباً منه قميناً تلوح على وجهه علامات الدهاء والحبث مختلطة بآثار الجدري ، ويضع على ركبتيه دفترأ كبيراً يدون فيه بين الحين والآخر اشياء كالارقام الحسابية . واخذ محسن يتحدث مع ثيزيجر باهتمام وود بالغ ولم يتمكن من معرفة ما يدور بينها بصورة واضحة وتراوى لي انها يتحدثان عن امور خطيرة . وفجأة ظهر ثيزيجر في حيرة والتفت يسألني : « كافن ... كم طول حديقة سانت جيمس ؟ » واخيراً سألني : « ما هي الكلمة التي تستعملها في الانكليزية للشخص الذي يقضي صباحه نائماً في الفراش ؟ » فاجبته *Slugard* . وسرعان ما امر الشيخ محسن سر كاله ان يسجل هذه الكلمة في دفتر الحسابات .

اما علي بن محسن فقد لاح مختلفاً عن ابيه الشيخ ، فوجهه ترسم عليه علائم الغطرسة والكبرياء وملاحه توحى بالشر . فعندما اخبر ثيزيجر مرة احد ملاحيه ان يشد الطرادة قرب القلعة الصخرية ، وجه علي او امره ان يضرب ملاحنا هذا ويلقى في النهر . ويمتلك علي صندوقاً كبيراً مملوءاً بالمسامير والاشواك الحادة يوضع عليها ويضرب كل من يثيره ويقلق راحته .

ولعلي صريفة انشأها الى جوار المضيف ، وفي هذه الصريفة قضينا ليلتنا تلك وقد نمنا على فراش جلب الينا من القلعة . وقد اخذتني فرحة غامرة اولاً لاني تمكنت من الجلوس بعد ذلك العناء على مقعد وثير ، وثانياً لاني استطعت ان استلقي على فراش ، ولكن فرحي كان اقل للظاهرة الغربية الثالثة التي يحترقها معظم الشيوخ واعني المراحيض .

فخارج المدن لا احد ، فيما عدا الشيوخ ، يفكر بامتلاك المراحيض في بيته . ففي الاوار يأخذ المرء قارباً ويذهب به صوب القصب الكثيف ، ويحيط نفسه على جانب الزورق المتأرجح ، اما اذا كان في اليابسة فليس لديه إلا ان يتعد عن الاكواخ قليلاً . (واذا كان لدى المرء خادم فإنه يقول له : « اريد ابريج » ومعناها اريد ماء اغتسل به . ثم يأخذ طريقه الى الخارج حاملاً اناه من الماء) .

ومها يكن من امر فهالك عدد من الشيوخ يمتلك مراحيض وعملها ليس هو قضاء الحاجة وانما للخفضة فحسب . وتكون المراحيض عادة على ضفة النهر ، وتتكون من اربعة اعمدة يحيطها ستار من القصب والبواري تستر عن الانظار خندقاً مجوفاً محفوراً في الارض . ويستطيع المرء ان يستنتج بأن هذه الخنادق تصب ما فيها في النهر . وفي مثل ذلك الجو الجاف والشمس الساطعة يشكل مليون من الذباب غيمة فوق تلك المراحيض ، اما في الجو الرطب شتاء فمن الافضل ان نترك المنظر للمرء يتصوره .



الفصل السادس

وقنا في صباح اليوم التالي بسفرة قصيرة الى قرية - الصحين - ومررنا في طريقنا بمجموع الجاموس تقوده المشاحيف امامها الى الشمال .. الى قرية - ابو نعيجة - ويحث الجاموس على السير وسط المياه بإسماعه اصواتاً عالية متعاقبة كأصوات وز وحشي . وقد كانت العاصفة ، التي سبق ان ذكرت شيئاً عنها ، مسؤولة ليس عن تدمير القصب وعرقلة علي عن بناء مضيفه فحسب وانما عن اكبر من هذا وخطر الا وهو القصب عماد اقتصاد سكان الاهوار . فقد قضت هذه العاصفة على البردي والقصب فانهارت الحالة المعاشية الواطئة لعدد كبير منهم فاضطروا إلى بيع جاموسهم في سوق ابو نعيجه .

وقرية - الصحين - عبارة عن مجموعة جزر مزدحمة بالاكوخ وتحتل بعضها جزراً قائمة بذاتها ، وتقطعها مسالك مائية كبيرة وصغيرة تلتقي مع بعضها البعض بزوايا قائمة كما تلتقي الشوارع في المدن . وانتصبت في وسط القرية قلعة صخرية صغيرة اقتحمها - دخيل - قبل اربع سنوات عندما اوشك الفلاحون على القيام بثورة ضد ابيه . وكانت القرية ما تزال محصنة واقواه البنادق تمتد من منافذها العليا بمعدنها الاسود . وقد كان فلاحو قرية اخرى قد ثاروا ايضاً قبل مدة قليلة على شيخهم . وعندما تغلبوا على حاميته انتصرت الحكومة لهم واكدت استقلالهم ومن السهل على المرء ان يلاحظ ان اي حل معقول يمكن ان تقوم به الحكومة لمشكلة معينة قد يقود الى مشاكل اخرى .

وفي مثل هذا الوضع الذي يظهر فيه السكان كما لو انهم في حالة من حرب دائمة كان شيئاً مدهشاً ان نجد - الصحين - ... القرية الاولى التي تزورها ونجد اطفالها يذهبون الى المدرسة ولذلك تراهم يتكلمون بعض جل انكليزية رغم انهم لا يدركون معانيها . ودراسة اللغة الانكليزية اجبارية في المدارس العراقية ، وتدرس بالطريقة المباشرة *The Direct Method* التي اوضحها دزموند ستيوارت وجون هايлок *John Haylock* في كتاب - بايل الجديدة - والتلاميذ يتلقون تعليمهم للانكليزية ، كما اكتشفت فيما بعد ، بواسطة معلمين عراقيين يعجزون هم أنفسهم عن الاستمرار بأبسط محادثة بلغة غير لغتهم الاصلية ، فيما عدا عدة جل تعلموها كالبيغاوات ليرددوها امام التلاميذ بصوت عال من كتب بسيطة في تعليم المبتدئين على الانكليزية .

ارسلت بعد ظهر ذلك اليوم لأقوم بعملية الاعتيادي الحديث ، الذي لم يستقر بعد ، ألا وهو صيد الخضيري ودجاج الماء لوجبة العشاء . وأصر الغلام الذي كان يقود مشحوفي ان يجرب لغته الانكليزية وربما اراد التفوق على معلمه في تقليد قواعد أو لهجة رجل انكليزي حقيقي .. وهو انا . وقد كان عجباً كثرة الكلمات التي استطاع ان ينطقها امامي في محاولاته تلك ، ولكن الاعجب من هذا كم كان ضئيلاً ما يفهمه من معانيها .. لا شيء في الحقيقة غير بضع مفردات بعد ترديدها مرات عديدة باستمرار .

- في الانكليزية ماذا يدعى هذا ؟

قال ذلك وهو يشير الى القارب واستطرد متعثراً : انك (لم) اجبت على سؤالي .. هل محرك مائي ؟

وبعد فترة شعر فيها بالحنج قال : « الآن صاحب (لم) يكن تيزيجر صديقك بعد الآن ، لأنه جداً يحب الاطلاقات » ثم قال : « هل صاحب تيزيجر يحب الاطلاقات الفارغة ايضاً ؟ » وبعد قليل عاد يسأل : لماذا العراقيون صفر والانكليز حمر ؟ اجب على سؤالي .. انك (لم) اجبت على سؤالي .. لماذا اصفر انا احمر انت ؟ » ولم يكن هو في الحقيقة اصفر ولكن وجهي اخذ يحمر بالفعل

كلما مرت الدقائق علينا ونحن في سيرنا في الهور .

واخيراً نجحت في صيد واحدة من طير الخضيرى ، وما وضع الشاب رأسه الطير الى جهة الكمية وراح يعمل سكينه في حنجرته حتى سألتني « في انكلترا الى اي جهة تذبجون ؟ واستطرد ، وقد نفذ صبره ، قائلاً بصوت عالٍ وهو يشير بأصابعه المرتبكة : المسلمون الى هذه الجهة .. الرأس الى مكة ، في انكلترا كيف ؟ .. » وتبادر الى خاطري كيف انني كنت اتكلم مع عربي في مراكش عندما مر بائع الماء بقربته المصنوعة من جلد شاة ، يسبقه رنين طاساته النحاسية التي تكلفك فلساً واحداً لتشرب منها ، فسألني العربي : « ما سعر طاسة الماء في لندن ؟ » .

☆☆☆

ورأيت في قرية - الصحين - هذه الليلة لأول مرة راقصين محترفين ، وكانا رجلاً وابنه البالغ من العمر اربع عشرة سنة . وقد استدعاهم مضيفنا ليرقصوا لنا بعد العشاء ، بيد ان الغلام القى تحيته وجلس ، ولم تجد معه اية وسيلة في اقناعه بالرقص . وكان شعره الذي تنحدر خصلاته على كتفيه قد قُصَّ قبل يومين بسبب دخوله المدرسة ، فارتدى على رأسه طاقية حمراء مرَّ عليها باصابعه بعصية حالما جلس متربماً ، وراح يحدق في الارض بنظرات شاردة . واخيراً ارتضى ان يضرب على الطبله لأبيه الذي قام يرقص بدلاً عنه ، وبرقت الدموع في عينيه عندما لمح أباه يشد اطراف كوفيته لكي تشبه شعراً طبيعياً متلاعباً ولكنها لم تصبح كثر من حبلين يتأرجحان مع عقدة صغيرة شدت في منتصف كل منهما .

ونالت الوصلة الراقصة العنيفة التي قدمها الاب اعجاباً مفروضاً فيه لهذا الراقص الماهر . ولكنني لم استطع طوال الوقت ان احول عيني عن الغلام ، فقد كانت عيناه مثبتتان في الكوفية التي تمثل شعر ابيه والتي اخذت تتأرجح بنمط موزون والمحدرت على خديه دموع صامتة لم يلحظها أحد وراحت يدها توقعان على الطبله يحنون وكأنها تتمتعان بحياة مستقلة ، أو كأنها مشدودتان الى قدمي ابيه المتلاعبتين

الراقصتين بحفة وليس الى ما يوجه اليه رأسه الذي فقد تاجه الرقيق من الشعر المتلوج . وللطبلة المصنوعة من جلد نعج الماي رنين يشابه رنين آلة موسيقية وتربية ، والطريف في الامر ان ايقاع الطبلة يمكنه ان يكون حزينا شجيا يضرب على اوتار القلوب ، كما يمكنه ان يكون هادراً دافقاً مشوشاً في ضربات سريعة كما هو الحال الان . وكانت يد الغلام تضرب عليها بسرعة وبانفعال ظاهر ولكنه لم يحرك عينيه ولا مرة عن العقدتين المتأرجحتين على رأسه حتى انزلت الطبلة فجأة من تحت يديه ، وعندما انحنى ليلتقطها لاحظته يسبح بسرعة دموعه المتناثرة بطرف شداشته وذكرني منظره هذا بشمشون المسكين بعد ان قُصَّ شعره وبقي في الطاحونة مع العبيد .

وتردد اسم - غضبان - كثيراً خلال الحديث حول الموقد في تلك الليلة وسألت تيزيبحر بعد فترة عن كون غضبان هذا فأجاب : « انه شخص خارج على القانون ... انها قصة غريبة تلك التي نسجت حوله » .

ففي نهاية الحرب العالمية الاولى رفض غضبان ، وكان ينتمي الى عائلة من قبيلة بني اسد ، الاستسلام للسلطات الانكليزية . وبنى له مكاناً حصيناً في احدى جزر الاهوار الطينية ، وتكلفت الهجمات الاولى ضده بالفشل ، واخيراً قام الانكليز بمتابعة القبح عليه بمساعدة بعض الاشخاص من العرب الذين يتميزون بالجرأة والشجاعة . فأرسلوا طائرة حربية تحوم فوق تحصيناته بينما نصب له الاعراب كميناً في طريق عودته من الجزيرة ، وقد وقع غضبان في الفخ وغطس قاربه في الماء واصيب هو واصابة بالغة في ساقه . وهرب خلال القصب وهو يحمل طفله بين ذراعيه وفتش عن ملجأ بين عشائر الرعي في الاراضي المختلفة قرب الحدود الايرانية .

وحاول - فالج - اخو غضبان ، بعد ما يقرب من الثلاثين سنة اي في عام ١٩٥٤ ان يلعب نفس الدور ولكن بنجاح اكبر . فتحصن بنفس الجزيرة التي هرب منها اخوه وراح يسرق وينهب المناطق المجاورة واخيراً ادركت الحكومة

تواياه واهدافه فنحنه ارضاً يجني ثمارها ويعيش فيها . وانتشرت في ذلك الوقت اشاعة مفادها ان - فالج - تصدّى لثيزيجر وجماعته وانه جرت بين الطرفين معركة حامية . وقيل ان ثيزيجر نفسه هرب بعد ان اصاب - فالج - ورجاله بأضرار بالغة ، واشيع كذلك ان عمارة وسيبتي قد قتلا ، ولذلك فعندما وصلا الى قريتهما سالين وجدا ان عائلتيهما كانتا تستعدان لاقامة الفاتحة على روجيهما .

وما سمع - غضبان - ، الذي قضى حياته بين قبائل الرعاة الى الشرق منفياً من الارض التي ظنّها ملكه ، بما قام به اخوه وباتفاقه الاخير مع الحكومة حتى تراهى له ان بإمكانه ان يفعل مثله ، لذا عاد الى الجزيرة التي لعبت الآث دوراً كبيراً في تاريخ عائلته . واليوم وبمصائبه المسلّحة راح يقتفي اثر اخيه في النهب والسلب . وفي الأسبوع الماضي سمعنا انه نجح في القبض على زورق في نهر الفرات محملاً بالتمر والبندق .

واخذت افكر عميقاً بهذه المشاكل التي لانهاية لها ، واكبرت هذه الحكومة الذكية على ما تقوم به لحلها . . وكيف ان حلاً عادلاً تقوم به لأحد المشاكل يمكن ان يحو وراءه مشكلة اخرى .

☆ ☆ ☆

وعندما غادرنا قرية الصحين غادرنا معا منطقة الاهوار الحقيقية واخذنا نسير في اراضٍ من حقول الرز نصف غارقة في المياه كاللقات *Storks* ومالك الحزين *Hérons* وأسراب هائلة من الطيور الخواضة تقف بينها النسور برهبة واعتداد ، والغريب في الامر هو ذلك التجاهل الذي تبديه بقية الطيور نحوها .

وفي ساعات متأخرة من اليوم التّالي وصلنا - ام كعيده - وهي قرية كبيرة تقع على ضفتي قناة واسعة معظم سكانها من (السادة) . وكانت علاقة ثيزيجر بهم ضعيفة لأنه وجدهم أناساً منعزلين لا يرتاحون لمراى (الكافر) بينهم ، غير انهم اخنوا يعاملوننا الآن معاملة تختلف تماماً عن ذي قبل ، حيث كانت سمعة ثيزيجر الحسنة تنتشر في الاهوار سنة بعد اخرى وقد وصلت الآن الى هذه القرية فكانت

الدعوات توجه إلنا من كلا الضفتين لتناول الطعام معهم .

وخلال سفرتنا الطويلة في مناطق الاموار كنت أثار كثيراً للكرم العربي الذي يتضاءل إلى جانبه الكرم الأوروبي حتى يصبح شيئاً جامداً فقط ، لأن على الغريب أن يبيء في دماغه سبباً واضحاً معقولاً قبل أن يجرأ على دق جرس باب بيت في أوربا والا فلا يمكنه الدخول ابداً . وإذا دخل الدار فيقدم له من الطعام ما لا يمكنه أن يسد به غائلة جوعه . أما في هذه المناطق ، حيث لا أبواب ولا أجراس ، فالغريب يدخل دون أن يسأل عن السبب في حضوره ابداً ، بل إن أي تأخير في تقديم الطعام للضيف يعتبر شيئاً مخجلاً للغاية .

وربما لم يكن للكرم الأوروبي على فظاظته والعربي على اسرافه في الحقيقة غير مظاهر منفصلة للرغبة في السيادة وإظهار القدرة والقوة ولكن الأول يعني شخصاً واحداً في حين يعني الآخر العشيرة أو الجنس كله .

وهبطنا في مضيف (سيد) معروف كان يضع على عينيه نظارة طبية وفوق رأسه عمامة بيضاء ، ومنذ اللحظة الأولى راح يعاملنا بأدب جم ولم يغادر المضيف المكان عند دخولنا كما فعل أولئك الذين التقينا بهم فيما بعد .

وكانت وجبة الطعام فاخرة سخية . وقد جلس بيننا صبي تعلم في مدارس - العماره - وأخذ يعمل يده في دجاجة إمامي يمزقها بين أصابعه وتمم بانكليزية محطمة وهو يناولني قطعة منها : « هنا .. أنا أأكلك ! » فقلت له : « اتعني أنك تطعمني ؟ .. » وراحت أصابعه تنبش في الدجاجة التي غطّاها المرق : « نعم ! .. » أخذ يرددها عدة مرات واستطرد قائلاً : « أنا أأكلك .. أنا يأكلك كبير جداً ! » وكان كالغلام الذي قاد مشحوفي في - الصححين - لم يدرك معنى كلمة واحدة من اللغة التي يتكلمها .

وقررنا مغادرة القرية بعد الظهر وشرنا أكثر من ربع ميل ضد مجرى النهر والاكوخ تحيطنا من الجانبين حتى نادى علينا احد (السّاده) أن نهبط ونشرب الشاي معه . واعتذر ثم يجر في البداية قائلاً أنه يوجد في منطقة بعيدة . من يتوقع

وصولنا عند المساء ، الا ان (السيد) اخذ يلح كثيراً . ولم تنته زيارتنا له عند شرب الشاي فحسب وانما قضينا ليلتنا تلك كلها معه . واطهر لنا كرما وادباً مفرطاً أثار انتباهي فظننته سيطلب منا شيئاً كمادة رجل الاوار قبل مصارحتك بما سيكلفك به . وبدأت الان ادرك شيئاً من اللغة العربية ، وغالباً ما كنت أفهم بعض المناقشات التي تنور . وبعد تبادل التحيات التقليدية وبعض الحديث سألت «السيد» تيزيجر عن سير عمله في التطبيب وعمّا اذا كان يحمل معه ادوية ، و اضاف قائلاً ان هناك بعض المرضى سيقدرون عنايته ويشكرونها ان هو قام بمعالجتهم .

وظهر فجأة اولئك المرضى المنتظرون بلمفة وكانوا حوالي اثني عشر غلاماً يرفعون دشايشهم بارتباك بعيداً عن اجسامهم . وكانت تلك المرة الاولى التي ارى فيها تأثير الجراحة المحلية واعراضها المرعبة ، وما رأيت ذلك المنظر حتى شعرت بان تيزيجر يستحق ان يكون معبوداً ثانياً عند سكان الاوار . وكانت قد اجريت هؤلاء الصبية عملية الحتان قبل حوالي ثلاثة اشهر على يد ختان متجول وكانت النتائج مما يحز في النفس ، فالمسحوق السحري العجيب قد أدى عمله بصورة لا يشكر عليها ، فأحدث التهابات حادة وتقيحاً كبيراً عندهم ، ولاح وكان من المستحيل شفاؤهم واندمال جروحهم . وقد عرض مضيفنا أمر تطبيب هؤلاء الاطفال على تيزيجر بصورة مؤدبة مقنعة لأنه هو نفسه كان يرغب ان يجري تيزيجر عملية الحتان لابنه .

والاستغاثة وطلب المساعدة التي يقوم بها سيد الى (كافر) ليست بالشيء القليل هناك ، بل تعتبر من اعلى معاني الثقة والاطمئنان الممكن ، وقد رأيتها حققت نتائجها خلال سفرتنا عبر الاوار فقد أحضر احد الحتانيين ابنه ، وبوجه تلوح عليه امارات الخجل ، راجياً ان يقوم تيزيجر باجراء العملية لولده .

وكانت تلك المرة الاولى التي ازور فيها مجتمعاً من السادة ، لأنني كنت اصادفهم خلال رحلتنا سابقاً افراداً بعيدين عن صنقهم وسط هذا التهويل والاحترام المبالغ فيه لمركزهم الديني (فكل شخص ينهض قائماً عندما يدخل احد السادة وعلى المرء ألا يتقدمه عند السير وألا يدير له ظهره مطلقاً) . انه لشيء

يلفت النظر ويؤثر في النفس ان تعلم بأن السادة المنحدروا من صلب رجل لم يدع
الالهية ابدأ . وقد رأيت في تلك الليلة شيئاً لاح لي غير اعتيادي ، إذ اتنا
ما جلسنا حول النار في المساء حتى لاحظت عدداً من محفظات المسدس تلوح من
تحت رداء مضيئنا والضيوف الآخرين وخالطني نفس الاحساس ، كما اذكر ،
عندما رأيت صور - الجلاوي - ذلك الشخصية الاسطورية وهو يسحب سلاحه بوجه
اعدائه في مراكش ، أو كأنه - البابا - وهو يفتح نار بندقيته الآلية على جماعة
البروتستانت الخارجين على الدين .

واخذنا نتجول لعدة ايام في الاراضي الزراعية والمناطق المحيطة بالاهوار .
وكنا نمكث في بعض الاحيان في اكواخ بدائية من القصب يغطي ارضها نثار
القصب وفضلات الجاموس ولكنها مرعان ما تنقلب ، بعد بضعة دقائق من
وصولنا ، الى ارض اخرى مغطاة بالسجاد والوسائد وفي احيان اخرى كنا نمكث
في مضايف الشيوخ وقلاعهم . وانا الآن اتذكر احدي هذه القلاع وهي تعالوها
آثار الاطلاقات التي شقت طابوقها وعلت انها صمدت قبل عشرة اعوام امام
حصار محسن الذي اندفع عليهم بموجات هائلة من رجاله ، واخيراً تراجع تاركاً
امام جدار القلعة ستين قتيلاً من رجاله .

والليالي ... لن انساها ابدأ ، تلك التي كنا نقضيها في الاكواخ او على ضفاف
المسالك المائية بكل متاعبها وآلامها ، والصورة التي تتركها عند الانسان تظل
ماثله امامه لتحرك في القلب ابدأ حينئذ اليها وسأظل اتذكر آلام التدليك قبل
النوم .. والليالي التي تتأوج بالبرغوث .. وهل يمكن ان تغيب عن خاطري
مشاحيف الاهوار بخيالاتها المقوسة وبانعكاسها في امواه يصبغها نور القمر بلون
فضي ؟ .. مطلقاً ! وستظل كذلك ماثلة امامي صورة قمر تلك الليالي العذبة وهو
يسير بتؤدة وهدوء متعثراً بين حين وآخر بقزعات متناثرة من غيوم . ولا اظن
ذاكرتي تغفل يوماً نسوة القرية وهن يندبن ويولولن على الموتى ، والرياح الرطبة
وكأنني احسها الآن تهب على البيت طوال الليل تلفتها قطرات من ندى .

وما تزال تداعب اذني تلك الاصوات التي تمزق صمت الليل من حولنا مختلطة بحسيس انفاس الجاموس عند نهاية الكوخ . وقد اعتدت ان استيقظ في بعض ساعات الليل لأستوعب بكل حوامي هذه المناظر وتلك الاصوات بألفة حبيبة .. اني اتذكر في لحظتي هذه كل ذلك كشريط سينائي من ذكريات الطفولة ... اتذكرها كما لو انها كانت اشياء خبرتها في زمن ما وعبرت عليها الايام ..

☆☆☆

وفي - الهدام - وهي قرية تقع في منطقة من الاهوار الموسمية وصلتها مياه الفيضان حديثاً اخبرونا ان المنطقة المحيطة بهم يهددها خنزير شرس وان احد الاطفال من قرية مجاورة اصابته انياب هذا الخنزير الوحشي قبل اسبوع ، وهناك كانت لي تجربتي الاولى في صيد هذه الحيوانات بطريقة جديدة .

وتنبثق على مسافة نصف ميل من القرية جزيرة منخفضة تتدرج في الارتفاع من حواشها الى قمة في الوسط مغطاة بالحشيش . وما صعدهنا المنحدر حتى لاحظت انها خاصة بدفن الموتى فقد تناثرت على الطين اليابس البني اللون قطع من المعادن المتصدئة وشظايا لامعة من فخار اخضر وازرق وعظام بشرية مبعثرة وانتصب على الأكمة المغطاة بالحشيش نسر اسود ولم يتحرك من مكانه حتى صرنا على مسافة عشرين ياردة عنه .

ومن اعلى نقطة في الجزيرة الصغيرة اخذنا ندور في المنظار بهذا المنظر الميت والماء يمتد من كل الجهات حتى الافق متعراً هنا وهناك ببقع من اليابسة وبأعواد البردي المتناثرة وبمساحات صغيرة من القصب البعيد الكثيف . كان منظرأً يصطبغ بزرقة السماء الباهة وباللون العسلي للقصب والطين . والغريب في الأمر كيف يظهر للعين المجردة فارغاً لا روح فيه ولا معنى في حين يبدو مزدحماً بكل شيء اذا نظرت اليه خلال عدسة منظار . وحيثما وجدت بقعة من اليابسة ترى امراب الطيور المائية الخواضة الصغيرة تغرد هنا وهناك . وكشفت بعض الجزر عن نفسها من خلال العدسة فتراوت وكأنها اكداس من طير الحضري النائم . وانبثقت امام عيوننا فجأة منطقة من الطين على مسافة ربع ميل وكانت ... العدو الاكبر .. خنزيراً وحشياً

ناتماً . ولاح الحيوان عظيماً في وضعه ذاك .

وكانت الفرصة الوحيدة التي يتاح لي فيها تفحص احد تلك الخنازير الوحشية . وكان الخنزير ضخماً كالحمار ، ولكنه بالتأكيد اكثر قوة ومتانة . وجلده وشعره ممزقاً ، وشعره طويل بلون طيني شاحب يتجمع عند بعض اجزاء جسده ويلتف على بعضه ، فتتوضح بعض خطوط سود وبقع خالية على جلده .

وسرنا في منحدر الجزيرة وأخذنا نخوض نحوه لأن المياه الضحلة تحول دون استمرار الطرادة على السير في كثير من المناطق . وكان الماء بارداً قارصاً لا يزيد عمقه عن الركبة ، بيد ان قدم المرء تغوص في قاعه اربعة او خمسة انشات اخرى من الطين اللزج . وبعد ان سرنا مايقرب من العشرين ياردة خلعت حذائي الذي اختير بحيث يمكن خلعه بسرعة عند دخول احدى الدور، وبعد ان تقدم جماعتنا في سيرهم خمسين ياردة كنت انا قد تأخرت عنهم حوالي عشرين منها . ولم يكن مروالي الذي تعذر على تثبيتته في مكانه عند رفعه لكي يسهل على الخوض في المياه . - بينا ليس على الآخرين الا ان يرفعوا دشاديشهم ويلفوها حول وسطهم - اقول لم يكن مروالي هذا هو العائق الوحيد لسيري ، فحين خلعت حذائي وصرت أسير حافياً وجدت الطين تحت قدمي وقد زرع باعقاب القصب المحترق الشائك كإبر قنفذ ، واحسست وكأنني اسير على فراش من مسامير لأحد الفقراء الهنود . وكلما سرت خطواتي او ثلاثا انزلت قدمي في آثار عميقة لأقدام حيوان او انسان كان قد مرّ بهذا الدرب في مرة سابقة . وكلما ترنحت لأحفظ توازني انزلت قدمي الاخرى فوق الاشواك وهي تن تحت ثقل جسدي . وتخلّفت الى الوراء كثيراً بينا كان نيزيجر وعمارة يسيران امامي بثبات .. الاول بجذاء من المطاط والآخر بقدميه الصلبتين الحافيتين ابدأ وبباطنها المتحجر اللاحساس ، دون ان يتعثرا كما لو انها يسيران على ارض يابسة ناعمة .

واصبح نيزيجر وعمارة على مسافة مائة وعشرين ياردة عن الخنزير بينا كنت انا وراهم اسير في ضعف تلك المسافة ، وقبل ان يقف الحيوان قائماً على قدميه نظر اليها برحشية ورعب ، وخطا خطوة او خطوتين ثم التفت ليحدق فيها مرة ثانية .

وثبت فيزيجر عصاه الطويلة ذات الرؤوس المدببة في الطين واسند عليها بندقيته ثم صوبها نحو الهدف .

واخيراً وجدته وليس لي الا الاستسلام لفضيحتي ، حيث انني تخلفتُ الى الوراء وبقيت اترنح في سيرتي بين دجاج الماء . واطأ فيزيجر ، وهو الصياد الماهر ، الخنزير ، اما عمارة الذي اخذ تدريبه الكافي وصار يتمتع بقدرة كبيرة في الرماية فقد اخطأ هو الآخر الهدف ثلاث مرات . ولكن الاطلاق السابعة اصابت الحيوان المرعب في اضلاعه ولكنها لم تطرحه ارضاً ولم تحل دون تقدمه . واخذنا نراقبه على بعد مرمى اطلاقه وهو يشق طريقه في الماء الضحل حتى اختفى اخيراً في متاهة من القصب تبعد عنا مسافة نصف ميل .

وتبعناه لنصف ساعة اخرى وانا اتعثر وقدماي محمّلتان بالوحل وكاتنا تنزلقان بين الحين والآخر في آثار الاقدام وتعثران بسيقان القصب المقطوع الحادة التي كانت تنغرز فيها طوال الوقت . ولما اقتربنا من القصب العملاق اصبح عمق الماء الى الفخذ وقاعه الطيني ناعماً . ثم توقف فيزيجر ليتكلم مع عماره فتمكنت ان الحق بهما .

وهنا ، حيث القصب كثيف الى حد يسهل معه اخفاء خنزير جريح فيه ، متكاتف الظروف المواتية لكل من في نفسه غرض خبيث . ورحنا نتقدم الى الامام بحذر وانتباه واسلحتنا مهيأة للاطلاق . ومن مكاني ، وانا الى الخلف منهم حدثت في جماعتنا واحسست ان الخطر الاكبر الان لا يتأتى من الخنزير وانا من احدنا على الاخر . فقد انفصل عماره عن فيزيجر وراح يخوض في المياه ببندقيته المنتصبه افقياً وفوهتها موجهة من الخلف نحوي ، بينما بقي حسن بسبب قلقه في منتصف المسافة بيني وبينهم وبندقيته الالية *Golt 45* تهتز في يده وفوهتها تهدد كل واحد منا .

وعلى اية حال لم نجد الخنزير بين القصب ، ولكننا عندما ظهرنا في الجهة الاخرى رأيناه واقفاً جانباً في ماء ضحل على مسافة مائة ياردة عنا فأطلق عليه

ثيزيجر وعمارہ النار في وقت واحد ، وفي هذه المرة سقط ميتاً وقد اخترقت
الاطلاقات قلبه .

وكان ذلك هو الخنزير الوحيد الذي اتحت لي فرصة قياسه من بين العدد
الكبير من الخنازير التي قتلناها فقد اضطجع هامداً بلا حراك في ماء عمقه عدة
انشات فقط . ونشرت شريط القياس من أحد حوافره الامامية بينما امسك به
عمارہ وشده الى الكنف فكان ارتفاعه ثلاثة واربعين انشاً ، ومع انه ظهر كبير
السن وانياه معقوفة الى اعلى نحو لحم عينيه فإني متأكد انه اصغر من عدد كبير
من الخنازير التي استطعنا رؤيتها وقتلنا بعضها فيما بعد ، بل انه اصغر حجماً من
الخنزير الذي اوشك ان يقتلني بعد مرحلة اخرى من رحلتنا .

وقرب قرية - الهدام - التقينا لأول مرة بمن صارحنا بعداوتة ومقته لنا
وكان احد افراد عائلة الشيخ . وعلى الرغم من ان الشيخ نفسه كان حسن النوايا
مؤدباً بسيطاً ، ويشبه في هذه الصفات الشيخ محسن غير ان ابنه شاب عدائي
المنظر يلبس في احد اصابعه خاتماً ضخماً من الجواهر ، ومنذ اللحظة الاولى اخذ
يرشقني بنظرات حادة كما لو انه يرغب في اثبات وجوده بأية وسيلة كانت .

وعندما فرغنا من طعامنا بدأ القرويون يتوافدون نحو القلعة ليعالجهم ثيزيجر
واخذ هو يعمل ما يقارب نصف الساعة في الارض المحيطة بالقلعة والمرضى
يكتظون من حواليه . وكان ثيزيجر يعالج فتاة يناهز عمرها الرابعة عشرة من
العمر عندما اندفع ابن الشيخ راكضاً من القلعة وهو يصيح بالناس ان يتفرقوا
وصرخ بوجه ثيزيجر قائلاً انه لعار كبير عليه ان يعالج فتاة من عشيرتهم ، وأخذ
يهدر بأحقر كلمات مخجلة مهينة . وكان طبيعياً ان يغضب ثيزيجر فالادوية التي
يستخدمها قد كلفته اثناناً باهظة ، وهو الذي خاطر بحياته لمواجهة الامراض
وعدواها مضحياً بجهوده واتعابه في خدمة الناس^(١) . وقد دخل الشيخ نفسه في

(١) اود هنا ان اقتبس جواب الدكتور شاكراً مصطفى سليم مؤلف كتاب - الجيايش -

الامر مشيراً لثيزيجر الا ينتبه لكلام ولده وان يعالج من يرغب في معالجته بيد ان الجوخيمت عليه ظلال من كآبة وغموض . واغلق ثيزيجر صناديق الادوية وعدنا ثانية الى الظلام الممزق في غرفة الاستقبال بالقلعة . ولم يتبعنا لا الشيخ ولا ابنه ولكن جاء احد الزوج بعد مضي عدة دقائق كمندوب عنه يلتمس فحص طفله الذي يتمتع بصحة جيدة .

وان لم يكن ذلك الحادث بالكبير الأثر الا انه ذكرني بما سمعته عن معاملة المسلمين للنساء . ومن السهل ان يتجاهلن الشخص الغريب ولا يسأل عنهن او يلقي عليهن التحية او حتى ينظر اليهن . ويذهب الامر أبعد من هذا فإنك لاتسأل في القرية عن عائلة الرجل فلان لأن هذا ضمناً يشمل نسوة تلك العائلة ولا تلبس نسوة العراق الحجاب ولكنهن ، بين الناس البدائين ، نادراً ما يسمحن بالتقاط الصور لهن ، لذا تراهن وعيونهن مشرعة تراقب الكاميرا فأصبح من المستحيل ان تلتقط لهن صورة دون ان يعلمن بذلك . والشابات من القرويات يتمتعن بقسط وافر من الجمال .. بعيون ناعسة كبيرة كثيراً ما وصفت بعيون الطباء ، وبشرة ناعمة ، وشعر — عندما لا يتخضب بالحناء ولا يعقد في ضفائر قصيرة قبيحة — يصف عادة وينشر فوق الجبهة ... اسود جذاباً مماوجاً بعنوبة . وغالباً ما تشوه بشرة الوجه في سن المراهقة بواحدة او اكثر من بثور مرض يدعى (حبة بغداد *Baghdad boil*) وفي نفس تلك السن تراهن وعلى وجوههن بقع من الوشم ليست كثيرة في عددها الا انها كفيلة بإقلاق مثل هذا الجمال الذي يعتمد على الطبيعه والفطرة والبساطة . ولا توجد اختلافات كبيرة في لون الوشم وزخرفته

— عندما سئل في مقابلة صحفية مع جريدة — الشعب البغدادية بعددها الصادر في ١٥ حزيران سنة ١٩٥٨ عن رأيه بثيزيجر فقال : « لقد قابلت ثيزيجر واتصلت به .. واتي اراه غامضاً غايبة الغموض ومهمته محفوفة بالأسرار . ولا يمكن تفسير السبب الذي يدعو الى انفاق الاموال الطائلة في مناطق الاهور ولا يمكن معرفة المصدر يتزود منه بالنقود ، وقد نال ثيزيجر اعجاب المدان بثقافته وبراعته في الصيد اذ ضرب رقماً قياسياً في صيد الخنازير كما نال رضا الشيوخ بما يهديه لهم بنادق ثيمته وسواها من الهدايا ، وعلى اقامة ثيزيجر الطويلة في الاهور فانه لم يقدم لنا الا مقلاصغيراً واحد (زاغل) فيه فنشره مرتين واثبت فيه جهلاً فاضحاً ببعض الامور .. » .
المترجم

عندهن ، فلونه ازرق معتم ، وغالباً ما ترى الوشم في خط على الحاجبين ، او ان يقتلع شعر الحاجبين ليحل خط الوشم مكانها . وتكون خطوط نقوش الوشم مستقيمة دائماً ولكنها تشوه رقة البشرة الفضة النضيرة في الجبهة والصدغ . ويهبط خط عريض من الوشم من وسط الشفة السفلى ويمتد احياناً حتى الحنجرة وبين النهدين بامتدادات على شكل زوايا قائمة تصل الى ما فوق الجذع ، وكل واحد منها تتفرع منه نتوءات تشبه اسنان شوكة الطعام ، وقد لمحت ذلك مرة او مرتين خلال مناسبات نادرة ، الا اني لا اعرف الى اي مدى يمتد هذا الوشم عادة في الاسفل . وتحمل اليدين والرسغ تلك النتوءات التي تشبه شوكة الطعام ولكن بخطوط مستقيمة . وغالباً ما تصبغ القرويات باطن الكف والاطافر بالحناء . ومع ان لباس المرأة الاعتيادي للعمل اسود ، والعباءة عند النساء تقابل الدشداشة عند الرجال وتختلف عنها قليلاً فيما عدا خط الياقة الدائري والكمية الكبيرة من القماش فيها - والقنيت والشابات منهن يرتدين على الغالب ثياباً ذات الوان مختلفة قرمزية وزرقاء بنقوش من الازهار ، ولا تلبس القنيت غطاء على الرأس فيما عدا طرحة سوداء تتهدل على الكفين وتراهن ينظرن من تحتها الى الرجل الغريب بعيون ظباء مشبعة بمعاني الاغراء والشك . . ايضاً ، في حين ترتدي النسوة الكبار حول رؤوسهن قطعاً من القماش الاسود تلتف حول الرأس كعمامة كبيرة وتتهدل اطرافها الى اسفل جانبي الوجه وتحت الذقن مما يكسبهن منظرأ لا ترتاح له العين ، وقد تصل اطرافه احياناً الى الثدي وغالباً ما تشد اليها بعض الاشياء للزينة .

وتحمل النسوة هناك كميات كبيرة من الحلي ومن المعادن الثمينة وغير الثمينة ايضاً كأقراط الفضة والفيروز ، وتندل من احد فتحات الانف عادة حلية كبيرة . ويلبسن كذلك عدداً كبيراً من الاساور والخواتم ولكن ، بينما ترى الرجال والاولاد يحملون الخواتم في اليد اليمنى تشاهد النساء يلبسها في كلتا اليدين . وربما كانت اغرب حلية اشاهدها عند نساء الاهوار هي الحجول الضخمة من الفضة اللامعة وهي كبيرة الحجم حتى يتراءى انه لا يمكن لمن يلبسها ان يسير دون بذل جهد كبير في ذلك . وتكون الحجول اسطوانية الشكل ، تشبه نعل الحصان ،

ومفتوحة عند نهايتها وترتفع الى الاعلى قليلا عند الكعب ، اما الفتحة فلا يزيد عرضها على انشوا واحد . ومع اني تمنعت فيها كثيراً الا اني خرجت بنتيجة واحدة وهي انه لا يمكن اخراج الحجل من القدم ابدأ دون قطع معدنه (١)

وتتزوج القتيات الشباب من الرجال ويندر ان يتأخر الزواج عن السابعة عشرة من العمر وفي معظم الاحيان يكون قبل هذه السن . وتأتي الفتاة الى فراش الزوجية عذراء طاهرة لأن قيامها بعملية جنسية قبل هذا لايعني بالنسبة لها غير الموت لأن هناك الاخوة الذين يقطعون منها الحنجرة ، اما الزاني فلا يعتبر مجرمًا . ويأتي العار العظيم في نظر ذلك المجتمع عن طريق النساء فلا رحمة ولا شفقة للمرأة على يد رجل عائلة ان هي قامت بتلك العملية قبل الزواج . واذا ما مثل القاتل امام المحكمة فلا تصدر عليه احكام مشددة ، ونفس الشيء ينطبق على قضايا القتل العشائري ، وانما يحكم عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات بدلاً من خمسة عشر عاماً كما في الحالات الاعتيادية ويندر ان تجرد نساء مومسات في تلك المنطقة ، واذا وجدن فخارج مناطق الاهوار .

ويقوم الوالدان باعداد الترتيبات اللازمة لزواج ابنائهم ، ومن المحتمل ان الرجل في الاهوار يعرف زوجة المستقبل بالرؤية فقط ، الا انه لا توجد ثمة اسباب معينه لاختيارها دون غيرها . ولا بد ان يكون الزوج من نفس العشيرة التي تنتمي اليها الفتاة ما عدا حالات شاذة نادرة . ويدفع الزوج او والده الى العروس مبلغ ٧٥ ديناراً او ثلاثة رؤوس من الجاموس (وبما ان الثأر يسوى بدفع دية من سبع نساء فعلى هذا يمكننا تقدير قيمة الرجل بجوالي خمسمائة دينار) .

ويحق للمسلم حسب شرائعه الدينية ان يتزوج اربع نساء في اي وقت يشاء ، زد على ذلك ان الطلاق يتوقف فقط على دفع الرجل لمؤخر الصداق دون حاجة الى ذكر الاسباب التي دعت الى ذلك .

ولكن معظم سكان الاهوار لا يمكنهم ، لأسباب اقتصادية ، ان يتمتعوا بهذه

(١) في الحقيقة انه يمكن اخراج الحجل من القدم دون ما حاجة الى قطع المعدن كما ظن المؤلف .
المرجم

الامتيازات وان يتحملوا المسؤوليات المترتبة عليها، ولذلك فهم نادراً ما يتزوجون بأكثر من زوجتين او بزوجة واحدة وبلا سراري . بيد ان الامر يختلف بالنسبة للشيخ اصحاب المقاطعات الكبيرة والثراء الوافر . فبعد سفرة استغرقت يومين عند عودتنا من قرية - الهدام - مكثنا في قلمه شيخ كان قد سافر قبلنا لزيارة احد اقاربه فاستقبلنا ابنه وكان شاباً ممتلئ الجسم ناعم الوجه لا يزيد عمره على خمسة عشر عاماً غير انه يمتلك ثلاث زوجات .

وقد وصف نيزجير في احد كتاباته حفلات الزواج عند المعدان والتي هي عادات اجتماعية اكثر منها واجبات دينية قائلاً : « الزواج عند سكان الاهوار مناسبة كبيرة لاقامة الافراح ، فإذا كانت العروس من قرية اخرى فإن اصدقاء الزوج ينطلقون عند الصباح بمشاحيفهم لاستقدامها ، ولا يصحبهم الزوج في ذلك . وانا يظل ملازماً الدار . وينصرم يومهم في قرية العروس بالرقص والغناء . ويجتمع الكل عند المساء في بيتها يرددون (الهوسة) رقصة الحرب . وينشد احد الرجال بيتين من الشعر يرددها الجميع وراده وهم يضربون على الارض في شكل دائرة من حوله ويلوحون بأسلحتهم ويطلقون منها عبارات نارية . ثم تجلس العروس في القارب وتؤخذ الى قريتها الجديدة ... قرية الزوج المنتظر يصحبها عدد كبير من (المشاحيف) تعد بالعشرات وهم يغنون ويرقصون ويطلقون النار من بنادقهم . وتعرف هذه الجماعة (بالزوافيف) وخلال سيرهم يهبطون عند كل قرية يمرون بها وينزلون في احد الدور ليرددوا (هوساتهم) ويصل الفرح والانفعال ذروته عندما يقتربون من بيت الزوج . وكنت قد اشتركت حديثاً في الاحتفال بزواج شاب يتيم يدعى (دخيل) . وكان قد باع كل شيء يمتلكه تقريباً من اجل توفير مهر الزوجة في حين لا يملك هو حتى كوخاً لنفسه . وقد نصب ناموسية صغيرة حمراء في مؤخرة بيت ابن عمه لتكون فراش الليلة المشهودة ، لذلك امضى معظم ساعات يومه في توسيعها . ولأنه ينتسب الى عشيرة اخرى فقد ظهر واضحاً ان عرسه سيكون بسيطاً ، ولما كان صديقاً مخلصاً لي فقد اصطحبت معي عدداً من الرجال واطلقنا عدداً لا يستهان به من الرصاص ونحن في طريقنا لاستقدام عروسه وقد

أثارت اصوات الاطلاقات الكثيرة المعدان من القرى المجاورة فشاركونا في ذلك ، وصار عرس (دخيل) في هذه القرية على الأقل ، اكبر احداث ذلك العام . وعندما حلّ المساء غصّ البيت بالناس حتى اضطروا إلى الجلوس في مشاحيفهم خارج الكوخ بينما استمر الغناء والرقص في الداخل . وغادرت عند منتصف الليل ظناً مني انه سيكون مسروراً لو غادر الناس البيت . وحين رأيت في الصباح كان حاصر الرأس وقد تمزق قميصه الجديد . وعلمت ان اصدقاءه الذين تركتهم معه اخنوا يسخرون منه مدعين انه عندما دخل على زوجته الفقه في الماء ، غير انه انكر التهمة عنه بسخط وغضب . ولما كان من عادة المعدان ان يطلق الرجل اطلاقاً واحدة حينما ينتهي من عملية الدخول على عروسه فلا بد ان (دخيل) قد فتح بندقيته باطلاقاً مزقت اجواء الفضاء (١) .

وقد تلعب الزوجة في بيت الرجل من المعدان دوراً فعالاً في حياة العائلة . وتقوم علاقة متينة بين الزوجة وزوجها او ابها إلا ان هذه العلاقة تتحدد وتقيّد خارج نطاق العائلة . ويتناول الرجل طعامه عادة مع نساء عائلته اذا لم يكن بينهم ضيف غريب في حين تراهن يجلسن لشرب القهوة مع الضيوف الذين تربطهم واياهم صلات وثيقة وربما لا يتناولون الطعام مع الغرباء مطلقاً . ومع كل هذا فالنسوة هناك مركز دقيق في العائلة ، ليس تافهاً فحسب وانما يجب على النسوة عدم تجاوزه . واذا ما افترضنا ان ثمة عائلة من المعدان انتقلت مباشرة من الاهوار الى مدينة اوروبية فالنساء في هذه الحال هن اللواتي ينهضن في المجالس العامة ليتركن مقاعدهن للرجال الذين يجب ان يقدم لهم الاحترام قولاً وعملاً . وحين يسافر الرجل مع عائلته فإنه يأخذ مقعد الشرف متصرفاً في داخل المشعوف وهو يدخن لفافات ببلادة وغباء في حين يقوم النسوة بالجذف لأنه شيء لا يليق برجولته ان يعمل مثلهن (٢) . وبنفس الطريقة حددت العادات والتقاليد للمرأة الاعمال التي

(١) ذكر ثيزيجر ذلك في نفس مقالته الوحيدة عن الاهوار بعد اربع سنوات من الزيارات المتوالية لتلك المناطق ، وقد ترجمها الاستاذ باقر الدجيلي بعنوان (المعدان او سكان الاهوار) .
(٢) (ولكن يجب على الرجل ان يسير المشعوف الذي تركب فيه معه امرأة داخل القرية) .
(الجبايش - الدكتور شاكر مصطفى سليم) .

ألا تعتبر من اختصاص الرجل . فليس ثمة رجل يجلب ماء الشرب اذا كانت المرأة حاضرة ، وليس ثمة رجل يفكر يوماً يجمع فضلات الجاموس (السرجين) او يقوم بطحن الحبوب . ويكاد هذا العمل الاخير خاصاً بالمرأة ومن الصعوبة بمكان ان نتصور الرجل يوماً وهو يقوم به . وقد اعتدت رؤية منظر طحن الحبوب هذا سريعاً خلال اقامتي في الاهوار . وتم العملية بأن تضع اثنتان من النسوة بعض الحبوب في وعاء يتشابه بشكله في جميع مناطق الاهوار ، ويبلغ طوله القدمين . والوعاء عبارة عن جذع نخلة مجوف يقف باستقامة وكأنه برميل ضيق ، وتمسك كل منها بطرف مطرقة خشبية تستخدم ايضاً لرضّ القصب قبل صنع البواري ثم تتناوب الامراتان على الدق في البرميل بنغمة رتيبة ، وفي الوقت الذي يصدر فيه هذا الوعاء نغمته تطلق احدها نغمة لصاحبها معه نغمة من طبقة موسيقية مختلفة . ويظن من يسمع هذه الاصوات بأنه يستمع الى لعبة (تنس) يتقاذف الكرة فيها مضربان اوتارهما من حديد احدهما يصدر صوتاً حاداً والآخر اهدأ . ولا يليق بالرجل هناك ان يصدر مثل تلك الاصوات (١) .

وسواء كان العمل الشاق أو الولادات الكثيرة أو الامراض المتوطنة سبباً في انهاك المرأة في الاهوار فإنها تشيخ بسرعة كبيرة ولا تتمتع بريعان صباها وروعة شبابها الفاضل الا قبل سن العشرين اما بعده فإنها تبدو كبيرة وكأنها في منتصف عمرها . اما الوفيات بين الاطفال فكثيرة . وسكان الاهوار لا يتبعون طريقة معينة لمنع الحمل ، وعلى هذا فلا بد ان يظن المرء بان رجل الأهوار الذي يتزوج من امرأتين لا بد وان يمتلك في اخريات ايامه حوالي خمسة عشر او عشرين طفلاً ، ولكن الواقع يدحض ذلك فالطبيعة بأمراضها العديدة قد حددت النسل عندهم بدرجة ادق مما تحدده العقاقير المانعة للحمل في العالم الغربي .

(١) الوعاء الذي يعنيه المؤلف هنا يدعى (بالجاون) ولكنه لا يصنع من جنوع النخيل وانما من الخشب الصلب المجوف ، ولا يمكن طحن الحبوب ، كما ظن المؤلف ، وانما يستعمل لازالة القشر الخارجي والداخلي عن حبوب الرز .

الفصل السابع

وعندما غادرنا - الهدام - كنا ما تزال نسير نحو الشمال .. الى خارج مناطق
الاهوار . وصرنا في البداية خلال حقول رز تغطي المياه بعض اقسامها ، ولكن
الاقسام الصالحة للملاحة منها هي قنوات الري الضيقة تحيطها ضفاف طينية عالية
رخوة تتميز بالالتواءات الكثيرة الى حد يصعب معه على الطرادة ان تستدير فيها
وشعرت وانا اسير لأول مرة مشياً على هذه الضفاف الطينية وكأنني طفل لم يتعلم
المشي بعد . وكانت المسالك المائية تنحرف دائماً عن هدفنا وكأنها أزقة مدينة
خيالية ، فكان علينا ان نرفع الطرادة المحملة بالامتعة مرة بعد اخرى فوق مناطق
طينية لندفعها في قنوات ذات زوايا قائمة لنسلك طريقنا الاعتيادي . وكثيراً ما
اخذ الجهد والتعب الممض ملاحينا وهم يخوضون في الماء الضحل الى منتصفهم لكي
يضعوا الطرادة على مرتفع طيني بموازنة قلقلة ثم يدفعون مقدمتها الى قناة جديدة .
وسرعان ما أصبحت ضفاف الجداول المتعرجة واطئة المياه تفيض من حولها
بصورة مستمرة حتى اختفت نهائياً تحت المياه العظيمة الممتدة امامنا . ولاح على
البعد ، الى الشرق حيث تلتقي السماء بالماء عند الافق ، اسطول مبعثر من الطرادات
والمشاحيف ذات المقدمات العالية تبدو في أبدع وأروع منظر . وفوق رؤوسنا
خيوط ناعمة من نسج العنكبوت تطفو في كل مكان من السماء الزرقاء يتعلق بها
نثار من قطع البردي تسبق عليها لمعاناً وضياءً فوق المياه الهادئة .
واخذنا نجذف لأكثر من ساعة فوق سطح البحيرة البراق . ومررنا في طريقنا

جماعات من (البربرة) العراة الذين يصيدون السمك بالشباك ، ولثيزيجر معرفة قليلة عن هؤلاء القوم . وهم كالناس الذين يعملون في الحياكة اليدوية ، وكفلاحي الحدائق في المدن ، والى حد ما كبائعي الملابس المتجولين ينظر المعدان اليهم نظرة ضعة واحتقار ويمتنعون عن الاكل معهم أو الزواج منهم ، وهذا شيء غريب في حد ذاته ولكن لأن هذه النظرة لا تستند الا على طريقة الصيد التي يتبعها هؤلاء (البربرة) ولما كانت هذه الطريقة بالذات هي افضل طريقة في الصيد عند سكان الاهوار لذلك فإن خرافة احتقار (البربرة) هذه تافهة وليس لها ما يبررها . والعبقرية التي اظهرها المعدان القدامى في استغلالهم القصب الذي ينبت في الاهوار بصورة طبيعية مع ملاحظة قضية ادخالهم الحيوانات المحبة للماء كالجاموس مثلا ، كل هذه توحى بأن اولئك المستوطنين الاوائل لا بد انهم اكتشفوا بسرعة الامكانيات الهائلة للسمك الذي يزحم مياه الاهوار . ولا يعرف احد كيف نشأت بينهم تلك الفكرة التي تعادي قضية صيد السمك بالشباك .

وتحت ظروف معينة يستطيع (البربرة) الحصول على ثروة كبيرة من عملهم . وقد رأى ثيزيجر قبل ست سنوات جماعة منهم يصطادون في ماء ضحل يزدحم بالسمك فكانوا يكسبون الف دينار في اليوم لمدة اسبوع . وكان هؤلاء (البربرة) خلال ذلك يستأجرون المعدان كل يوم لسحب القوارب الكبيرة التي تبلغ حمولتها اربعين طناً الى اقرب نقطة يشحن فيها السمك الى بغداد .

وتوجد هناك بعض جماعات من (البربرة) المستقرين ، غير ان القسم الاعظم من هؤلاء الناس يكونون نصف متنقلين من منطقة الى اخرى ، حيث علمتهم مئات السنين من التجارب والخبرة ان الزيادة والانخفاض في مستوى المياه تزيد من وفرة الاسماك .

وأخذت تظهر في الجانب البعيد من هذه المنطقة المغطاة بالمياه الحواجز والضفاف الطينية مرة ثانية فوق سطح الماء . وأصبحنا حالاً نسير بين قنوات الري التي تمد حقول الرز بالمياه ، ومرة اخرى كان علينا ان نرفع الطرادة الطويلة الكريهة

هوق الضفاف الطينية بين آونة وأخرى . ولكن ما كنا نتقدم ومنتقل من قناة الى اخرى حتى تتدرج تلك القنوات في السعة والتنظيم اكثر فأكثر . ودخلت بنا احداها فجأة في نهر عريض يتفرع من دجلة الى الجنوب . ووصلنا (سوق الطويل) القرية التي تكتظ بأكواخ القصب والتي تحف بضافها بساتين النخيل ، انها من طراز يختلف عن اية قرية مررنا بها ، حيث توجد فيها اسواق تزدحم على طول ضفاف النهر بالناس الذين قصدوها لقضاء حاجاتهم (١) . والسوق في حركته الدائبة كأنه خلية نحل والمر الضيق بين الحوانيت والماء المتدفق عبر النهر ، كل ذلك كان يثير في نفسي ذكريات شارع القرية الاوربية في يوم السوق . وتسير في النهر الكبير سفن تجارية كبيرة ومقدماتها مقوسة مطلية بالقار تشمخ فوق المشاحيف والطرادات المحملة بالحاجيات المختلفة . وتلمع على الشاطئ هنا وهناك اثواب القرويين المختلفة الاشكال والالوان كما هو الحال في ملابس الناس في بغداد والبصرة . ولاح امامي معلم مدرسة ابتدائية يسير بملابسه الاوربية التي هي الزي الرسمي للموظفين المدنيين في العراق . وكان المعلم يتحدث بحماس مع قروي صبغت لحيته بالحناء ، ورأيت كذلك شرطياً بملابسه الحاكي يقف امام مركز الشرطة المبني من القصب وقد تراجع الى وراه ليفسح الدرب امام رجل دين يضع على رأسه عمامة بيضاء ، وكان المر الضيق يقطع في عدة اماكن بقنوات عميقة تسير خارج القرية بين النخيل ويمتد عبر كل قناة جذع من النخيل يعبر عليه الناس دون حذر او اضطراب او حتى نظرة خاطفة الى اسفل .

وهبطنا في قسم من القرية خصص لبناء المشاحيف ونحن نشق طريقنا بصعوبة خلال حشد من الزوارق الراسية . وكان ثمة زورق كبير يزيد طوله على المائة قدم وقد انهمك اثنان من الرجال في وضع دفة جديدة له . وكان أحدهم يستخدم مثقباً كبيراً لا يديره المقبض الاعتيادي المعروف وإنما تديره آلة تستخدم كما يستخدم قوس الكمان . وعلى الضفة العالية القرية من هذا المكان شيخ أبيض

(١) سوق الطويل صارت (ناحية الطويل) في الفترة الاخيرة .

اللمحة يرتدي ازاراً يغطي وسطه فقط ، وقد جلس الى جانب حوض كبير من القار يعبر من تحته نفق يتأجج بنار القصب . وكان الرجل الشيخ يحرك سطح القار المغلي من حين الى آخر بتؤدة وهدوء فتصاعد منه فقاعات وخرات صغيرة تندفع في الهواء ، وعلى بعد قليل منه جماعة من الرجال يطولون بالقار مشاحيف مقلوبة على وجهها .

وفي مضيف أحد (السادة) قضينا ليلتنا لا يجرسنا كما اعتدنا عبيد مسلحون وإنما تحرسنا حيلة بسيطة خادعة . فبعد ان اضطجعنا لننام في الليل وضع مضيفنا عموداً طويلاً ، يستخدم لدفع المشاحيف في النهر ، افقياً عبر مدخل المضيف على ارتفاع قدم من الارض ، ووضعت عند المدخل ايضاً ادوات القهوة وأواني من الالمنيوم حيث يتوقع ان يصطدم بها من يحاول عبور العامود فيحدث بذلك صوتاً وجلبة كفيئة بايقاظ النيام في المضيف . وكان سببتي هو الضحية الاولى لتلك المصيدة ، حيث خرج في الليل لقضاء حاجته الطبيعية ، وقد احسست به عندما نهض ليخرج . ويلوح ان سببتي تذكر ان يقفز فوق العامود عند خروجه بيد أن تخدير النوم كان ما يزال يتململ في عروقه عند عودته فنسي العامود واصطدم بالواني ولكن ... لم يستيقظ احد !

وكانت الاصوات التي يستيقظ عليها الفرد منا في بيوت القصب في الاهوار عادة هي نباح الكلاب او عراكها قرب جدران الكوخ الرقيقة أو اصوات البط على بعد قدم من رأسه ، او صياح ديك يستقبل اليوم الجديد . غير انه كان في هذا الصباح صخب وضجيج مائة عصفور ترفرف بين اقواس المضيف في الداخل . وكأنها اصوات صناعات في ليلة فرح . وانقلبت على جنبي لألصق نفسي بالجدار وسحبت فوق رأسي بطانية لأضع حداً لهذا الدوي العنيف في اذني . وعندما فعلت ذلك سمعت صوتاً بين (البواري) التي تفصل بيني وبين العالم الخارجي . ولم يكن الصوت يبعد عن وجهي غير بضعة انشات (والبواري) ممزقة الى درجة تسمح لضوء الصباح الباهر ان ينفذ للداخل . وعلى ضوء هذا الشريط الذهبي من اشعة الشمس لحت رأس غزال راحت عيناه العسائتان الباهرتان تحدقان باغراء

واعجاب في ظلام المضيف . وأخذ أحد اظلافه الرقيقة يداعب بلذة ويخدش باستمتاع جدار المضيف القصبي . وادركت ان التشبيه بعين الغزال الذي طالما اكثر شعراء فارس والهند استعماله كان في الحقيقة شيئاً واقعياً ، لأن هذه العين وهي قريبة من عيني كانت في سحرها وجمالها ولعانها تشبه بصورة عجيبة مثيرة عيون القتيات العربيات .

وعندما غادرنا قرية (سوق الطويل) انحدرتنا جنوباً نحو الاهوار الدائمة ، ووجدت نفسي انظر الى الأمام بلهفة وشوق كبير ، الى العودة لذلك العالم العجيب من البحيرات والمستنقعات والقصب العملاق والاكواخ التي يحتل كل واحد منها جزيرة قائمة بذاتها .

وتحولنا من مجرى النهر الرئيسي الى قنوات أصغر فأصغر وأخذنا نسير لبعض الوقت بين المجاري الوعرة الضيقة لحقول الرز ، وجدار الرز أبداً يتراءى لنا عند الافق الجنوبي والشرقي شاحباً كثيباً . وبعد مضي ساعتين خرجنا الى منطقة كبيرة تغمرها امواه هادئة كذلك التي مررنا بها في اليوم السابق ، وعلى جانبها البعيد انتصبت صفوف القصب الذهبية . وعندما اقتربنا منها انطلق في وجوهنا نقيق الضفادع بجدة ، وكانت في البداية مهمة مختلطة انضمت بعد ذلك ، كما في مرة سابقة الى بعضها كفرقة انشاد ضخمة اطبقت علينا اصواتها من جميع الجهات كجدران غرفة مغلقة .

وقد تغير مظهر الاهوار خلال المدة القليلة التي قضيناها خارجاً عنها ، لأن النمو في هذا الموسم سريع جداً وبصورة خاصة في الاهوار الموسمية التي تعتمد على ثلوج الجبال الشمالية . وانتشرت الاشواك الخضراء للنباتات الحديثة العهد في كل مكان خلال القصب الذهبي القديم . وجثت عند اقدامها نباتات مائية لم تكن هناك من قبل . وما تدور العين الى اعلى حتى تصطدم النظرات اول ما تصطدم بسماء زرقاء تنعكس على صفحة ماء تزخره اوراق ارجوانية ملقاة على سطحه تحتلط بنخضرة نباتات مائية زاهية ، وينفرش فوق الكل اللون الاخضر والذهبي

البراق للقصب العملاق نفسه واطرافه العالية كأنها ذيول ديكة .

وبسبب هذه النباتات الجديدة لا حت الاوار مجاهل ومناهات دون ان تقطعها بمرات معينة . ودهشت كيف يتمكن المعدان خلال كل هذه التغيرات الموسمية من تمييز طريقهم في المرات المقلعة ، ويستطيعون بما لا يزيد عن العشرين كلمة اخبارك بمختلف انواع هذه المسالك المائية وحتى انهم يستطيعون ان يحددوا لك ؛ بلاحظة عدد من اعواد القصب المكسور او المهشم اي نوع من القوارب سلك هذا الطريق قبلهم ، هل هو طراة او (بلم) او قارب صيد صغير .

واظن ان لدى هؤلاء الناس البدائين ، الذين يعيشون حياتهم في بيئة واحدة لا تتغير مع بعض حاجات قليلة محدودة ، نوعاً او درجة من المعرفة او الذاكرة بصورة لا يمكن لرجل متحضر امتلاكها ابداً . وقد رأيت بعيني امثلة كثيرة على ذلك . فعندما كنا مرة نعبء احدى البحيرات صرخ حسن انه رأى مشحوقاً مرق من احد اصدقائه قبل عدة اسابيع مخفياً في مجاهل القصب على بعد لا يقل عن ربع ميل عنّا . وعند هذا المدى لم يكن بمقدوري غير ان استنبط فقط ، مجرد استنباط ، وجود مشحوف هناك ولكنني اعجز عن تمييز نوعه . وعندما ادركناه ظهر ان حسن كان مصيباً في قوله . وفي مناسبة اخرى كنا نجذف في الظلام خلال مجرى مائي عريض تحيطه ضفة طينية في منطقة أهوار موسمية ، والسماء يتوجها قمر فضي حجبه عنا غيوم ثقيلة ، والضفاف المحيطة بنا تبدو اكثر عتمة من السماء ، وكان معنا في الطراة مسافر غريب عائد من حفلة زواج في قرية اخرى ، وفجأة ... اطلق الرجل صيحة عجب و اشار الى كتل سود لم تكن بالنسبة لي غير اشياء يمكن ان المحها بالظن والاحتمال اكثر منه بالرؤية الحقيقية ، وقد استطيع القول بأنها أشباح ، مجرد اشباح جاموس ، بينما هو على العكس من ذلك ادرك انها جواميسه التي فقدت من قريته . واتزلناه عند احدى الضفاف ليرجعها الى بيته ، وكانت فعلاً جواميسه المسروقة كما قال . وفي الحقيقة ان كل رجل منهم يدعي ان بإمكانه في لحظة واحدة تمييز جواميسه من بين الف من هذه الحيوانات المتشابهة الى حد بعيد ... يميزها بواسطة ندبة صغيرة على قرنها أو بنظرة خاطفة

الى جزء من جسدها أو بصوتها أو بأي شيء آخر فيها . واظهرت عدم اعتقادي بهذا الشيء الى تيزيخ الذي نقل الكلام بدوره الى ملاحينا فلاحت عليهم علائم من غيظ وذكروا انهم اذا لمحو مرة ولو بالصدفة ، سطح بندقية ما فبإمكانهم تمييزها ومعرفتها بعد مضي سنة من بين عشرة آلاف بندقية من نفس النوع ، وهنا يجب الا يغيب عن بالنا ان ذلك لا يحدث بالطريقة الاعتيادية وهي حفظ رقم البندقية لأنهم لا يعرفون القراءة . واذا كان هذا الادعاء مبالغ فيه ام لا فالشيء الاكيد انهم يستطيعون معرفة وتمييز كل مشحوف عن الآخر ليس في قريتهم فحسب ، وانما عند كل القرى المحيطة بهم ولو على مسافة بعيدة .

✱ ✱ ✱

كان قرص الشمس يميل نحو الغروب حين وصلنا قرية - كسي - ... غروب ناعم بزرقه المحار يخلاه سرب طويل من الطير المعروف (بأبي منجل *Ibis*) وكان الماء الرقراق يعكس تلك الالوان الزاهية في الضوء الخافت . ولاحت اكواخ القصب والمشاحيف الهلالية سوداء معتمة من بعيد ، وتراءت امامها اشباح البردي ترتفع في سماء يزحف عليها الظلام . ومن بعيد كانت تنحدر على صفحة الماء اصوات طبل كبير يضرب بإيقاع (الهوسه) او رقصة الحرب التي لا تعلن عن الحرب فقط وانما عن افراح الزواج ايضا .

ولم نستطع كبح جماح انفسنا في تتبع مراسم تلك الحفلة مع اننا لم نكن من بين المدعويين . وما نزلنا في الاكواخ القريبة منا ونظرت حوالى حتى اثارنا في نفسي تلك الاكواخ ثانياً مرأى السفن الكبيرة الراسية في البحر . وصلت إلى اسماعنا اصوات الرصاص بينما العروس تنتقل من بيتها الى (عش الزوجية !) وكان بيت الزوج غير بعيد عنا . وفي الوقت الذي وصلت فيه العروس الى هناك ازداد صوت الطبل وحشية وحتى ساعة بعد اخرى . ودخل علينا بعض الراقصين المحترفين ، الذين كانوا يقومون قبل قليل بالرقص في بيت الزوجة ، ليقدّموا لنا رقصاتهم المثيرة . وتراءى لي وكان عواطفهم قد ثارت بالمناسبة السعيدة لأن حركاتهم كانت اكثر من تعابير عاطفية مثيرة . وبعد ذلك عرضت امامنا رقصتان جميلتان .

وفي الوقت الذي غادرنا هؤلاء الراقصين بعد منتصف الليل بقليل خرج الضيوف من بيالتزوج ، وانساب ضوء القمر ناعماً هادئاً يفرق الكون . وبعد فترة قصيرة مزقت صمت الليل وهدأته اطلاقه عنيفة تعلن انتهاء عملية الدخول على العروس . وعند الهزيع الاخير من الليل انطلقت ثلاث اطلاقاات اخرى في فترات متباعدة كانت كل واحدة منها تثير كلاب القرية فتروح هذه في عواء ونباح جنوني لانهاداً تاثرته الا بعد مضي عدة دقائق .

وتلعب الاسلحة النارية دورها الكبير في حياة عشائر الاهوار . ولا تعتبر الحفلات ، مها كان نوعها ، كاملة ما لم تتحد الاذن فيها اطلاقاات بندقية في البيت الصغير . وتمتلك بعض العشائر من الاسلحة كميات اكثر من غيرها ، وتراعى لي ان عشيرة - الفريجات - عندها من السلاح ما يفوق اية عشيرة اخرى ، وربما تبلور ظني هذا بسبب اقامتنا الطويلة بين هذه العشيرة فعرفنا ذلك فيها عن كشب . (والعشائر تشتبك فيما بينها في معارك ضارية ولذلك فربا تضم القرية هناك اعضاء من عشيرتين او اكثر ، فقرية - كدي - مثلاً نصفها من عشيرة - الفرطوس - الذين يقيمون بعيداً الى الغرب ، والنصف الآخر من - الفريجات - . والعشيرة الواحدة في مناطق الاهوار ربما كان بعض سكانها من المعدان الحقيقيين الذين يستوطنون الاهوار ، والبعض الآخر من المزارعين الذين يعيشون في المناطق الياابسة خارج الاهوار ، ولكن كل قسم منها يشابه الآخر في اللهجة التي يتكلمون بها وفي استعمال الكلمات التي تعبر عن اشياء حياتهم هناك) .

والسلاح الاكثر استعمالاً في الاهوار هو البندقية التي تعبأ من فوهتها والتي تصنع محلياً ولذلك فقد ترى انبوتها ليست اكثر من انبوب معدني قديم ، اما اخصها فن الحشب ويشد عادة الى انبوبة الفوهة من الاسفل بخيوط نحاسية او معدنية من الالمنيوم ويثبت صاحب البندقية للزينة في بعض الاحيان قطعة او قطعتين من النقود بخشبها ، اما ذخيرتها فيمكن شراؤها من معظم القرى الكبيرة خارج مناطق الاهوار الدائمة ، ويكون عبارة عن مسحوق اسود وصفائح مسطحة من كرات الرصاص تتصل مع بعضها البعض بشريط يمكن للمرء ان

يقطع منه العدد الذي يريده من الاطلاقات . وكرات الرصاص هذه ليست مستديرة تماماً لأن انابيب البنادق نفسها ليست تامة الاستدارة . وحين يكون صاحب البندقية غير قادر على شراء تلك الذخيرة فإنه يملأها بأية ذخيرة اخرى يحصل عليها ، ولكن المعادن بأنواعها المختلفة تتمتع بقيمة كبيرة عندهم .

وتأتي بعد هذا البنادق الانكليزية S.M.L.E. ويدعوها سكان الاهوار (الكركه *Ghurka*) وقد دخلت هذه المناطق عند دخول الفرقة الهندية في الحرب العالمية الاولى ، ثم البندقية الايرانية التي يسمونها (برنو *Brno*) باسم مصنعها التشيكوسلوفاكي . وكان ممكناً شراء مثل هذا السلاح خلال الاحتلال الانكليزي بأربعة دنانير ، اما الآن فمع ان معظم سكان الاهوار فقراء غير أن سعر البندقية ارتفع الى المائة دينار والخرطوشة الواحدة الى نصف دينار .

والمعدان براعة مدهشة في استعمال البندقية التي تعبأ من فوهتها وخاصة اولئك الذين يستخدمونها لصيد الطيور . وهم بالطبع لا يطلقون النار على طيور محلقة في الجو ، غير انني في الحقيقة وجدت من الافضل للمرء اصطياد بطة في الجو من ان يطلق النار على عدد من دجاج الماء وهو يسبح على سطح الماء . وهذه الحقيقة لم تفشل في اثارة استغراب ملاحينا . وصياد الطيور من المعدان يتسلل بصيدته في حذر اما من مشحوفه المسطح أو أن يخوض في الماء البارد عارياً الى الكتف . وتسير اصغر مشاحيف الصيد ليس بالمجازيف او اعمدة الدفع وانما يستعمل الصياد نفسه ذراعيه لذلك بينما يكون منبطحاً .

ومع ان عدداً قليلاً جداً من الشباك يستعمل في الاهوار لصيد الخضيري بسبب الارض غير المناسبة لمثل هذا النوع من الصيد ، الا ان اعداداً هائلة من انواع الطيور والخضيري كذلك تصاد في الاراضي المحيطة بمناطق الاهوار ، حيث يستأجر القروي من شيخه منطقة من الارض مناسبة ويدفع له ثلاثين ديناراً او اكثر لغرض الصيد هناك لفصل واحد فقط . ثم يقوم بحفر خندق في ماء لا يزيد عمقه عن انش او انشين ليخفي فيه طيات شبكة الصيد ، وليبني بعد ذلك (ستراً) من القصب يواجه بصورة مباشرة احدى نهايتي الشبكة (واذا لم يكن الصياد مقابلاً

لها تماماً فإن حبل السحب لا يمكنه ان يغلق الشبكة هذه) ثم ينثر المنطقة بالحبوب لفترة من الوقت غير قصيرة لكي تعتاد الطيور على تلك البقعة من الارض - وجانب (الستر) الذي يواجه المصيدة له ثقبان احدهما للنظر من خلاله والثاني لسحب الحبل الذي يتصل بالمصيدة اي الشبكة نفسها . ويجلس الصياد واحدى عينيه في الثقب الاول ويده تمسك بالحبل في انتظار اللحظة التي تزدحم فيها الطيور في منطقة الخطر او في الشبكة التي تكون عادة صغيرة لا يزيد طولها على ثمانية عشر قدماً وعرضها في اوسع منطقة منها اثنتا عشر قدماً ومع ذلك فقد يحصل الرجل خلال عمليات الصيد على مائة وعشرين طيراً ما بين (خضيري) وطيخ خواض . بالاضافة الى ما قد يكون من الطيور الاخرى في داخل الشبكة عند سحبها وهم يحصلون من دجاج الماء على عدد اقل بكثير من الخضيري غير اني سمعت بان احدهم استطاع خلال السنة الماضية ان يحصل على ثلاثين من دجاج الماء مرة واحدة خلال محبه حبل شبكته .

اما في بقية أنحاء العراق فتصاد الطيور بكميات هائلة دون اعتبار للعدد الذي لاحصر له من الاطلاقات التي تستنفذ من هذه البنادق التي تعبت من فوهتها . ويستورد العراق من الخارج اكثر من مليون خرطوشة في العام الواحد . ولن نكون مخطئين اذا قلنا ان المليون من الخراطيش يعني قتل مليون من الطيور . وانها لرياضة محببة لدى الناس الاغنياء ان يخرجوا للصيد بسياراتهم . وقد اصبحت مطاردة الغزلان في الصحراء بهذه الطريقة نوعاً من رياضة شائعة ، وهناك في لواء العمارة سواق سيارات تخصصوا بهذا الشيء ، ويمكن للجماعة من هؤلاء ان تصيد خمسين غزالاً او اكثر في اليوم .

وفي الحقيقة توجد بعض انواع من الطيور يمكن اصطيادها بسهولة بواسطة السيارات (كالدراج مثلاً *black Partridge* الذي يظهر ان عدده يتناقص مع الزمن بصورة ملحوظة . وحتى في الربيع عندما تكون اعداد كبيرة من الطيور قد هجرت تلك المناطق فإنك ترى رغم ذلك اعداداً هائلة منها تعج بها الارض ، فكل مساء هناك يشهد عرضاً تقوم به امرب الطيور ، وآلاف الاجنحة تصفق

فوق الرأس ، وكل فجر تشهد سماءه امتدادات طويلة من الخضري الوحشي في طريقه الى البحيرات والمستنقعات الكبيرة حيث ينام هناك طوال اليوم .

وفي قرية - كدي - شهدت مثلاً للحكم المرتجل الجائر الذي يحل محل القانون في مناطق الاهوار العشائرية . فقد استعار أحد الفتيّة ، واظنه كان ابن تاجر ، قلماً فضياً من ثيزيجر . وبعد ساعة او اكثر عاد يقول انه اعطى القلم الى احد الاطفال . ليعيده لنا ولكن الطفل القى القلم في ماء عميق ، ولأن الظلام كان يسود المنطقة فقد تعذر التفتيش عنه في الماء . وكان مضيفنا هو ابن وكيل الشيخ ولذلك حمل في يده عصا خيزران طويلة كدليل على مركزه بينهم ، وكانت تشابه الى حد كبير تلك العصا التي تدل على العظمة والرهبة المألوفة في الجيش البريطاني . ولم اعرف هل ان ابن التاجر يتمتع بسمعة رديئة بينهم ام لا ، ولكن مضيفنا شك به حالاً فعاقبه جزاء لصوصيته وخيانتته . ولم يتدخل ثيزيجر في الموقف وانما اكتفيت واياه بتتبع ما يجري .

وتلقى ابن التاجر ضربة قوية من العصا على وجهه فأخذ يصرخ ويتوجع . ودفعه عدد من الرجال بقوة الى النصف الثاني من البيت وراء الحاجز النائم في الوسط واستطعت من الاصوات المرتفعة ان اتصورهم وهم يضربونه بقوة ، ولم تكن تلك الاصوات مما ترتاح له الآذان . واخيراً اغتصب مضيفنا خمسة دنانير من الشاب المسكين واعطاها الى ثيزيجر مقابل قلمه المفقود ، فتقبلها ثيزيجر ذاكراً انه سيعيدها اليه عندما يسترجع القلم .

وبعد ساعة عاد ابن التاجر الى البيت وآثار الضرب واضحة على وجهه وجانب رقبته والقلم في يديه تغطيه رطوبة قليلة وقد اختفت ريشته ، وليس هناك غير القليل جداً من الدلائل التي تشير الى انه كان قد سقط او لم يسقط في الماء . وعندما اراد ثيزيجر اعادة الدنانير الخمسة الى الشاب تدخل مضيفنا ابن وكيل الشيخ قائلاً : « ان النقود يجب ان تصادر كقرامة لمحاولة الصبي السرقة . » وضرب راحة يده بعصاه الطويلة في نوع من التهديد . واخذ الصبي يتذلل ويتعطف وهو يردد ان

القنود أصبحت الآن من حقه ، وسانده تيزيجر في موقفه ثم اغلقت القضية وأرجع له ماله .

وقبل مغادرة - كدي - في اليوم التالي تناولنا الطعام مع صديق كان احد ملاحى تيزيجر في رحلة سابقة ، وكان شاباً شرس الطباع حتى أجبر أخيراً ان يكون كالرعاة يتجول من منطقة الى اخرى .

ولا تدوم اقامة صاحبنا - ياسين - هذا في منطقة ما حتى يضطر جيرانه للانتقال الى مكان آخر بعد مضي ايام قليلة احياناً او بعد عدة اسابيع في احيان اخرى . وكدليل على مركزه الخطر هذا فقد ابنتى لنفسه أضخم كوخ دخلته في مناطق الاهوار كلها ، فمدخله يفتح على الماء مباشرة ، وأرضه التي قفزنا اليها لا ترتفع اكثر من اربعة انشات عن الماء . ولم تكن ثمة قصبه خارجة عن تنسيق الكوخ العام . ودخلناه فكان الجو يوحى وكأنه نموذج لمتحف يجب الا تسكنه غير تائيل جبسية لا يمكن ان تصيبه بأذى . وفي منتصف الجدار اخذ يتأرجح مهد من (البردي) لطفل رضيع تغطي جسمه الاحمر الوردي قطعة من قماش ناصعة البياض تماماً لم اشاهد مثلها في الاهوار من قبل . والوسائد والمقاعد التي رأيناها في الكوخ لا تعود الى ياسين وانما استعار الكثير منها ، ليقوم لنا بواجب الضيافة ، بسبب فقره المدقع . وكان استقباله الحار لتيزيجر مؤثراً جداً فقد انحنى وقبل يده بجمرة وجسده كله يرتجف من رأسه الى اخص قدميه كما لو كان مصاباً بنوبة حمى . ولا يمكن لياسين ان يهرب من سمعته الرديئة التي تلاحقه حيثما وجد ، لأننا اكتشفنا بعد ثلاثة ايام انه قد فقد قسم من سلسلة طرادتنا فشك عماره وسببتي بأن ياسين هو الذي سرقها ليس لحاجته اليها وانما ليشوه سمعتهم امامنا .

وقنا بسفرة قصيرة من قرية - كدي - خلال هور هادى و فيه الكثير من الجزر الى - العكر - وهي قرية مزدحمة تقوم على جزيرة كبيرة يحيطها عدد كبير من الاكواخ القائمه على جزر مستقلة بها . وهنا وجدنا السكان مصابين بجمى وبائية لذا سرعان ما كان تيزيجر يستدعى في الحال لزيارة اولئك الذين كانت

حالتهم اخطر من الآخرين. ولم يسمح لي بمرافقته خوف العدوى بهذا المرض المجهول. فتركته عند باب اول كوخ دخله في حين وقف هو جانبا ليفسح الدرب لبقرة يتبعها وليدها وعلى فمه (مجمه) تحول بينه وبين رضع ثدي امه . وتركني ثيزيجر مع احد اصدقائه من السادة ، فرافقني هذ ما يقارب الساعتين خلال تجوالي في القرية . وكانت تلك تجربة غريبة بالنسبة لي فقد تبعنا في البداية عشرون مشاهداً، وارتفع الرقم بعد نصف الساعة الأولى الى اكثر من مائة ، والعدد يتصاعد عند كل لحظة حتى اخذ تقريباً كل رجل وطفل غير مصاب بالحمى ينظر في هذا الرجل الابيض الذي كان يتجول وعيناه تدوران في اجزاء قريتهم . ولم استطع ان افتح فمي بحديث مع (السيد) يخفف ما احسّه من ضيق لاني لا اعرف من لغته غير القليل ولم استطع من جهة اخرى ان اتجاهله او ادير له ظهري لأن الامر يتطلب احترامه ولا يوجد اخيراً ثمة مكان اهرب اليه ، وشعرت كذلك بانني يجب الا اضيع فرصة موثقة كهذه اتمكن فيها من رؤية كل شيء في احدى قرى الاهوار ، وهذا شيء لم يتيسر لي القيام به سابقاً .

لذلك رحمت انخطر بين اكواخ القرية كجنرال على رأس جيشه المنتصر ، والجيش الذي املكه الآن يتكون من اطفال مسلحين بأعواد القصب يسرون امامي لمهاجمة الكلاب النابحة ، وعلى الرغم من جميع الظروف التي تصدني عن النظر والملاحظة التامة فقد استطعت ان اتعلم اشياء كثيرة لم اكن اعرفها من قبل.

فقد رأيت بصورة خاصة ولأول مرة عملية صناعة الحصران (البواري) ... الصناعة التي يعتمد عليها معظم سكان الاهوار للحصول على التقود لانشاء الاكواخ . والعملية الاولى لهذه الصناعة هي نقل القصب المقطوع الى البيت وشقه طولياً بسكين قصيرة منحنية . ويتم ذلك بسرعة مدهشة ومع ذلك فقد رأيت جروحاً مختلفة غير متوقعة عند خبراء هذا العمل . وعندما ينتهي شق القصب ينشر على الارض ثم يرضّ بمدقة يبلغ طولها ثماني عشرة بوصة لها رأس يقطع من جذع نخيل . وهذا الرضّ يجيل القصب الى اشربة مسطحة عريضة كل واحد منها يتكون من ثلاثة أو ستة اشربة متوازية ومتصلة على الجانبين . ويمكن خزن القصب

على هذه الحال لأن هذا الرض يمنع من ان يصبح هتاً . وترى الشخص الذي يحيك (الباربة) جالساً على الارض وهو يقوم بعملية الحياكة والقصب منشور أمامه . (والباربة) الكاملة الصنع تكون ذهبية براقه وتنقل السفن التجارية الى خارج الاهوار اكدا من (البواري) تباع ليس في جميع انحاء العراق فحسب وانما تتمدها الى الاقطار المجاورة . ويأخذ رجل الاهوار حوالي اربعين فلساً عن كل (باربة) طولها ثمانية أقدام وعرضها اربعة ، وقد رأيت ايضاً نوعاً مشابهاً لها مرة يباع في اسواق لندن بسعر دينارين للياردة الواحدة .

وبالاضافة الى تسقيف الاكواخ بها وفرشها على الارض فللبواري استعمالات متعددة ، فقد تفرش على الارض بأعداد كبيرة وترفع حواشياً وحينئذ تستخدم لتجفيف الحبوب تحت الشمس ، وتخزن تلك الحبوب بعد ان تجفف في تركيبه مدور طويل تكون جوانبه من هذه البواري ويختم اعلاه بفضلات الجاموس التي تتناسك كالسمنت صلابة (١) .

وحان وقت رجوع الجاموس فعاد معظمه وحده بيد ان احدها تخلفت عنه وراحت تسبح في البحيرة ولم يظهر منها خارج الماء غير وجهها ، وكان يتمطيها طفل صغير وهو يمسك قرنيها بكلتا يديه وفوق رأسه دشداشته المطوية . اما الجاموس الذي وصل قبل عودة المشاحيف المحملة بالحشيش الاخضر فقد احاط بيوت اصحابه واخذ يجأر بأسمى وحنق . وهنا ، كما في قرى عديدة اخرى ، حيث توجد تربة يابسة بين الاكواخ حفرت جوانب هذه الاكواخ عند اسس جدرانها على شكل خنادق من حوالها لحمايتها من ضغط اجساد الجاموس الضخمة . ومن قرونه المدببة عندما يحلوه اث يداعب قصب الكوخ من الخارج ، وراح الجاموس يحدق في هذه الحفر ويجأر من جديد .

وكان (السيد) يقوم من حين الى آخر بتفريق الحشد الذي تجمع من حولنا . واطنه ادرك اخيراً حيرتي واضطرابي فأدخلني في دار احد التجار وترك الحشد

(١) ان مخزن الحبوب هذا يدعى عندهم (محرز) ، واطنه الشكل البدائي لسايلو .

الخائب يثرثر بكآبة في الخارج .

ويوجد في كل قرية كبيرة تقريبا حانوت مثل هذا الذي دخلناه الآن ، وهو لا يختلف عن بقية الاكواخ الا في العلم الابيض الصغير الذي يرفرف على طرف قصبة طويلة فوق سطح الحانوت . وقد رصفت على جدار الكوخ الداخلي صناديق بسيطة تحتوي على الرز والقهوة والسكر والملح ، وفي بعض الاحيان على عدة ياردات من القماش وعلى سكاير وتبغ وورق تبوغ . والتبغ هنالك رخيص السعر بمقارنته بما في اوروبا الى درجة لا يمكن تصديقها فالعلبة الكاملة التي تحتوي على عشرين سيجارة تكلف ستة عشر فلساً (١) اما اولئك الذين يقومون بصنع سكايرهم بانفسهم بطريقة (اللث) فيمكنهم تدخين نفس العدد بثمانية فلوس . لذلك فالتدخين عندهم لا يمكنه ان يؤثر على ميزانية الفرد . والاطفال يبدأون بالتدخين في بعض الاحيان وهم في الرابعة او الخامسة من العمر . وعلى الرغم من كل هذه العوامل التي تشجع على التدخين فإن عدداً قليلاً جداً من المعدان ظهر لي اكثر تدخيناً من الرجل الانكليزي المتوسط في عملية التدخين والذي يدفع في هذه اللحظة ، التي اكتب فيها ، مبلغاً اكثر بعشرين مرة من رجل الاهوار الذي يدخن نفس ذلك العدد من السكاير . وبسبب رخص التبغ في العراق فقد جرت العادة ان يقدم المضيف اذا كان غنياً علبة سكاير كاملة لكل شخص من ضيوفه كما هو الحال في اوروبا مع فرق واحد هو ان المضيف الاوروبي يقدم سيجارة واحدة من علبة او صندوق من سجائر خاصة . ويظهر هذا الامر مريباً في البداية حيث علب السكاير في المضيف فخمة تبدو عليها علائم من ابهة وسطحها ذهبي نقشت عليه كتابة مزوقة بخط عربي انيق . ولما كان ملاحونا يدخنون بصورة قليلة جداً وثنيزيجر نفسه لا يدخن ابداً فقد اعتدت مفادرة المضيف وفي جيبي مائة وعشرين سيكارة لطيفة الشكل .

وفي بيت هذا التاجر رأيت جهازاً للراديو من النوع الذي يعمل بالبطارية ،

(١) ان اوطأ سعر بلغته علبة السجاير التي يقصدها هنا المؤلف خلال هذه السنوات هو ٢٦ فلساً فقط .
المترجم

وهو أحد جهازين فقط رأيتها في كل مناطق الاهوار ، وقد ملاً صوته كل زاوية من زوايا الحجرة الصغيرة وهو يطلق آيات من القرآن بصوت جميل عذب يتملك المشاعر .

واخيراً التحق بي فيزيجر في بيت التاجر وقد اصبح مصدراً موثقاً يزودك بكل ما تريده عن صفات تلك الحمى الغريبة واعراضها ولحظة بعد اخرى اخذ يقترب اكثر امسياتي غرابة وتأثيراً في نفسي من نهايته .

وهبت عند المساء عاصفة شديدة وتراحم الليل بصفعات الريح وضرباتها على قصب واجهة الكوخ مختلطة بصراخ الاطفال وطققات المطر على السقف . وانبتق جدول ناعم من ماء الامطار من السقف على وجهي . وخيل لي ان ارض الكوخ هي الاخرى تزدهم بأجساد اشخاص غارقين في سباتهم العميق يحولون دون امكاني ان انقلب على جنبي . وبعد فترة من نفاس ثقيل يخدر اعضائي احسست بشخص لا مرئي يمك بكدمي ويسحبني الى زاوية اخرى من الكوخ . وارتفع لفظ وضجيج وحركة من حولي وعلمت اخيراً ان مضيفنا كان يأخذ البواري من تحتنا ليزيد من صمود سقف الكوخ الواهن امام المطر... انها حياة بسيطة ساذجة، حياة الاهوار تلك ، يستوي فيها فراش الانسان والسقف معاً .

وكانت لنا عودة من - العكر - الى قرية - ام الجريفات - لنكمل رحلتنا في شمال المنطقة . وحين توغلنا في قلب الاهوار لاح الاختلاف واضحاً في نمو النباتات هنا عنها في اية بقعة اخرى ، وصرنا نشق طريقنا خلال غابة من القصب الاخضر أطبقت علينا من كل الجهات . وزحف الليل بكل رهبتة وغموضه وعظمتها التي اخذت امتشعرها واعيشها كلما غابت شمس يوم من أيام الاهوار . كانت السماء تصطبغ بلون اصفر في البداية بينما تلوح اعواد القصب الى الشرق غارقة بلون برتقالي والماء ارجواني اللون تحت قمر متلألئ يتوج السماء. وفي الأجواء البعيدة امتطى نسر ضخم متن الرياح المتلاشية بين غيمتين قرمزيتين وعندما غاص من السماء فيض نور

الشمس المنحدرة اتشح الماء بوشاح خفيف من ضوء قمر باهر بينما تتوهج وتتألأ
بعض نجيمات لامعة في سماء صافية الا من غيمتين طويلتين سوداوين .

وعندما وصلنا القرية كان القمر والنجوم يلعبان فوق رؤوسنا، وسحبنا الطرادة
الى نفس الكوخ الذي كنا قد مكثنا فيه قبل اسبوعين . وانك لتشعر وانت
تعود الى مكانٍ اختبرته وعرفته في تلك البيئة الغريبة وبين تلك الاشياء المتنافرة
العجيبة ، وكأنك تعود الى بيتك .

وفي الحقيقة لم يكن حضور الضيف في تلك الليلة هو الذي شغل افراد تلك
العائلة ، لأننا قفزنا من الطرادة لنصبح في وسط جدل ونقاش حاد يشعرك وكأنه
ثار منذ ساعات عديدة . وتوقف الرجال الذين كانوا يجلسون حول النار عن
جدالهم فترة قصيرة تبادلنا خلالها تحيات اللقاء ، ثم عاودوا نقاشهم بالسكهم
وايديهم التي تلوح في الهواء بعصبية لتؤكد كلماتهم .

وظهر لنا اخيراً ان احد الاشخاص في القرية اعتدى بالضرب على رجل آخر
لسبب لم يكن واضحاً حتى تلك اللحظة ، وكان رئيس القرية يحاول جاهداً تسوية
الموقف مع الجاني . وكنا قد رأينا حين دخولنا الجاني والشخص المعتدى عليه
يتجادلان بعنادٍ واصرار، ولم يكن لأي منهما من الاستعداد ما يجعله يستمع الى دفاع
الآخر عن نفسه ، وبعد لحظات اصبح الموقف تماماً كما كان قبل وصولنا .
ثم ساد السكون وطلب الرئيس ثلاثة دقائق كتعويض للاضرار التي الحقت بالمعتدى
عليه . ووافق الجاني على ذلك قائلاً « حسناً ... سندفع ما طلبته ولكننا سنغادر
قريتكم هذه غداً ! » . كيف انتهى الامر ... وكم من البساطة ! .. وبعد خمس
دقائق ثار الجدل والنقاش مرة اخرى . وبقيت القضية معلقة عندما تفرق الجميع
قبل العشاء .

وبعد تناول الطعام قدم لنا (البرغوث الراقص) عجائب فنه في الرقص ثانية .
وكان يجلس صغيراً هادئاً خجولاً بين مداعبات الكبار له ولم اكن اظن رقصاته
ستكون اكثر خشونة وأعنف من ذي قبل ، بيد ان الامر كان كذلك وقد عبر
برقصه العنيف عن كل توتر الاصوات الغاضبة التي كان يصغي اليها قبل قليل ، وعبر

عن كل وسائل الاغراء التي اتبعت مع الرجل الذي اجبر على دفع ثلاثة دنانير جزاء تعبيره عن غضبه بمثل ذلك الشكل ، وعبر كذلك عن انتصار الضحية أو المجني عليه وهو يرى خصمه يداث امام عين القرية .. كان الصبي يقف وهو يتلوى ويرجف اعضاءه امام كل مشاهد من الذين احاطوه ، وكان يمسك بانف ذلك المشاهد ويضربه بعنف قبل ان يتحول الى الآخر . ولم تكن حالة عظام انفي قد تحسنت منذ حادث (ام الكرون) وان اقل لمسة منه لا شك ستسبب له المأ شديداً . ولذلك جلست في حذر وخوف ويدي امام وجهي احتمي بها حتى همس احداهم في اذن الصبي يخبره عن السبب في عدم اشتراكهم . وعندما وقف (البرغوث الراقص) امامي اخيراً رمى يدي جانباً بقوة ، وبينما كنت اتهاً للاسوأ زرع الصبي على جيبني .. قبلة رطبة دافئة !

☆ ☆ ☆

لقد أحال المطر رصيف الجاموس الى مستنقع من (سرجين) وحشيش ، وفي القسم الخاص بالعائلة ثلاثة عجول اضطجعت برضى واقتناع الى جانب النار وجسدها مغطى (بالسرجين) بينما كانت رائحته المختلطة بأنفاسها الدافئة تملأ الجو طوال الليل . وقبل ان اضطجع لأنام ذهبت الى رصيف الجاموس لأقضي حاجتي الطبيعية وتلمست طريقي بين اجساد الجاموس الضخمة ، وكانت جوانب اجساده والارض المحيطة بها ملطخة (بالسرجين) الذي تأبى فيه القدم الا ان تتزحلق . ومن حافة الجرف الذي أقف عنده كنت اتمكن من رؤية البيت التالي لنا ورصيف الجاموس تضيئه النار التي ما تزال تشتعل من خلفه ، وتراهى لي هناك كلب يصعد جاموسة تنط في نومها ليقضي ليلته على ظهرها . وعلى ظهر الجاموسة المجاورة وقفت دجاجة وهي تنقر عليه ، وعلى العمود الفقري لجاموسة ثالثة كان ثمة طفل يحاول موازنة نفسه على رجل واحدة .

☆ ☆ ☆

غادر نيزيجر - ام الجريفات - في اليوم التالي لكي يجري في قرية مجاورة مفاوضات تخص قضية خبطة عمارة . وانطلقت انا وعمارة نصطاد الخنازير في

قارب استعرناه من احد الرجال هناك . ونجح كل منا في قتل خنزينين ، ووجدت صيد الخنازير في هذه المرة اسهل مما توقعت . والخنزير الثاني الذي اصطدته كان يسبح حين اطلقت عليه النار ومرة واحدة اختفى رأسه وغاص جسده تحت الماء ، واطنه اضخم خنزير رأيت في الاهورا .

وتكلفت مفاوضات تيزيجر بالنجاح . وشهد مساء ذلك اليوم افراحاً صاخبة بسبب خطبة عماره ، وازداد الغناء والضرب على الطبل حدة ومرعة و (البرغوث الراقص) تحطف على تقاطيعه نار الاطلاقات الناقذة عبر سقف القصب وهو في حفزاته وحركاته المثيرة . وعندما كان الصخب على اشده اخذ رجل ضخم من بين الحاضرين يتامل في مكانه وراء ضوء النار ، ثم ابتداءً يجاهد خلال حشد الرجال الجالسين ، وهو يمك بكفتا يديه بندقية نحاسية من النوع الذي يعبأ بالبارود من فوهته ، وللحظة او اثنتين اخذ هذا السلاح المرعب يدور دون ما روية او انتباه حول رؤوس الحشد ، ثم راح يدوي فوق الرؤوس بصوت هائل وبالهب والدخان عيزق السقف الذي تساقطت منه زخة من نثار قصب محطم ، ثم في لحظة من صمت قاتل ترنح خفاش كبير الحجم من السقف وسقط في اواني القهوة .

وفي هذا الوقت كان (البرغوث الراقص) يستريح من وصلات رقصاته العنيفة وببيده سيكارة وصلت الى نهايتها ، فرمى العقب باتجاه الموقد ، إلا انه سقط في حوض تاجر يدعى - حسين - عرف بالكبرياء وبسوء السمعة . ولاحظ (البرغوث الراقص) ذلك بتلذذ وغبطة . واخذ العقب يحترق للحظات دون ان ينتبه اليه احد ، وما تمكن من حرق الدشداشة حتى لامس الجسد ، فقفز التاجر حسين على قدميه بصيحة من دهشة والم . واخذ يتلفت حواليه ، والعيون كلها تتطلع اليه ، ولكي يداري خجله من الموقف حوّل صيخته الى ابيات من رقصة الحرب (الهوسة) . وفي الحال كان الحشد كله قائماً على قدميه ، يوقع ويدوي بلحن (الهوسة) العنيفة ، والبيت بينائه كله يهتز معهم . وبسبب ضغط الاجساد والحركة الكبيرة انطلقاً المصباح ، وماتت نار الموقد تحت الاقدام الثقيلة . ولم يمكن يشق الظلام الذي اطبق على المضيف سوى خطف البنادق ، وكل اطلاقاً

فيه تتبعها زخّة من نثار القصب المتساقط من السقف .
وعندما انتهى الحفل وجد السقف وقد مزقه عدد كبير من الثقوب ... وهكذا!
تكلم احتفال خطبة عمارة بأكبر نجاح .



الفصل الثامن

وفي الصباح كنا في طريقنا من - ام الجريفات - الى الاهوار الشرقية وراء دجلة .

وقضينا ليلتنا في قرية - حوته - التي كانت اول قرية ندخلها من قرى المدان الرحل ، فسكانها يرعون قطعان الجاموس الكبيرة ويتنقلون معها حسب ما تمليه عليهم حاجتها الموسمية . ويتوضح وجه الاختلاف كبيراً بين اكواخ هذه القرية واكواخ المدان المستقرين ، حيث انها لا تبدو اكثر من أقسام ملحقة بلاجيء الجاموس الضخمة او ما يدعى (ستره) . وهذا القسم وان اتصل بنهاية الكوخ ذي الاقواس الضخمة بصورة مباشرة إلا أن طوله يبلغ خمسين قدماً او اكثر ، ويبنى من دون اقواس إلا ان نهايات القصب تتدلّى من الجوانب وكأنها ذبول تعالب . ولا تنتزع القشور من القصب الذي يستخدم في بناء (الستره) لذا تراها وكأنها اعلام صغيرة رقيقة تزين الجوانب العليا من جدران الكوخ .

وقد كانت عائلة عماره مدينة لزم من طويل بثأر لاحدى عوائل هذه القرية ، ومع ان الامر سوّي قبل فترة قصيرة بديّة من النساء إلا ان عماره ظهر عند المساء مضطرباً خائفاً .

وكان العشاء الذي قدم البنا في تلك الليلة اسوأ طعام اتناوله إلى الآن ، وهو يتكون من الرز واللبن . ولما لم يكن يفصل ملجأ الجاموس عن القسم الخاص بالبشر شيء فقد تعين عليّ ان انام والى جانبي ترقد جاموسة راحت انفاسها الحارة تداعب

شعر رأسي طوال الليل . وهبت الرياح في الليل عبر الكوخ واعقبتهما زخة خفيفة من المطر تساقطت قطرات منه على وجهي من خلال فتحة في سقف القصب ، واتذكر اني فتحت عيني فوق نظري في ضوء النار الخافت على امرأة ترضع طفلها من ثدي يابس منكش .

كانت البراغيث في ذلك الكوخ من الكثرة بحيث أحسستها تسير في معظم اجزاء جسدي ، ويظهر ان طعم جسدي لذها حتى باءت بالفشل جميع محاولات بعضها في البحث عن بقعة مني لم تنغرز فيها اشواكها . وثارت اعصابي الى درجة كبيرة فلم ار بدأ من اشعال مصباح محالاً بواسطة تقليل اعدادها الهائلة على جسدي وثيابي . وكنت اعتقد أن الآلام التي احسها سببها البراغيث فقط لأنه لم تتوفر لي فرصة مواتية لفحص ثيابي من قبل غير اني ادركت الآن بأني مليء بالقمل ايضاً ، فقد كان هناك جيشان منفصلان من القمل والبرغوث يعملان ويتنازعان بإصرار على امتلاك جسدي . وبعد لحظة من شرود الذهن ادركت أني عاجز عن القيام بأي شيء ذي فائدة في تلك اللحظة . وتذكرت ان القمل لم يكن يقلقني عندما لم اكن اشعر بوجوده فقررت النوم ثانية ، ولم تتوفر لي فرصة للاستحمام الا بعد اسبوع واحد ، واختفى القمل بعد ذلك بصورة سحرية الى الابد .

ولم يكن ثمة شيء استطيع ان اعمله لتحسين حالة قدمي فبقي منظرهما مشوهاً طوال مدة بقائي في الاهوار . وقد حدث ذلك التشوه فيها لأن العادة تتطلب ان يكون الشخص حافي القدمين في داخل الطرادة كما لو انه في داخل البيت . والبعوض ، وان لم يكن له كبير تأثير أو ضرر الا ان اعداده الكبيرة كفيلة بإزعاج الانسان ، وعندما يضجر البعوض الشخص في الاهوار فليس عليه الا ان يغطي قدميه بطرف دشاشته وهو في جلسته متربعا في داخل الطرادة . وقد كنت احسد تيزيجر ، الذي اعتاد على ارتداء الدشاثة ، لأنه يتمكن من اخفاء قدميه اما من البرد او من البعوض بمجرد مد طرف دشاشته الى الامام . وتلك واحدة من الحالات التي اجد فيها الملابس الاوربية عديمة الفائدة لطبيعة الحياة هناك . وادركت بعد الاسابيع القلائل الاولى ، وقد اضجرتني حركاتي البهلوانية في ملابس

الاوربية ، ان الدشداشة هي اللباس الوحيد الذي يمكنه ملائمة ظروف الحياة في الاهوار . لقد أثبت الواقع ان حزمة الملابس الاوربية التي اشار علي تيزيجر بأخذها معي ، وان كانت كميتها كبيرة ، الا انها قليلة الفائدة في مثل بيئة المعدان تلك . ولو قدر لي ان اعيش بقية حياتي بين المعدان لما تعلمت مطلقاً كيف اجعل من البنطلون لباساً يمكنني ان اخوض به في مياه الاهوار على ان احتفظ في الوقت نفسه بالعادات العربية . وكان شيئاً مضحكاً لشخص مثلي وصل وهو يجهل لغة القوم ان يرتدي ملابسهم ، ولو كان علي الا آخذ بنظر الاعتبار سوى نفسي لما ترددت لحظة واحدة في استبدال عدم الراحة بالسخرية .

☆☆☆

وعند مغادرتنا قرية - حوته - ودعنا المستنقعات والاهوار الوسطى الواقعة غربي دجلة ، فعند فجر ذلك اليوم عبرنا النهر العظيم ولم نعد لتلك الاهوار ثانية . ومررنا بمنطقة من المياه مكشوفة ، وعند الافق يبدو خط من النخيل وعندما اقتربنا منه كنا كمن قفز الزمن وطوى ايام التاريخ حيث صك اسماعنا منبه سيارة .. سيارة !! وكانت على مسافة عدة مئات من الiardات عنا . وأعقب دوي المنبه صوت عجلاتها المطاط وهي تنهب الارض الصلبة ... اصواتاً نسيناها ربما عدنا نفكر في غير ضجيج الهور واصواته الغريبة . ومررنا قرب الطريق الرئيسي ، واخيراً دخلنا في دجلة نفسه ومرقد - العزيز - بمنارته الزرقاء والخضراء يحجب عنا خط النخيل الواقع على يسارنا . وعندما تلاشى النخيل اخذ النهر يشق طريقه في ارض طينية مسطحة لا تتميز بشيء معين . وكان طريق السيارات يحاذي شواطئ دجلة على مسافة ياردات معدودات عنه ، بينما راحت سيارة كاديلاك قرمزية اللون تنهب الارض ، وكانت مفتوحة من الاعلى وكوفية السائق ترفرف ورائه في الهواء . وكان يقودها بمعدل مائة ميل في الساعة مع ان اباه لم يكن في زمن ما اسرع من الجمل او الحصان الذي يمتطيه .

وسرنا في دجلة ضد تياره الحاد لعدة اميال ، وفجأة اختفى طريق السيارات وكل ما يوحي بمضارة القرن العشرين عن ناظرنا حتى التقينا بعدد من وسائل النقل

النهرية البدائية . وتتكون هذه من القصب المقطوع ويبلغ طول الواحدة منها مائة قدم وعرضها ثلث هذا الرقم اما ارتفاعها فعشرة اقدام ، وهي تنحدر ببطء مع التيار تحمل كل منها على ظهرها رجلين او ثلاثة في سفرة الى البصرة تستغرق عدة اسابيع .

ولكن برز مرة اخرى ما يذكرنا بالغرب حين نزلنا في قلعة احد الشيوخ الواقعة على ضفة النهر ، فقد وجدنا ثمة قنينة فارغة من *Gordon's Gin* مرصوفة بين ادوات القهوة ، وتراعت لنا بالاضافة الى ذلك احدى نوافذ القلعة وقد اصلحت بصفيحة معدنية تعلن عن منتجات شركة نفط امريكية .

ولم يكن هناك ما يوحي بوجود حياة انسانية من حولنا سوى القلعة التي يجلس فيها الآن ، وعلى احد جوانبنا يجري دجلة بين ضفاف طينية وقد اضطرب سطحه برياح عالية من سماء شاحبة زرقاء، وعلى الجهة الاخرى امتدت حافة فضية للاهوار التي تتجاوز الحدود الايرانية . وعندما تحولنا في سيرنا عن المجرى الرئيسي لنهر دجلة اصبحنا على مسافة عدة امتار من القلعة ، وفي الحال صرنا نسير عبر مدخل الاهوار الشرقية .

والاهوار الشرقية وسكانها يختلفون تماماً عن اهوار وسكان الضفة الغربية من دجلة . ويعود هذا الاختلاف الى اشياء صغيرة عديدة لم استطع ان احدها او اميزها في البداية . فحياة الناس هنا غير مقيدة تماماً بأصول وقواعد اجتماعية معقدة لا في اللباس ولا في العادات ، والكوفية البيضاء المرقطة بالاسود تتلاشى كلما توغل المرء الى الشرق حتى تحمل محلها مجرد قطعة قماش سمراء يغطى بها الرأس على هيئة عمامة دون عقال فوقها ، اما السرة الاوربية التي يلبسها الرجال فوق الدشداشة في الاهوار الوسطى فقد اخذت تتلاشى هي الاخرى حتى اختفت دفعة واحدة ، وذلك الكرم العجيب انقلب الى اشياء بسيطة . والناس هنا يعبرون عن رغباتهم واهوائهم بحرية اكثر غير مقيدين بقيود ثقيلة من التقاليد او العادات . ولاح لي أن الناس ولا سيما من عشائر - الفريجات والسواعيد - المتنقلة يختلفون في الجنس عن سكان الاهوار . فعدد كبير منهم يتمتع بلامح جميلة والعيون الخضراء والزرق تكثر

بينهم ويتميزون بلحية وشوارب يعتنون بها ويحفظون طولها المعتدل .

وهناك جماعة من الرجال في الاهوار الشرقية ليس لهم من عمل يقومون به غير التهريب وتاريخهم حافل بالاصطدامات المسلحة مع شرطة الحدود . وكلما اقتربنا من ايران ازداد حذر ملاحينا ومراقبتهم خوفاً من السرقات اذ يسهل على اللص ان يهرب عبر الحدود .

وصرنا الى الشمال الشرقي واقتربنا اكثر فأكثر نحو الحدود وقضينا ليلتنا الاولى في (بدعة النوافل) وهي مناطق اهورار موسمية تسكنها عشيرة للشدة - وقضينا ليلتنا الثانية في - ابوليله - وهي قرية كبيرة يسكنها جماعة من عشيرة - الفريجات - المرهل . وتشح المياه كثيراً كلما ابتعدنا عن - ابوليله - وكثيراً ما كانت الطرادة تقف في قنوات مسدودة . فيتعذر عليها السير . وقد احرق المعدان في هذه المنطقة غابات القصب فاستحالت الى بقع سود من الارض تتخللها نباتات شوكية حديثة العهد . وتعمر هذه المنطقة اسراب من الطيور المختلفة الاشكال والالوان الزاهية كأبي منجل وانواع متعددة من مالك الحزين *Heron* ، وتنتشر فيها كذلك اللقائق ونعيج المائي واعداد لا يمكن حصرها من الطيور الخواضة تحوم فوقها النسور في سماء صافية زرقاء الا من قزعات من غيوم بيضاء متناثرة هنا وهناك . وحين وجدنا انفسنا وقد نجحنا في اجتياز الف ممر مغلق ، وغادرنا هذه الارض المحترقة . وصلنا الى مواطن عدد من القبائل المتنقلة وقد قوض المعدان فيها (ستره) الجاموس ... وفي اقرب كوخ منها حططنا الرحال .

وكان مضيفنا قصيراً ناحل الجسم يعجز القلم في التعبير عن مظهره وملابسه فهو يرتدي دشداشة استقرت فوقها ستره من الخاكي لاح وكان عمرها قرون عديدة ، وقد شدها حول وسطه بجزام من قصب ملتو مضغوط الا ان سترته كانت من القصر بحيث يصعب على حزامه السيطرة عليها فتهدلت على الجانبين لتكشف عن جسده الناحل والشعر الغزير الذي يكسوه . اما حول رأسه فقد وضع عمامة من قماش معزق يصعب على المرء ان يميز لونها معيناً له .

وهنا في قرية - جريوه - شعرنا مرة ثانية بالعداء نحونا ليس من الانسان في

هذه المرة واتما من الطبيعة نفسها . فقد اخذت الرياح تهب بشدة في اللحظة التي وصلنا فيها ، وغابت الشمس فاطلمت الدنيا وغازت جميع الالوان من السماء والارض حتى صارت الدنيا من حولنا وكأنها حصى الشاطئ البحري الصلي اللون عندما تنحسر عنه الشمس والبحر معاً . وفي امتداد الاقن الشاحب كانت الرياح تهب لتخني وتتلاعب بالبردي القضي اللون وميل بعد آخر تقطعه في المياه فلا نجد شيئاً صلباً من حولنا غير الارض القريبة الى الامام منا .

ومع ذلك فقد كان طول القصب البعيد المرتفع يفرر بنا ، لأننا سرنا اكثر من ساعة من قرية - جريوه - قبل ان نصل قرية كبيرة انشئت فوق مجموعة من الجزر الطينية ، وشوارعها عبارة عن مسالك مائية تربط اجزاءها بعضها مع البعض الآخر وتدعى هذه القرية - الترابيه - ومجرد ذكر اسمها الآن يثير في نفسي ذكريات مرة لحادث مؤلم ومنظر رأيت لأول مرة فتملك مشاعري ، غير انه ، كان شيئاً اعتيادياً لدى سكان الاهوار .

فقد اخذت الرياح تهب بشدة وعنف خلال الساعة الفاتية . وعندما هبطنا الى الشاطئ كانت تلك الرياح قد تحولت الى عاصفة قوية حملت معها حطام القصب لتذره في العيون ولتغطي به وبرمل الجزر الطينية كل شيء في المنطقة . وقد وجد نيزيجر له ملجأ يحميه من كل هذا خلف احد البيوت حيث انشغل يداوي طفلاً مزق كتفه خنزير شرس . وكنت فرحاً لأنه لا يوجد ثمة شيء يستدعي دخول الكوخ والجلوس متربماً في داخله . فوقفت في الخارج قرب المدخل اجول بناظري عبر خط الماء الذي يشبه شارعاً في المدينة يفصل بين جزيرتنا والاكواخ المقابلة لنا في الجزيرة الاخرى .

وما زالت احداث الدقائق التالية تتراعى لي كطيف خيال بعيد لم يتلاش عن ناظري وعن خيالي شيء منه . فقد ارتفع صوت المؤذن من جهة لا مرئية من القرية . وكانت تلك المرة الاولى التي اسمعه ينطلق فيها من الاهوار . وكانت جيوش الظلام تبتلع ضوء النهار تدريجياً ، وذلك وقت خروج النساء للماء جرارهن بالماء . وهبط من الجزيرة المقابلة لي ثلاث منهن وكن قد خرجن من ثلاثة بيوت

متقاربة والجرار فوق رؤوسهن نحو منحدر النهر . وهبطت كذلك من الضفة التي كنت اقف فيها ثلاث نساء أخرن بمواجهة الثلاث الاول . ووصل الماء الى الركبة منهن ، وملأت الجرار ورفعت كل واحدة وعاءها فوق رأسها وخرجن من الماء في توافق وانسجام عجيب ، وبينما كن عائذات الى بيوتهن حلق في الجو صرب من طيور بيض اخذت تغرد فوق البيوت بانخفاض كبير وكأنها دفعة من الزبد فوق موجة من مياه البحر تندفع الى امام ، وعبرت الطيور من فوق رؤوس النسوة بحفيف ناعم من اجنحة بيض كالثلج ثم توارت عن الانظار .

وفجأة ، وانا في وقفتي تلك ، انطلق من البيت المقابل لي مباشرة صياح وصراخ شديدان . وكان ثمة طفلين خرجا يركضان من ذلك الكوخ والقيابنفسهما في الارض الضيقة الفاصلة بين جدران الكوخ والماء ، وراحا يضربان بأنفهما الصغير على الجدران بجدة والم ويخمشان ملء اكفهما بنثار القصب وكتلا من الطين يرميانها هنا وهناك وعلى نفسها ايضاً . واندفع بعض انفار من الرجال من ذلك الكوخ واخذوا يدقون على صدورهم وبطونهم ويضربون يحنون على جدران الكوخ ، واصابعهم تحطف الطين والقانورات من الارض يرمونها فوق رؤوسهم .

واخيراً تمكنت من معرفة سبب كل ذلك ، وتمكنت ايضاً ان اشاهد بعيني اللحظات الاخيرة من حياة شيخ كبير في ذلك الكوخ يرقد على فراش الموت .

ولقد رأيت مثلاً على ذلك بعد مضي بضعة ايام عندما جلبت احدى النساء ابناً وهو يشكو من الم بسيط . وكان اليوم دافئاً والناس في تلك القرية من قرى العشائر المتنقلة ، حيث الماء القليل ، يحيطون بنا وكل منهم منصرف الى عمله . وصرخ الطفل بجدة عندما بدأ يئزجج بفحصه ، ومن دون سابق انذار اخذت المرأة تصرخ فجأة على ان ابناً قد مات . واخذت تولول عالياً وتضرب صدرها بقوة وخطفت كمية من (السرجين) ولطخته في جبهتها والقت بنفسها على الارض . وكان على مسافة عشرين خطوة منها اثنتان من النسوة تطحنان الحنطة فكفتا عن عملها فجأة واخذتا تصرخان عالياً . وشارك المرأة عويلها عدد من الاطفال الذين كانوا يلعبون بالقرب منا بأصوات ناعمة بائسة . وخلال دقيقتين لم تبق امرأة سمعت.

الصراخ الا واخذت تصيح هي الاخرى وتضرب جسدها بيديها . وفي هذه اللحظة نفذ صبر ثيزيجر وانفلت زمام الموقف من يده فصرخ في الناس قائلاً ان الطفل حي واخذ يتلفظ كلمات قاسية في وجه الأم فتوقفت عن الصراخ بنفس السرعة التي بدأت بها . وعندما تحقق لديها ان طفلها ، بعد كل هذا ، لا يزال حياً اخذتها موجة من ضحك ، ولم الحظ اي اختلاف في تعابير وجهها وهي تضحك الآن عنها عندما كانت تبكي . وفي لحظات قلائل عاد الاطفال الى لعبهم والنسوة الى بيوتهن والصبية الى عملهم وكان شيئاً لم يحدث .

وفي الاهوار الشرقية يوجد عدد من الجزر الصغيرة غير المتناسقة يزيد على ما هو موجود الى الغرب من دجلة ، وعلى الرغم من ان عدداً كبيراً منها يزيد ارتفاعه على العشرين قدماً الا انها صغيرة جداً ولا تستطيع ان تحمل اكثر من بيت واحد او بيتين ومع هذا فلم تستخدم لذلك لأن المعدان يخشون اللصوص ويفضلون العيش في بيوت متقاربة لكي يكون تعاونهم مشتركاً في ساعة الخطر ، وتكسو سطح عدد كبير من تلك الجزر قطع من الفخار تلمع تحت الشمس وكذلك تكسوها قطع من الحصى الاسود واخرى من الطابوق ، ومن الصعب ان نكتشف كيف وصلت مثل هذه الاحجار الى هنا . والمعدان يستخدمون بعض تلك الجزر لدفن موتاهم .

ورأيت الهور من قمة احدى هذه الجزر يمتد الى الافق من جميع الجهات ، وفي هذا الموسم من السنة كان مخضراً ومخططاً بخطوط ذهبية من قصب له من الطول ما يمكنه من اخفاء القرى المتناثرة فيما بينه .

وسافرنا من قرية - الترابية - الى الشمال متوجهين الى قرية - دبن - اكبر تلك الجزر الرملية على الحافة الشمالية للاهوار الشرقية . واستغرقت سفرتنا يوماً واحداً تناولنا الطعام خلالها في قرية صغيرة تدعى - ابو صخير - في بناء جميل يشبه الكوخ ، اما مدخله فكان الشكل الوحيد من نوعه الذي شاهدته هناك ، فهو يشبه مدخل عش العصفور ، وارتفاعه لا يزيد على ثلاثة اقدام ، وفي هذا البيت اشترت جلدتين لحيوان - كلب البحر Otter - انتزعت الاحشاء منها بصورة عجيبة

من الغم دون ان تحدث اثرأ في الجلد . وعندما جلبت معي احدهما ، وجلبت ايضا حيواناً حياً من نفس النوع الى انكلترا ظهر انه غريب وجديد على العلم الحديث .
ووصلنا بعد الغروب الى - دين - والسما ما تزال صفراء عند الافق الغربي .
واشباح الاكواخ لاحت سوداء من بعيد بينا النار المشتعلة في داخلها تضيء عليها
لونا كطيف الغروب القرهزي ينعكس على مياه هادئة قرب مدخل كل كوخ .
ولاح شبح اسود لشخص رمى على سطح احد الاكواخ دجاجتين سوداوين اخذنا
ترفرفان تحت خيوط الشمس الغاربة الواهنة .

وكان المضيف الوحيد في - دين - تملكه امرأة ، وهذا شيء تظهر مخالفتها
واضحة للعادات والتقاليد هناك . وكانت ارملة (مركال) الشيخ هذه قد حصلت
على ذلك في ظروف قلقة ، وكنتيجة لطرده الشيخ نفسه من قبل رجال عشيرته .
من غير الممكن ان تعيش في تلك المناطق لبعض الوقت دون ان تسمع كثيراً
عن - الشيخ ناصر بن سلمان - لأن مجرد ذكر اسمه يعني الحذر والخيانة .

وقد كان اصغر ابناء ابيه ، وله ايضا عدد من الاخوة لأبيه سلمان من نساء غير
أمه . و ارادت - ام ناصر - التحكم في امور الشيخ المسن سلمان . ودبرت خطة
لابنها كي يرث ويستولي على ثروة ابيه كلها ويحرم بذلك اخوته لابيه الآخرين . وقيل
انها دست السم لأحد ابناء زوجها ، ويشك بأنها دبرت قتل اثنين آخرين منهم وهما
عائدان من دفن جنازة اخيهم الاول . واخيراً اقنعت الشيخ سلمان ان يسجل جميع
امواله واملاكه باسم ناصر .

واستغل ناصر بدوره هذه الثروة ابشع استغلال واكتسب خلال عدة اشهر
سمعة خاصة بين الناس لقسوته وعدم التفاته الى شؤون الفلاحين . وكون له عدداً
من الاصدقاء الاوربيين في بغداد والبصرة لا يحسد عليهم ، واخذ يشرب الخمر
ويلعب القمار ويبتز الاموال .

واخيراً لم يستطع - طالب - ابن احد اخوته المقتولين ان يتحمل اكثر من
ذلك . وهو وان كان صيباً في السادسة عشرة من العمر غير انه جمع افراد عشيرته

واعلن الحرب على جده سلمان الذي حرّمهم الا - ناصرأ - من ثروته . وعندما علم سلمان بذلك قرر ان يستقل طرادته ويذهب بنفسه ليدبر الأمر مع حفيده غير ان مستشاريه نصحوه الاقلاع عن هذه الفكرة لأن ذهابه يعني قتله ، فطالب الآن في حالة من الغضب شديدة ولن يقف شيء دون قتله جده . بيد ان سلمان وافق على ارسال احد (الساده) كسفير بينهما ، ولا شك ان طالب سيجبر على احترام هذه الشخصية الدينية . ولكن هذه الخطة برهنت على فشل ذريع ، فعندما اقترب (السيد) من قلعة طالب بمشجوفه مرفرفاً بكوفيته الزرقاء في الهواء على طرف قصبه طويلة لتدلل على شخصيته انطلقت من القلعة اطلاقاً شقت المشجوف الى نصفين وحالف الحظ (السيد) ليهرب بجلده .

ومنذ ذلك الحين اصبح - ناصر - في خطر . ومرض ابوه سلمان وهمس الطبيب مرة في اذنه قائلاً ان ناصر عرض عليه ثلاثة آلاف دينار لدس السم لوالده المريض . ولم يكذبه سلمان واخذ منذ تلك اللحظة يفكر في اتلاف كل وثيقة كتبها لصالح ولده العاق الذي انكشف على حقيقته الآن . وابتدأ النزاع بينهما ، وراح ناصر يقابله بمجج قانونية مشروعة وهذا شيء منجمل بين الابن وابيه . وعندما وصلنا العراق كان النزاع قد انتقل الى المحاكم في بغداد . ولم يتوضح لحد الآن موقف الحكومة في هذه القضية التي كان كل شخص في الاهوار طرفاً فيها . وقد وقف عدد قليل من المعدان الى جانب ناصر يدفعهم الخوف اذا ما حالفه النصر . وانتقلت احدى زوجات ناصر المطلقات منه بتأليف اغنية تهجو فيها طباعه واخلاقه الفظة ، وسارت الاغنية في كل حذب وصوب وصارت اغنية الموسم تتردد على شفة كل فلاح يجمع الحشيش من بين القصب ، وعلى فم كل راعٍ يسرح بالجاموس .

وكان علينا في اليوم التالي ان نعيش في حومة هذه المعركة . وفي ليلتنا الاولى في - دن - تملك افكاري واسترعى انتباهي طير عجيب . فبعد ان تناولنا طعامنا مساء ذلك اليوم خرجت من المضيف لبضع دقائق ولما عدت وجدت مقعدي وقد استولى عليه مخلوق تعكس عيناه البرتقاليتان ضوء النار . واخبرني

الرجال هناك انه نوع من العقاب لم يشاهدوا مثله من قبل . وكان قد انطلق بين القصب امام جماعة من المعدان يجمعون الحشيش فسارعوا الى ضربه بعضا الطراوة الطويلة ولم يتأثر بالاصابة كثيراً . ووجهت حزمة ضوء مصباحي اليدوي على الطير فأغض عينيه ولم يتحرك . وكان هذا واحداً من اغرب الطيور التي رأيتها في حياتي يريشه الذهبي والاسود المنتظم وعيناه البرتقائيتان الغامضتان تومضان كما لو ان هناك ناراً تتأجج وراء عدستها . وقد اقتطع صيادوه منه ريش القوادم وستمضي عدة اشهر قبل ان يستطيع الطيران مرة ثانية ، وليس من العسير عليّ ان اتوقع بأن ذهاب فورة حماسهم لهذا الطير معناها موته جوعاً . ولكي نضمن سلامته اتفقت وثيريجر ان ندفع ثلاثة دنانير ثمنا لضيان حياته حتى عودتنا الى - دين - ثانية خلال اسبوعين او ثلاثة . فوافقنا صاحبة المضيف بكل رحابة صدر وسألتنا عما ستطعمه فأشرنا عليها بتقديم اللحوم اليه . وسرعان ما رمى شخص كبير السن مجلس قبالي قطة المضيف نحو الطير . وفعلنا امسك بها العقاب ليأكلها لولا ان خطفها ثيزيجر منه . وتذكرت ان كل مضيف يعج بالحفاش والعصافير ، وفي لحظة واحدة خرجت هذه الطيور وهي تفر من بين شقوق اعمدة المضيف واقواسه السوداء المظلمة امام ضربات عصا طويلة . وهرب الحفاش بسهولة عبر الباب الواطئ الى ضوء النجوم الباهر ، واخذت العصافير تضطرب في الظلمة وتتساقط ولكن سرعان ما كانت القطة تتلقفها قبل ان تصل الارض وكم وددت لحظتها لو ان الشيخ المسن خلصنا منها تماما حين رماها امام منقار العقاب الحاد لأننا لم نفلح في جمع عدد كاف من العصافير للطير الا بعد نصف ساعة .

☆☆☆

ووصل - جابر - اكبر اخوة ناصر لأبيه الى قرية دين في اليوم التالي واصبح واضحا الآن كم خسرو ورثة سلمان الشرعيون فجابر هذا لا يملك حتى ولا طراوة واحدة . وعلى اية حال فقد كان يتبعه ستة من رجاله المسلحين . ولاح وجهه صارما حاد التقاطيع ، وملاحظه تفضح ما يعتمل في داخله من ثورة وحقد .

ولم يظهر في البداية ارتياحا لوجودنا ولم يعلن عن الغرض من زيارته لهذه القرية

الابعد وقت غير قصير . ومر ذكر سلمان وناصر على لسانه عرضا وقال له ثيزيجر :
« انني لا اعرف والدك شخصياً غير اني لم اسمع عنه غير السمعة الطيبة اما ناصر فلا
اقول اكثر من ان كراهيتي له تزداد في كل مرة ازوره فيها ، وحين دخلت مضيفه
آخر مرة خرجت وقد عضني الجوع .

وعند هذا تحركت عواطف جابر فأخذ يشرح الظروف والملابسات التي احاطت
بالقضية . فقد حاصر جابر قلعة اخيه ناصر القريبة وهدد مستوطنها ان من يطل برأسه
خارج جدرانها يكون نصيبه القتل . لذلك اخذت قلعة ناصر ، التي بذلت جهود
كبيرة في تقويتها منذ عدة اعوام ، تحاول جاهدة حقن الدماء ، وهكذا التجأ
ناصر يحتكم عند الحكومة في بغداد فأرسلت معه مفرزة من الشرطة لحماية قلعته .

واصبح واضحا الآن بأن الغرض من حضور جابر الى هنا هو اختبار رجال
العشائر الذين اغتصبهم ناصر منه واثارتهم في حالة وقوف الحكومة الى جانب ناصر .
وكان الاب الشيخ سلمان قد اعطى في البداية اربعمائة رجل مسلح الى ناصر في ذلك
الوقت الذي سجل باسمه جميع امواله واملاكه ، بيد ان ثلثمائة وخمسين من هؤلاء
عادوا الى سلمان حين سمعوا ما اشيع عن قضية الرشوة التي عرضها ناصر للطبيب
في حالة دس السم لأبيه الشيخ المسن .

وقد وعد جابر رجال العشائر الذين يجارون الى جانبه بتوزيع الاراضي عليهم
عند انتصاره على ناصر ، لذلك وزعوا الذخيرة فيما بينهم . وظهرت المشكلة
معقدة متشابكة لأنهم سيبدأون الحرب بعد ثلاثة ايام . وقال لي ثيزيجر : « والآن
يجب علينا مغادرة هذه المنطقة لأن المسؤولية تقتضينا تجنب المشاكل الداخلية في
هذه البلاد بغض النظر عن موقفنا من المتنازعين ، ولم اتدخل انا سابقا في اية مشكلة
سياسية داخلية كانت او خارجية ، لذا لا اود ان تكون هذه بدايتها في حياتي » .
وكانت تلك امسية صاحبة على الرغم من ان كل شيء سار في طريقه
الاعتيادي .

وقد جلس جابر مع رجاله على جانب واحد من موقد القهوة في المضيف .

وطلب فجأة ان تعلق عليه سجائر فارغة فوق باب المضيف من الداخل على بعد عشر ياردات منه ، ثم تناول بندقيته وسدها وسحب زنادها فسقطت العلبة مع قطع ذهبية اللون من القصب المتناثر ، وارتفعت اصوات التشجيع له . وركض احدهم ليلتقط العلبة فاكشف ان الاطلاق لم تصبها . فاغتاز جابر من ذلك وأمر ان توضع له العلبة مرة ثانية واصابتها اطلاقته الثالثة في الوسط . ودعا جابر ان نحاول نحن ايضاً اصابة نفس الهدف . وفي الحقيقة اننا كنا داخل المضيف وعلى مسافة ابعد منه عن العلبة ، ولكن بناذقنا كانت من نوع Colt 45 . ولحسن الحظ نجحت ويزيجر في اصابة الهدف عند الاطلاق الاولى ثم وضعت عليه من الشخاط مرة ثانية . وبعد عشر دقائق فقط انتصبت سيجارة محل الشخاطة وغام المضيف بدخان البارود ، واخذ الحظ يحالفنا المرة بعد الاخرى . وتقبل جابر التحدي فاستمر يطلق بسرعة حتى اصاب السيجارة فقسمها الى نصفين في اطلاقته السابعة والعشرين .

وبقي عقب السيجارة مثبتا في مكانه ، وفجأة امسك احد السادة ، وهو رئيس جماعة جابر ، بندقيته ونهض على قدميه . ووقف متميل الساقين واسند بندقيته الى كتفه واخذ يطلق النار دون هدف معين ، فتناثرت قطع القصب من عمود المضيف على مسافة انج الى جانب عقب السيجارة . وخطا يزيجر وادخل اصبعه في الثقب الذي حفرته الاطلاق واستدار ليتكلم بشيء ما في اللحظة التي رأيت فيها اخمص البندقية يستند على كتف (السيد) في وضع استعداد تام لاطلاقته الثانية . وصرخت بيزيجر أن ينحني . وعندما فعل ذلك خطفت الاطلاق على مسافة ستة انجات من فوق رأسه ومزقت السيجارة فتناثر منها التبغ . ورحت اتساءل مع نفسي فيما اذا حدث ان اقترب يزيجر من الموت يوما او تعرض الى بتر اعضائه اكثر من هذه المرة خلال الخمس سنوات التي قضاها في الاوار .

وركض (السيد) الى خارج المضيف وهو يصرخ ، مع سلمان ضد ناصر ا... » واطلق بندقيته في الهواء . وتبعه جابر ومن ورائه كل رجل في المضيف ثم انخرطوا من حوله في دائرة ، وصاح جابر : « مع سلمان ضد ناصر ا... » والتقط

الحشد كلماته تلك فراحوا يرددونها وهم يدقون الارض باعداد ووحشية في ايقاع
 خفيف لرقصة الحرب (الهوسة) . وعندما كانوا يرقصون كانت بنادقهم تهتز فوق
 رؤوسهم والاطلاقات تعوي بين حين وآخر وتضيع في الاهوار الخالية التي هي
 حق شرعي لجابر . ان معظم هؤلاء الرجال سيموتون خلال اسبوع واحد لو أنهم
 اندفعوا لينفذوا فكرتهم التي هتفوا بها ، لأنه لا يمكن الاستيلاء على قلاع الشيوخ
 بحون اسلحة ثقيلة . غير انه لا بد ان حامية قلعة ناصر قد اخذها الرعب والفرع
 وهي تسمع الاطلاقات المدوية وكأنها تعلن بداية المعركة . وقال لي تيزيجر :
 « لا مفر لنا من مغادرة المنطقة فإننا هنا تحت حماية الحكومة العراقية ولا يجوز
 لنا ان نكون طرفا في نزاع أو اضطراب » .

وعندما انتهت (الهوسة) ودعنا جابر اللاهث الانفاس والعرق يتزنى من
 جسده بفزارة وكوفيته متهدلة تحجب احدى عينيه ... ثم ذهبنا .



الفصل التاسع

مضت ثلاثة اسابيع قبل ان نعود الى قرية - دبن - وقد سافرنا الى الشمال نحو قرية - البيضة - على الحدود العليا للاهوار الدائمة الشرقية . ثم اتجهنا الى جهة الشرق مرة ثانية ، نحو ايران خلال الحد الفاصل فيما بين المياه الموسمية والمياه الدائمة . ههنا انعطفتنا في زوايا قائمة لندخل بحيرة كبيرة لم نجد لها اثرأ في اية خارطة سابقة . كانت البحيرة من السعة والكبر بحيث ان السماء تلتقي مع الماء عند الافق دون ان يعترضها شيء لذا اصبح من الصعوبة بمكان ان تميز البقع السود من طير *waterfowl* فوق سطح البحيرة عن الطيور الجارحة البطيئة الحركة في الهواء . ومررنا خلال قرى عشيرة - الشغانية - وبيوتهم متناثرة هنا وهناك ومجموع عددهم لا يعدو بضع مئات لأن البعوض يزحم قصب الاهوار ويطبق على اكوأخهم ليلاً ولذلك لا مفر من هجر قراهم قبل حلول الصيف ، فصل البعوض . وسكان هذه القرى اقل تحريبا بالضيوف واكثر جشعا ، فقد حاول احدهم ، ويقع بيته على حافة البحيرة ، حثلا ان يحصل منا بعض النقود اجرة استخدامنا مشحوفه للصيد ساعة واحدة . وغالبا ما كنا نستقبل بينهم بمرود ونظل نعاني الجوع الشديد طوال اقامتنا عندهم . وادركت الآن ان المعدان لم يكتسبوا سمعة الغظاظاة والحشونة ظلماً وعدواناً وانما كان ذلك لأسباب وجيبة ، وقد اخبرني ثيزيجر انه عاش هذا الجو والتقى بمثل هذه النفسيات كثيراً في قرية - ام الجريفات - وقرية اخرى تدعى - الكباب - قبل ان يتعرف عليهم بصورة تامة .

ووصلنا عند الغروب الى احدى تلك القرى وتدعى - الشرش - وكان سكانها يتهبأون لمغادرتها ليذهبوا الى مستوطناتهم الصيفية على مسافة عدة اميال . وقد عاشت هذه المنطقة في جفاف حتى قبل يوم او يومين عندما ذابت ثلوج الشمال . وفي الصباح كانت القرية كلها تهاجر والمشاحيف من مختلف الانواع تشق طريقها في مجاري القرية ومسالكها المائية ، او بالاحرى شوارعها ، وهي تثن تحت وطأة البواري واعمدة القصب لبناء اقواس الاكواخ ، وقصب مرضوض لصنع البواري الى جانب اعداد من الدجاج والقطط والكلاب والعجول بالاضافة الى حاجيات البيت بينما الجاموس مشدود الى بعضه وهو يسبح وراء المشاحيف ، وفيما كنا نتبع هذا الموكب الداخلى كان الجو يمتلىء بذلك الصوت المعين الذي يحث الجاموس على السير .

ووصلنا عند الضحى مع القرويين المهاجرين الى الجزيرة الطينية التي كانوا يقصدونها وتدعى - ابو مالح - حيث ان ارضها مغطاة بالملح وحتى المياه المحيطة بها شديدة الملوحة . والجزيرة عبارة عن عدة مئات من الiardات ترتفع حوالى ياردة عن سطح الماء . وكان قد وصل اليها قبلنا عدد كبير من القرويين ، وبعضهم وصلها في اليوم السابق . وحيثما وليت وجهك في ارجاء الجزيرة رأيت كوخاً تحت الانشاء ، والشاطيء يكتظ بمشاحيف المهاجرين ، والرجال والنسوة منهم في حركة دائبة وظهورهم منحنية تحت ثقل امتعتهم وهم ينزلونها الى الشاطيء وتستقبل الجزيرة في كل دقيقة مشاحيف جديدة حتى صار الماء الضحل في الجهة التي وصلنا منها يقرب في الشبه من موقف السيارات خارج ساحة سباق الخيل في لندن .

وعندما تهبط الى الشاطيء جماعة منهم تراها تجر خطاها المتعثرة الى قطعة الارض التي حددتها لنفسها وسرعان ما يثبت عمود الطراودة في الارض وترمى عليه (باريه) لتكون لهم ملجأً وقتياً يرتفع الى اربعة اقدام عند سطح الارض (1) وفي هذا الملجأ تضع النسوة اواني الطبخ ، وبعد دقائق معدودات من وصولهم يشعلن

(1) يطلق المدان كلمة (شاكص) على هذا الملجأ المؤقت .

تأراً من (المطال) عند مدخله . اما الاولاد والرجال فتراهم راثنين غادين بسين
الملجأ والطراوة ينقلون حاجياتهم ويكومونها او ينثرونها عند مدخله قبل ان
يفرغوا الطراوة من القصب والبواري اللازمة لانشاء الكوخ الجديد .

وفي غمرة هذه الفوضى يمكنك ان ترى حاجيات غير واضحة متناثرة في الكوخ
الكامل البناء ، ولا يمكنك ان تلاحظ كبير اختلاف بين حاجيات عائلة عن عائلة
اخرى . واكثر هذه الامتعة والحاجيات قيمة عندهم هي الاساور والملابس والنقود
وتحفظ دائماً في صندوق خشبي بغطاء يشبه القبة المقوسة مرصع بمسامير نحاسية او
حديدية كبيرة وجرت العادة ان يحفظوا هذا الصندوق في القسم الخاص بالنساء من
الكوخ . ويعتبر الصندوق هذا من اكبر الحاجيات الصلبة عندهم بين خليط عجيب
من حاجيات العائلة المتناثرة . وهناك مقاعد وبطانيات بلونها البرتقالي الاحمر
البراق وربما كان هذا من اكثر الالوان الشائعة عندهم . وتوجد كذلك قطع من
السجاد والفرش واواني الطبخ وسلال وصواني حيك من البردي بصورة دقيقة
وبين هذا كله توجد فالات الصيد ومراوات ذات رؤوس كبيرة من القار . وبين
كل كوم من الامتعة ترقد طاحونة الحبوب . ويملك عدد قليل من العوائل في
الاهوار اواني فخارية مسامية لحفظ المياه كتلك التي يشع استعمالها عند العوائل
التي تستوطن ضفاف الانهار خارج مناطق الاهوار . ويكون الواحد منها مخروطي
الشكل ذي فوهة دائرية كبيرة ويصغر عند قاعدته كثيراً ، ويسند على حامل ذي
اربعة ارجل خشبية . ويملك بعضهم نوعاً من الصواني الطينية ترتكز على حامل
ثلاثي يشعل فيها (المطال) .

وتجد هنا وهناك بين حوائج عدد قليل من العوائل التي تمتلك اثنتين أو ثلاث
نعاج ، تجد سجادة صوفياً بسيطاً بني اللون وهو الشكل الطبيعي لصوف تلك
الحيوانات ولكن منه البني الغامق والفاتح وما يتأرجح بينهما من الالوان . وقد
اخبرني ثيزيجر انه يعتقد بعدم وجود صباغة محلية وان السجاد يصنع اما من قبل
افراد - بني لام - وهم قبيلة من قبائل الرعي غير بعيدة عن تلك المنطقة أو يجلب
عبر الحدود من ايران . ومعظم الانسجة في القرى من الصوف القوي الناعم الذي

تصنع منه العباء الصوفية الحقيقية التي يرتديها كل رجل في الاهوار الشرقية .

وتجلس النساء عند مداخل الملاجىء المؤقتة وتشغل نفسها بطبخ الرز للرجال او ترضع الاطفال او تطيل النظر في الامتعة المتناثرة في غير ما عناية او انتظام . وتلوح بعض الاكسواخ وكأنها انشئت منذ بضعة اعوام بينما يلوح البعض الآخر هياكل من قصب افتح لوناً من زرقة الساء الغامقة التي تتراعى من بين ضلوع تلك الهياكل ، والقسم الثالث من الاكسواخ يظهر صفياً من اقواس القصب ترفرف نهاياته قبل ان تحنى لتشد مع الاعمدة المقابلة له .

واستطعت مراقبة كل مرحلة من مراحل انشاء الكوخ . ولكي اضبط الوقت ايضاً لاحظت ان عدداً من الاكسواخ لم يبتدأ بعد بانشائها عند وصولنا في الساعة العاشرة والنصف ولكننا عندما غادرنا القرية بعد ساعتين كانت عملية بناؤها قد انتهت . ويعمل في بناء الكوخ عادة ثلاثة او اكثر من الرجال . وهم يبتدون بتهيئة حفرة بواسطة المسحاة كما هو الحال عند الذين يشتغلون في استخراج النباتات لصنع الفحم في مرتفعات اسكوتلانده . وتكون الحفر صفتين متوازيين عمق الواحدة منها قدمين ونصف تثبت فيها قواعد اعمدة القصب التي يبلغ طولها عشرين قدماً وتنحني عند الارض في زاوية تقرب من السبعين درجة ثم يضعون قاعدة ثلاثية من القصب ارتفاعها خمسة او ستة اقدام وتستخدم كالسلم الخشبي عندنا ويقفز احدهم ليقف بطريقة تثير الدهشة على هذا الثلاثي القوي العجيب ويجر اليه اعالي اعمدة القصب ويحنيها اليه بواسطة خشبة المسحاة التي تثبت فيها القدم ويمسك بطرف القصب حتى يسحب هو او مساعده طرف العمود المقابل ثم يشد الطرفان الى بعضها بجبل مقتول من لوراق البردي . وبعد أن يتم هذا يتنقل بقاعدته الثلاثية الى العمود التالي ، فإذا تم انشاء صف من خمسة اقواس وشدت اليها حزم نحيفة من القصب لا تزيد على الاربعة عشرة حزمة بصورة افقية اصبح الهيكل جاهزاً للمرحلة التالية وهي تغطيته ببواري القصب . وهكذا تستغرق عملية انشاء البيت ساعتين . . انها حقاً طريقة عملية رخيصة في الانشاء .

استمر اللغط والضوضاء في عمليات الانشاء طوال الساعتين اللتين قضيناها

هناك ، لأن المهاجرين الجدد كانوا يصلون باستمرار . وخلال هذه الغابة الذهبية من اعمدة القصب واضلاع الاكواخ راحت قطعان الجاموس تجار بحدة ، والاطفال يركضون خلفها ليجمعوا فضلاتها الثمينة حالما تسقط على الارض ويعودون بما جمعوه الى مواقع بيوتهم الجديدة . وكان بعض هؤلاء الاطفال عراة الا من طوق حول اعناقهم يرصعه في الوسط حجر ازرق ليمنع عيون الحساد عنهم ، وهم يلعبون بين اهليهم الكبار المنشغلين في عمليات الانشاء او يسبحون ويركضون الواحد وراء الآخر في الماء الطيني الضحل عند ضفاف الجزيرة .

ومع اننا لم نتمكن ان نكث اكثر من ساعتين في - ابو مالح - الا انني كنت سعيد الحظ حيث لم يتمكن تيزيجر طوال السنوات الخمس التي قضاهما بين المعدان من مشاهدة قرية وهي لم تزل في عمليات انشائها في حين اتيح لي ذلك خلال سفرتي الاولى هذه .

لم يكن باستطاعتنا الا ان نساغر الى شرق او الى جنوب قرية - ابو مالح - لأنه لا توجد غير احوار قليلة الى الشمال منها . ويمكن للشخص ان يسير دون ان تبتل قدماه من هنا حتى مدينة العمارة التي تبعد ثلاثين ميلاً الى الشمال الغربي . ومرنا في طريقنا الى الشرق باتجاه ايران واقتربنا من الحدود وصرنا على مسافة ميل او ميلين عنها قبل ان نعود مرة اخرى ونسلك طريقنا الاصلية ودخلنا الآن اراضي عشيرة السواعد اعداء الفريجات . وفي - ابو مالح - علمنا ان تينك العشيرتين تبادلنا قبل فترة قصيرة حملات مرقة الجاموس فكل حملة تقوم بها احدهما تقابلها الاخرى بالمثل .

وفي - مكري - حيث يعيش معدان نصف متنقلين يعملون في رعي الجاموس لاحت من بعيد جبال خوزستان جائة عند الافق ، وتبدو بعيدة جداً لأن الاحوار تمتد من هنا وتتوغل في داخل ايران عدة اميال .

وما زالت تترادى لي - مكري - بصورة خاصة لجمال سكانها الصارخ ، فتقاطع وجوههم وملاحظهم كاملة مع اسنان بيض ناصعة تصطف بصورة عجيبة . وفي عشيرة السواعد - لا يشكو غير عدد قليل جداً من السكان من امراض

العيون . وربما كانت هذه الامراض بصورة عامة اقل بكثير في الاوار الشرقية عنها في الاوار الوسطى . واسنان المعدان تظهر عادة إما رديئة جداً او جيدة الى حد كبير ، وهم ينظفونها بالملح واسوأ الافواه ربما كان سببها عدم الاعتناء بها ، والجمال في قرية - مكري - يقرب من الكمال حتى ان اقل الوجوه جمالاً تنقلب الى سحر وعنوبة بمجرد ابتسامة خفيفة . وما زلت اتذكر احد الاطفال بصورة خاصة وقوس شفتيه ليس اقل اكتمالا من الاسنان التي يغطيها ، وعنقه ينبثق باعتدال ورقة من كتفين نحيفتين ، وينسدل على عينيه جفنان راعشات طويلا الاهداب وكأنها عينا غزال . ويتراءى ثمة شيء من سحر يتحرك ويتململ في هدوء في هذه التقاطيع والاشكال الصغيرة الملفوفة في الملابس الصوفية الخشنة ، ويتململ ايضاً في نعومة هذه الوجوه الرقيقة وفي تلك الايدي التي براها العمل المضني .

وأخر هذه القرى او بالاحرى نهاية رحلتنا في الجهة الشرقية هي قرية - كرسوه - التي لا تزيد على سبعة اكواخ ، وتشح فيها المياه كثيراً . وقد وصلناها كما كنا وصلنا قرية - جريوه - قبل اسبوع خلال مياه لا يزيد عمقها على الركبة وغالباً ما تقطعها اراض جافة . ولاح لي اننا رجعنا مائة مرة من تلك المسالك المائئة المغلقة لكي ندور دورة اخرى ، ولكن هذه رمتنا بعيداً عن الجهة التي نقصدها . واخيراً كان علينا ان نترك الطراة عدة مئات من الياردات ونجر خطانا المتثاقلة نحو الاكواخ .

وهذا الماء الضحل العكر الذي يشبه في لونه شوربة الحمص هو نفسه يستعمل كماء للشرب عندهم ، وتراه راكداً في برك ومستنقعات صغيرة خضراء اللون والزبد البرتقالي يطفو على حوافها . وترقد في اكبر بركة منه على مسافة مائة ياردة تقريباً من الاكواخ جاموسة ميتة وقد تناثر الشعر من جلدها فبرزت اضلاعها بلون ابيض بينما راح غرابان من النوع الاسود والابيض ينقبان بغير رحمة ولا شفقة في احشائها الداخلية . ويلفت الذباب النظر في اول قرية من قرى القبائل المتنتقلة وهو من النوع المزعج المهلك .

ولم نستطع ان نذهب ابعد من قرية - كرسوه - فالتجهمنا الى الغرب سالكين

تنفس الطريق التي جئنا منها فمررنا بقرية مكري والشدايد ، وتوغلنا بعيداً الى الغرب نحو قرية – البيضة – الكبيرة الواسعة باراضيها اليابسة . وهنا رأينا زوارق تجارية كبيرة تمخر في المياه ، والمسالك المائية تمور بأنواع عديدة من السفن والمشاحيف الفارغة والمحملة . واعتادت عيناى الآن رؤية الافق البعيد في الاحوار حون اى شجرة تعترض طريقه ، لذلك فقد كنت اطيل التحديق في كل شيء يعبر في صفحة السماء العارية . واتخذت عيناى هنا حين لاحت لي بعض الاشجار من بعيد فحسبتها نخيلاً باسقا غير انها فضحت نفسها عندما اقتربت منها وظهرت ليست أكثر من ست نخيلات صغار هي من ضمن احد المضاييف . وهنا قضينا ليلتنا ضيوفاً على – كعبان بن فالج بن فاهود – احد كبار شيوخ المنطقة . وتضيء المضيف اخواء كهربائية براقه . وعادت بذكريتي دقائق ماكنة سحب المياه هناك الى الورااء . . الى ابعد من الاسابيع القلائل التي عشتها خارج عالم الحضارة . . الى ايام طفولتي واسكوتلندا والبيت البسيط الذي قضيت فيه طفولتي وصابي حيث كان يرسم نفس هذا الصوت خلال ايام الصيف الناعسة في خيالي عالماً من نور وشمس دافئة . وكانت هناك عدة صراصير في ارض المضيف . . وكان غناؤها طوال الليل مجلجلاً يطغى على نقيق الضفادع ودقات الماكنة الرتيبة في الخارج .

والحقيقة اني كنت اشعر بالضيق خلال تلك الليالي الطويلة في المضاييف ، لأني وان كنت اتمكن من فهم المعنى العام للمحادثات التي تدور فيه لكنني كنت اعجز عن مشاركتهم فيها . وعلى الرغم من البساطة المتناهية في مثل تلك الاماكن إلا ان العادات والاصول المتبعة لديهم والتي يجب على المرء مراعاتها تتغلب على تلك البساطة . ورحت اروغ ساعات تلك الليلة الطويلة باستيعاب كل دقيقة من دقائق المضيف وحصلت من اختباراتي الطويلة هذه على نتائج اوضحت لي ان هذه البناية بقارنتها بصورة غير متكافئة باكواخ – ابو مالج – قد تطلبت مائة وخمسين رجلاً وثلاثة اسابيع لانشائها . كان طول ساحتها خمسة وستين قدماً وعرضها عشرين . وهناك تسعة اقواس ارتفاع كل واحد منها خمسة عشر قدماً وكل قوس مشدود عاثة وعشرين حلقة من الخيوط ، اى ان كل قوس لزمه خمسمائة ياردة من الحبال .

ولا يقل معدّل محيط كل عمود ، من قاعدته التي يبلغ عرضها ياردة واحدة الى نهايته التي تدخل في السقف الاسود ، عن ستة اقدام . ووراء الاقواس الرئيسة تقع الافقيات وكل واحد منها عبارة عن حزمة من القصب يزيد سمكها على مائة واربعة وعشرين انجاً تشد الى الاقواس بصورة افقية والمسافة بين حزمة واخرى حوالي اربعة انجات ، وهكذا لزم الف ياردة من الجبال اليها . وتلك الافقيات تبدأ من ارتفاع ثلاثة اقدام عن الارض ويغطي الفراغ الباقي بينها وبين الارض بأطراف البواري المنهدلة والتي تمتد حول كل جهات المضيف ويمكن رفعها لتلطيف الجو في الداخل . حقاً انه لقصر عظيم ولكن ... من قصب !

وعندما سافرنا في اليوم التالي الى الشمال الغربي مررنا خلال منطقة مستنقعات منخفضة حيث توجد بقع من الحشيش الاخضر لتتخللها مجاري مائية صغيرة يمكن للطراة ان تنساب فيها بخفة . والطيور من مختلف الانواع والاشكال تزين الارض والسماء وتخلق بينها امراب متناثرة من - ابو منجل - بخفة ولأن لحم هذه الطير غير محرم عندهم فقد الح عليّ ملاحونا ان اطلق النار على جموعه . ولكنها كانت حذرة يقظة فلم يقترب منها احد على مسافة ثمانين ياردة من الطراة . وراح الملاحون يثرثرون ويلحون عليّ ان اطلق النار على كل طير يبعد عنا مسافة ربع ميل ، واخيراً ولأضيق حداً لهذا الازعاج اطلقت النار على طير وحيد منها وهو يخطف على بعد مائة ياردة الى جانبنا . ولدهشتي الكبيرة سقط ابو منجل ميتاً . ولم اكتشف إلا بعد مضي وقت غير قصير ان الخراطيش اختلطت في جبي واني استعملت بطريق الصدفة واحدة تحتوي على اطلاقاً من نوع LG التي تتكون من ست رصاصات تستخدم لصيد الخنازير .

وقفز كذبة من الطراة ، وراح يخوض الى ركبتيه في الماء الضحل ليمسك بالطير . وحين وصوله استل خنجره واتخذ ناحية خاصة من الشمس ووضع رأس الطير الى جهة افترض انها مكة . وأخذ يقطع خنجرة الطير . وفجأة انطلقت من حسن صيحة انفعال وتحذير وصرخ في كذبة : « مكة .. ابعد الى الجنوب كثيراً ! »

فاتجه هذا بنفسه الى الشرق وشرع بالذبح . وتوقف مرة اخرى على صرخة من عماره الذي قدر ان مكة تقع بين تينك النقطتين وارتبك كذبة الى درجة كبيرة وهو يدور في الماء الضحل وحنجرة الطير الذبيح تدور معه الى الشرق والغرب والجنوب والشمال . وعاد متجهاً الى الطرادة وسط صرخات السخرية ليفاجأ بالحقيقة الدامغة وهي انه لا يوجد بينهم احد يمكنه ان يأكل هذا الطير الآن . ورمى كذبة بالجسد الذبيح في وسط الطرادة بعصبية وغضب . وكان الجدال حوله ما زال حاداً مفككاً عندما مررنا بعد نصف ساعة بشيخ يرعى الجاموس على ضفة احد المسالك المائية . فاقترح احدهم ان يعطيه الطير لأنه يحل الحقيقة في ان حنجرة - ابو منجل - لم تتجه الى مكة تماماً عند ذبحها . ورمى كذبة بالطير اليه في انفة وكبرياء في حين اخذ حسن يشرح للرجل المسن بنجث سبب تحريم أكل هذا الطير بالذات . ولكن لم يحمد الشيخ نفسه بالجدل وانما اكتفى بالقول ان لحم - ابو منجل - في رأيه محرم اكله منها كان نوع الذبيح .

وهكذا يلاحظ المرء غرابة مثل هذه العادة الدينية التي يتبعها المعدان في قضية المحرمات ، في حين ان معظمهم يجهلون تماماً اصول ديانتهم وشرائعها . وتظهر قضية المحرمات هذه بصورة جلية عندهم في انواع الاطعمة . ولم اتعلم خلال اقامتي القصيرة بينهم القائمة الكاملة للطيور المشبهة والاسماك التي حرم تناول لحومها ، ولكنني استطعت ان احزر كيف تنشأ هذه القيود ، وعلى ضوء استنتاجاتي يمكنني القول ان الانواع المختلفة من طير - الزقزاق *Polver* - الذي يعيش في المياه ويصلح كهدف من السهل اصابته حين يكون الجوع قد عضنا بأنيابه وطرادتنا تشق طريقها بين القصب ، وانواع هذا الطير الاخرى على اختلافها امتد اليها التحريم . ويتبادر الى ذهني ان التحريم سيصل الى كل عائلة الطيور الخواضة غير ان سببتي اخذ يلومني مرة لاني لم اطلق النار على طير شهى اللحم من عائلة الطيور الخواضة يدعونه - كزكز - و غراب الماء *Carmorant* الذي لا يزيد عن الحمامة حجاً ، و ابو السهم الافريقي *African darter* يجوز اكلها في حين حرم لحم نعيم المائي الذي اخبرت ان لحمه يختلف في الطعم قليلاً .

اما في الاسماك - فأبو الزمير *cat fish* - وكل سمكة تشبه ثعبان البحر *eel* محرمة الاكل ، وكذلك جميع الحيوانات ذات القشور . والخنزير بالطبع من المستحيل ان يتناول لحمه اي مسلم في حين يجللون اكل جميع الحيوانات التي تتناول الاعشاب . وقد اخبرني ثيزيجر ان هذه المعتقدات معقدة جداً ويظهر انه لا يوجد سبب معقول لذلك ، كما هو الحال عند البدو في الصحراء العربية حيث يسمحون لأنفسهم بأكل الثعلب الصحراوي في حين يمتنعون عن تناول لحم الثعلب الاعتيادي .

* * *

وادركت في اليوم التالي مبلغ الصعوبة في قتل خنزير وحشي . فقد وصلنا الى قرية - سجلة - قبل ان تنحدر الشمس الغاربة وراء الاقواق ، وذهبنا بالطراوة نفتش عن خنزير نصطاده ، وكأف يرافقنا شاب من عشيرة - السواعد - في مشحوف صغير يقترب حجمه من حجم زحافة جليدية ؛ وتغطي هذه المنطقة بالبردي والماء الضحل وتتراهى بين حين وآخر برك ومستنقعات هادئة والحشائش والادغال كثيفة جداً ولا يمكن لأحد ان يحدد نظره خلالها اكثر من بعد مرمى اطلاقه . وحيثما سرنا شاهدنا جموعاً من طير جميل ارجواني اللون يدعى بالبرهان *gallinule* وطيور اخرى جميلة بلونين ارجواني وازرق تجاوز في حجمها اكبر حياجة اليفة . ووجد الفتى (الساعدي) خنزيراً وحاول تحريكه من مكانه واستطعن ان نسمعه وهو يضطرب ويحاول الهرب ، فتبعناه واخذنا نجذف بقوة وجنون . ورأينا انه لا يمكننا اصطياده ما لم يدخل في ماء اعمق يضطره الى السباحة وحيثئذ نستطيع ان ندركه بسهولة . ودخلنا مستنقعا هادئ المياه بينما اخذ الخنزير يسبح امامنا بكل قواه . فعندما راح يخوض في الماء الضحل الى الجانب البعيد وخرج معظم جسده عن الماء وصار على مسافة عشرين ياردة عني سدت بندقيتي نحوه وفتحت النار عليه فأصابته اطلاقه واحدة في قلبه والاخرى في رقبته ولاح وكأنه لم يحس بأبي منها ، فعبر حزاما من ماء عمقه قدم واحدة بين البردي واخذ يسبح مرة اخرى والطراوة تتبعه بسرعة . ولما صرنا على مسافة

خمس ياردات عنه تناولت بندقيتي colt45 وفتحت على ظهر رقبتة نار مخزن
الثلاث عشرة اطلاقه كلها... وبالطبع ليس ثمة سؤال بعد هذا فيما اذا كنت نجحت
في اصابته ام لا . فالاطلاقات السبع الاول لم يكن لها اي تأثير فيه ، وغاص في
الماء عند الاطلاق الثامنة ولكنه ظهر مرة ثانية بعد لحظات وراح يسبح بقوة
مدهشة . ولم تظهر عليه علامات توجع أو ألم عند الاطلاق الرابع التالية مع
اني كنت ارى كل اطلاقه تهدر على شعره المتكاثف . اما الاطلاق الثالث عشرة
والاخيرة فقد كسرت عموده الفقري واسقطته صريعاً في الحال .

وستظل عالقة في ذهني وتراءى لي كلما مرت بخاطري ذكريات الاهوار ، تلك
النصف ساعة التي استغرقها عودتنا الى - سجله - مختلطة بضجيج الضفادع واشباح
القصب من بعيد تلوح سوداء والضوء في نزعه الأخير نحو الأفول . وقد انحدرت
الشمس الآن نحو الأفق ترفع الكون بغلالة حريرية يختلط لونها الرمادي بلون
اصفر من نور راعش ، تتخللها طيور ابو منجل عائدة الى اعشاشها . ووسط ذلك
السيل الناعم الدافئ من الضوء الواهن اخذ ينسل شبح فتى السواعد وهو يدفع
(بالقالة) مشحوفه الصغير الذي كان من الضيق والصغر بحيث اضطر الفتى الى
وضع احدى قدميه امام الاخرى مباشرة عند الدفع . واخذ جسده يتحرك
بعذوبة وسحر ودشداشته المشدودة الى خصره تفضح رقبة جذعه وكتفيه . وكان
ينحني الى وراه عندما تدخل نهاية(القالة) بالماء، ثم ينحني عند الحصر ليدفع العمود
ثانية... كانت حركاته موزونة وكأنها حركات راقص باليه ، ففي كل مرة يعتدل
من جديد وهو يتهيأ للدفعه التالية على الجهة الثانية من المشحوف ورؤوس (القالة)
الحس السود تلمع في الغروب... منظر رائع جداً.. المشحوف الاسود الاهيف
ينساب بهدوء تام وهو غارق في سيل ضوء من سماء عسليه فوقه ومياه يصبغها
الغروب بلون عسجدي . وتتوج السماء نجمة وحيدة تضيء بلمعانٍ باهر .
وخلال بضع سنوات سيقود هذا الفتى القروي الشاب ، الذي سيظل خياله
ماثلاً في ذهني كرمزٍ للاهوار العظيمة ، سيارة لوري اذا حالفه الحظ .

وكان نقيق الضفادع الذي سمعته تلك الليلة اعنف نقيق لعب بأوتار اذني .
والارض حول الكوخ الذي نزلنا فيه ، يابسة ولكن توجد بعض المستنقعات
الصغيرة المحاذية للجدران ومن تلك البرك انحدرت جلبة وضجيج عظيم بحيث لم
يكن للشخص بدءاً من رفع صوته وهو يتحدث في داخل الكوخ لكي يسمعه
الآخرون . وبعض اصوات تلك الضفادع ترتفع ساخرة صاخبة لدرجة يبدو من
الصعب ان تتصورها صادرة عن مخلوقات اقل حجماً من كرة القدم . وحين يمر
الماء بالبحيرات والبرك هناك فسرعان ما يطبق السكون عليها ولكن ما اسرع ما
تتلقف الاذن هديرأ وضجيجاً صادراً من غابات القصب البعيدة بعد ان يتعد
عنها قليلاً .

واطبق بعد منتصف الليل هدير الرعد على الكون ، واستمر يلعلع مطبقاً على
الافق كله لعدة دقائق في كل مرة يهدير فيها . وتسلسل ماء المطر خلال سقف
الكوخ . وانقشعت السحب عند الصباح وتلغعت البرك والمستنقعات المتناثرة بشعاع
شمس هادئة دافئة . وظهرت السماء صافية بعد الظهر ، ولاحت الطبيعة زاهية بجملة
قشبية بعد ان غسلتها امطار الليلة الغائمة . فخرجنا مرة ثانية لصيد الخنازير مع
جماعة ضمتهم معنا خمسة مشاحيف – وهنا بين – سجله والجرين – لا تختلف الارض
الا قليلاً عن صحراء جافة وكانت آثار خيام جماعة متنقلة من الرعاة ما تزال على
اليابسة . وسرت انا في مشحوف يقوده شابان من السواعد وسرعان ما تناثر
اسطولنا في الهور . والطريقة التي كنت اميز فيها مواقع المشاحيف الاخرى هي
اصوات الاطلاقات المرتفعة منها .

ولم اكن قبل ذلك اليوم اتصور عدد الخنازير الوحشية التي تحتفي عادة في
مجاهل القصب ، وكما نصيد كلاب السبانيل *Spaniels* في انكلترا كذلك اتبعنا
نفس الطريقة في صيد الخنازير هنا ، فقد طاردتها مشاحيفنا الخمسة من مجاهل القصب
حتى خرجت تتراكم فوق الارض الصلبة او تسبح قطعانها في البحيرات العريضة
الزرقاء ، او تقف من حين الى اخر كمراكب سجن المجرمين السوداء على حواف
الجزر المكتظة بغابات القصب . وفي لحظة واحدة تمكنت ان أعد سبعة واربعين

خنزيراً على مسافة اطلاقاً بندقية عني . وبعد نصف ساعة كانت دموع الفشل والحينة تسيل على خدي . وكان تيزيجر قد أعارني بندقيته ولكني لم اعرف كيف ادبر الامر مع هذين الشابين اللذين يقودان مشحوفي ، فانها والحماس يعتمل في داخلها المضرب وهما يشاهدان كل ذلك العدد الضخم من الخنازير غرقا في الخيال وتصورا انه من السهل جداً عليّ اطلاق النار واصابة الاهداف والمشحوف يتمايل ويتأرجح تحت ضغط مجاذيفها ، كما لو انني كنت في اليابسة . ومرة بعد اخرى ، وفي اللحظة التي كنت اسحب فيها الزناد والبندقية مسددة نحو الهدف ترى المشحوف ينخفض في الماء فجأة بتأثير ضربات المجاذيف على سطح الماء وسرعان ما تنحرف الرصاصة عن هدفها وتغوص في الماء على مسافة ياردات معدودات عنا . ويوقف الشبان تجذيفها فترة يقذفاني فيها بنظرة سخرية عميقة . واخيراً عندما تذكرت كلمتهم العربية (قف !) كانت النتائج ما تزال محزنة ، فهم لا يقولون : « اوقف التجذيف ! » وانما يقولون « اوقف المشحوف ! » وعندما يسمعون هذه الكلمة تراهم حالاً يضرّبون بالمجاذيف ضد التيار ضربات جنونية كثيراً ما جعلتني انحرف على جانب المشحوف . وشعرت ، وانا اقف في وسط القارب المتأرجح ومنظاري والكاميرا والمسدس كلها معلقة من حولي وبندقيتي في يدي جاهزة للاطلاق ، وكأنني شجرة عيد الميلاد وهي تترنح . وعندما انطلقت البندقية احسست كما لو أن صاروخاً ينطلق دون سابق انذار . ولو لم يحالفني الحظ في اطلاقاتي الثلاث الاخيرة بعد الظهر لانتشرت السمعة بعدم براعتي في الرماية في كل القرى المحيطة بنا . وخرجت من جهة مشحوف تيزيجر ، الذي اختفى عن ناظري خلال القصب الكثيف ، اربعة خنازير صغيرة كانت مختفية في غابة القصب واخذت تسبح وعبرت من امامنا على مسافة مائة وخمسين ياردة . وعندما لمحها الشبان وأرادوا ان تتعقبها وقعت عيناي الى جانبنا على جزيرة طينية صغيرة ترتفع عدة انشات عن سطح الماء . وقفزت اليها من المشحوف ، وانا الآن مطمئن وقدمي ثابتة على ارض صلبة ولذلك فقد سددت بندقيتي الى اول خنزير منها بكل ثقة ونجحت في اصابة الخنازير الاربعة كلها بينما كانت تسبح . والحقيقة اني اطلقت ثلاث اطلاقاات فقط تمكنت بها من قتل الخنازير الاربعة ، وذلك لأن الاطلاق الاخيرة

اصابت خنزيرين في وقت واحد لأن رأسيهما كانا في اتجاهين متقاربين ، وكان عملي هذا بالنسبة لهؤلاء الرجال الذين تتغلب عليهم صفة الاقتصاد ، شيئاً رائعاً . فقد اخذهم الحماس والانفعال فقفزوا الى شاطئ الجزيرة وراحوا يرقصون رقصة الحرب ، ويرددون ابيات (هوسه) لو كنت اتمكن من معرفة كلماتها لكانت بلا شك عاملاً مساعداً لي في اعادة الاحترام والثقة بنفسى .

وعلى اية حال فقد قتلت احد عشر خنزيراً . بما لا يقل عن اثنتين وثلاثين اطلاقاً بينما قتل عمارة نفس العدد باربعة عشرة اطلاقاً وقتل ثيزيجر خنزيراً واحداً باطلاقاً واحدة .

وكان احد صيادي البط قد وصل إلى المضيف قبلنا فقرر فص عند موقد القهوة ومحفظته ملقاة امامه والريش يعني في النار بينما هو يحترق ، وفي محفظة صيده تلك اثنان من الطيور المسماة بالبرهان وعدد من دجاج الماء وانواع اخرى من الطيور .

* * *

وبعد ذلك اليوم كنا مرة اخرى بين شيوخ المناطق العشائرية خارج الاهوار التي تحد بين الصحراء والمناطق الزراعية . وكان اولهم شاباً لا يقل طوله عن ستة اقدام وثلاثة انشات . ولأن المعدان في الغالب قصار القامة فقد ظهر هذا عملاقاً بينهم . واحدى عينيه مغلقة تماماً وتعطي لوجهه تعابير غامضة . وتمكنت لحد الآن أن استنتج بأن كل رجل من بين اربعة عشر او خمسة عشر منهم يكون اما فاقداً احدى عينيه او يشكو مرضاً من امراض العيون ، وربما يمكننا ان نستثني القبائل الرحل من هذا التقدير .

وكان الشيخ الثاني الذي زرناه يدعى عبد الله ، وهو رجل ممتلىء الجسم تظهر عليه علامات الصحة والعافية ، وقد قضينا معه ثلاثة ايام لطيفة . ومضيفه يختلف عن معظم المضيفين الاخرى التي زرناها حيث يشيع فيه جو من الفرح والنكتة والبهجة ، ويفوق عدد الاطفال فيه على الكبار ، وكان احد هؤلاء يدعى داود ويبلغ الخامسة عشرة من العمر ، ويتميز بالجمال والحفة والمجون في حركاته وتعابير الراقصة ، وحتى

(البرغوث الراقص) يعجز عن اداء حركات داود هذا الا بعد خمس سنوات . كانت حركات داود تتسم بالطابع الفني والاداء المساق للحن اكثر من اي راقص آخر رأته في الاهوار ولم يظهر في حركاته ما يثير الشهوة الا الشيء القليل جداً . وقد رقص لساعة واحدة ، وعندما جلس ليسترخ جاءه الشيخ عبدالله ، الذي لاح انه استمتع كثيراً بالرقص قائلاً انه عليه ان يخرج معه ليجثا عن عجل مفقود . وخرجاً سوية وابتلعها ظلام الليل المدهم في الخارج . وبعد عشرين دقيقة عاد الى المضيف والتعب يلوح على وجه الشيخ والعرق يتنزى من جسده ولكن علامات من فرح وغبطة لاحت على قسما وجه الممتلىء ، بينما دخل داود المضيف وهو يتكلفه الابتسام ، ولم يذكر شيئاً عن العجل ... المفقود !

واختتمت الامسية برقصة الحرب (الهوسه) واياتها الشعرية كانت في مدح نيزيجر .

☆☆☆

وفي اليوم التالي انتقلنا الى مضيف اخي عبدالله ولم يكن يبعد اكثر من مائتي ياردة عنا . وهنا مدّ الينا أحد رجال الدين ، وكان يضع على رأسه عمامة بيضاء ، مد اطراف اصابعه في تحية واحتقار معاً ، وخرج بسرعة . واغلب الظن انه ذهب ليغسل يديه لأنها لامستا شخصين كافرين .

وحالاً وبعد وجبة طعام فاخرة دسمة اخذ عمارة يشكو من ألم في بطنه ولم تسمح له حالته السيئة ان يتكلم . واخذ يئن ويتوجع وراح سبتي لدهشتي الكبيرة يبكي بسبب حالة صديقه . وخف الألم بعد وقت قصير واستغرق عمارة في نوم عميق بعد ان شرب كمية من الأفيون . واظهر الشيخ عبدالله ، الذي رافقنا الى مضيف اخيه ، عطفاً وميلاً شديدين تجاه عماره ، لذلك فقد كوّم نفسه وراح يغط في شخير مرتفع ونام في الجهة المقابلة لعمارة . وكان عبدالله ما يزال نائماً عندما تحسنت صحة عماره في صباح اليوم التالي وصار بإمكانه ان يذهب في سفرة تتطلب السير عدة مئات من الياردات الى مضيف ضخم آخر يتكون من خمسة عشر قوساً على الضفة الاخرى من النهر ، غير ان عماره سقط طريح الفراش ثانية . ولحق بنسنة

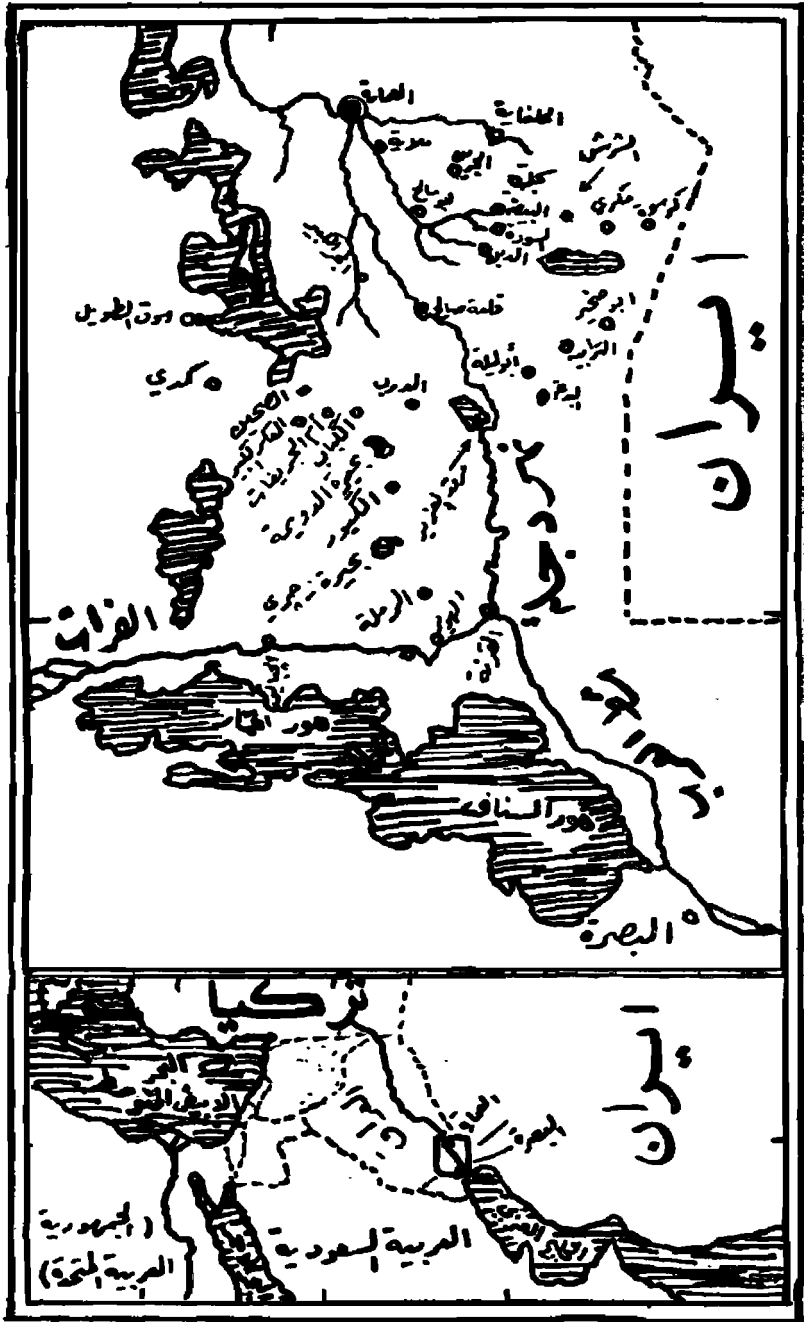
الشيخ عبد الله بعد مضي بعض الوقت ، وراح يثرثر حول عماره ، ولما لم يلاق منه استجابة ارتياح جلس يناجي بحزن وسائد النوم الوثيرة .

وجلست عند العصر الى جانب تلميذ يتكلم الانكليزية ، واخذ يسألني : « هل انت رجل شجاع ؟ كم المسافة بين لندن وليفر بول ؟ كم خنزيراً تستطيع أن تقتل ؟ » وسألني اخيراً : « هل انت تحبنا جداً ؟ اني اسألك ؟ » ولكني لم اعرف الاجابة على اي من أسئلته .

ورقص لنا داود عند المساء ثانية . وكانت احدى رقصاته تعبر عن قصة رجل غرر بزوجة رجل آخر بين القصب فاقنيد للسلطات الحكومية التي اختلطت عليها الاسماء ، وانتهى الامر بسجن الرجل المخطيء .

واما الرقصة التالية فكانت تمثل عملية صيد السمك (بالقالة) ودخل شخص غريب ، واكل سمكة بينما كانت على النار فنار ثامر الصياد مما دعاه الى قتل الرجل الدخيل هذا. ودخل عليها شخص ثالث وكان شرطياً وقبض على الجاني الذي انكر التهمة قائلاً : « لا بد انه قد مات منذ عدة ايام .. وعلى اية حال لماذا تتعب نفسك في شيء نافه من هذا النوع . »

واخيراً انتهى الرقص ولاحت علائم الحيبة والغسل على وجه الشيخ عبد الله وظهر كما لو انه يود لو فقد عجل جاموس آخر وربما اكثر من واحد . وراح يعزي نفسه بالثرثرة مع شخص آخر يجلس الى جانبه وقد ذكر ان ذلك الرجل يمتلك أربع زوجات .



الأعلى - منطقة الأحواز التي زارها المؤلف
 الأسفل - موقعها من الشرق الأوسط

الفصل العاشر

واستيقظت في صباح اليوم التالي وانا اشعر بدوار وحتى خفيفة وكان ذلك المرض الوحيد الذي شكوته خلال الرحلة كلها. واحسست لثلاثة ايام بالاضطراب وعدم الراحة خلال النهار ، وفي الليل كانت احلامي تدور حول اشياء لاتبعث على السرور . وثيريجر لم يكن هو الآخر بحالة صحية جيدة وصار صوته غير طبيعي وربما اصابتنا العدوى من عمارة في اليوم السابق . ومرنا ميلا او ميلين نحو احد القلاع ، وهناك ابتليت لمدة ثلاث ساعات بمدير المدرسة المحلية ، وقد كنت اشعر بتأثير الحمى على نفسي واحس وكان قواي يهدما المرض . وقد قدمه لي ثيزيجر كدليل على الحنان والعطف الذي يحسه نحوي ، وظن اني ساشعر بالارتياح وانا اتكلم الانكليزية مع شخص آخر . وبعد الدقائق الاولى من الصمت التثميل ارسل المدير الى بيته صيبا لجلب كتاب *The Oxford University Top Book* وكان الكتاب مزينا بصور قطط وحصران وكلماته من المفردات البسيطة ذات المقطع الواحد المحببة الى الاطفال . وأخذ يقرأ بصوت عال ويبطء لمدة ساعة واحدة لاحت لي ثقيلة جداً ، وكان خلال قراءته يشدد على كل كلمة ليعطيها حقها لفظاً ومعنى : « هل القطة على المنضدة ؟ .. كلا ! . ان القطة تحت المنضدة ! » واستمر يقرأ بصوته الجمهوري : « هل الولد يهمل ؟ كلا ! انه يلهو . مع بجملة اخته الكبيرة ! (1) » وعند هذه النقطة قاطمته قائلاً : « يعمل ماذا ؟ » .. فناولني

(1) لا بد ان المدير لفظ كلمة *Dog* الانكليزية التي تعني « كلبا » بطريقة مشابهة لفظ ←

الكتاب بلامح حزينة ، وكانت ثمة صورة لطفل بلبسه القصيرة وهو يداعب كلباً ولم يكن الكتاب معداً لتعليم الانكليزية في العالم الاسلامي . واخيراً أطبق المدير صفحاته وقال : *Of all the c's that werbi this C that. Yes ?* ولما رأني مفلق الفهم اعاد قوله ثم كتبه . واخذت قاموسه الانكليزي العربي وقتشت عما يقابل كلمة *Quotation* بالعربية واشرت باصبعي اليها وانا اسأله : « هل ان جملتك هي اقتباس ؟! » فاحنى رأسه بحماس . وقلت له اخيراً بمرارة ولوعة : « اظن أنه يوجد ثمة شيء لم تذكره في جملتك ليصبح معناها واضحاً » . فاستدار لي باشراقة مفاجئة وقال : « ان ابي تحت التراب ! » قالها وتعاير من الدهشة تكسو وجهه ليغير مجرى الحديث .

☆☆☆

وبعد يومين توجهنا بسيارتنا الى لواء العمارة . وكان نيزيجر قد ارسل شخصاً يجلب لنا سيارة خاصة فظهرت بعد فترة قصيرة وبصورة سحرية على الضفة الاخرى من النهر مقابل المضيف . وفي بداية سيرنا لم نجد هناك شيئاً يدل على طريق عام ابداً ، وقطعنا مسافة ميل والسيارة تتأرجح وتسير في ممرات ملتوية عبر اراض يابسة غير مزروعة تقطعها قنوات ري جافة . وكانت بداية الطريق العام مجرد آثار في الطين المتصلب الذي اخذ مستواه يرتفع تدريجياً حتى اصبح طريقاً ترابياً يسير بمحاذاة النهر . ولاح عن يميننا ، ونحن متوجهون الى الشمال ، هور عظيم وبحيرات ومستنقعات تمتد الى مسافة اميال عديدة ، وقد تناثرت بينها بقع خضراء من مزارع الحنطة والشعير وبقع اخرى من اراض طينية لا حدود لها تظلل بساتين النخيل بعض اقسام منها . ومررنا بعدة قبائل متنقلة من عشيرة - بني لام - وهؤلاء إما يعيشون في خيام سود مع قطعان الماشية الكثيرة التي تنتشر في ارض لا توجد فيها مناطق خاصة بالري ، او يكونون متنقلين مع عدد من الحمير المحملة بالامتعة تساوي في قلتها النعاج المرافقة لها .

→ كلمة *Dug* التي تعني « حلمة الثدي » في الانكليزية . . وهكذا حدث سوء فهم المؤلف لما قاله المدير .
الترجم

وبعد ان قطعنا مسافة عشرة اميال بالسيارة وصلنا مدينة العمارة ، وهي ليست بذلك الجمال الذي يتسربل به اسمها ، فطابوق بناياتها اصفر تعلوه صفائح من الجينكو . وهناك الاعلانات الملونة لمنتجات غربية تنتشر في كثير من المناطق ، والاساخ والقافورات يمكنك ملاحظتها في كل زاوية من المدينة ، حتى تراهي لي ان كل ما رأيناه بعد سماء الاهوار الصافية وحياتها الخشنة الفظة ليس الا اشياء تافهة بالية لا روح فيها ولا معنى . وقمنا بعدة زيارات مجاملة للمتصرف ومدير الشرطة . وزرنا البعثة التبشيرية هناك .

وقفلنا راجعين من العمارة الى قرية اخرى نقل اليها حسن وكذبة الطراداة خلال غيابنا ، ومن هناك رجعنا الى قرية دين - بطريق غير التي سلكناها عند مجيئنا . كان الجو كأنه ربيع انكلترا مع نسيات عليلة والشمس تشرق بيضاء خلال زخات المطر الحقيقية . وكانت مجاري الانهار تؤدي بنا في البداية عبر مناطق الرعي حيث ضربت القبائل المتنقلة هناك خيامها لترعى قطعان مواشها حشائش واوراق الربيع . وكان ذلك الموسم الوحيد من السنة الذي تكتسي فيه الارض بجملة عجيبة من خضرة رقيقة طرية حولت تلك الاراضي البور الواسعة الى مسافات شاسعة براقعة من الحشيش الغض المنبتق عن تربة تغرقها المياه وترعى فيها قطعان من الغنم والمواشي مختلفة الالوان غير انها الوان ذات جمال خاص ، فمنها الاسود والبني والابيض . وعندما ابتدأت السماء تمطر استغربت وانا اشاهد الرعاة بدلا من ان يلبسوا ملابس اكثر فانهم خلعوا دشاديشهم وطووها فوق رؤوسهم . ولاح كما لو ان الفرح طغى على الجميع فقد هرول مهر صغير واخذ يضرب الهواء بقائمتيه الخلفيتين عند حافة الماء بنفس خفة الروح التي كان يرقص بها الاولاد الرعاة في المطر الخفيف اللامع ، وفوق رؤوسهم تسمع حسيس اجنحة الطيور المهاجرة بأنواعها المختلفة ، فثمة سرب يبلغ طوله الميل من الصقور الحمراء *red hawks* والطيور آكلة النمل *bee ea-fers* بلونها الاخضر والبرونزي ، وسرب آخر من طيور تبهر العين بلونها الاسود والابيض . وهناك بعيداً الى الجنوب منا سرب

كبير جداً من الوز الوحشي *wild geese* واصواته الحلوة الذهبية تنساب ناعمة صافية عبر الاميال من الاهوار الممتدة الى بعيد . وعندما توغلنا الى ابعد من ذلك كانت المسالك المائية تحتق بيساط من الازهار البيض والذهبية اللون المزدهجة والمتكاثفة جداً حتى انه توجد هناك بحيرات ومستنقعات في بعض المناطق يتعذر للعين رؤية انش واحد من الماء المحتفي تحت ذلك الفراش من الزهور . وكان تيزيجر قد كتب عن جنوب العراق قائلاً : « هنالك فصلان متميزان هما الصيف والشتاء لأن الربيع والخريف لا يدومان اكثر من شهر . » والفصل الاث ربيع والطبيعة خلاصة ساحرة اكثر من اية بقعة من العالم رأيتها في حياتي .

ووصلنا الآن منطقة - السودان - ، وقد كانت هذه عشيرة كبيرة في زمن مضى غير انها تضاءلت وتناثرت بسبب انشاء سد الكوت الذي أثر على هذه القبيلة التي كانت تعتمد على تفرعات دجلة العظيم . وقضينا تلك الليلة في قلعة الشيخ حاتم ابن صهيون وسط بستان من نخيل حيث الهداهد *hoopers* بألوانها الوردية تتطير بين الاغصان ، كانت بناية من طراز غريب عليّ ، وهي واسعة منخفضة انشئت من الطين والطابوق مع جدران يبلغ سمك الواحد منها اربعة اقدام . وغرفة الاستقبال يسند سقفها بواسطة ثلاثة جذوع ملساء من النخيل يحمل كل واحد منها في قمته المتصلة بالسقف تركيباً خشبياً مربعاً . اما السقف نفسه فيتكون من جنوع النخيل ايضاً وتتراعى بينها (بوارى) القصب التي تغطيها . وبدلاً من المقاعد الاوروبية المظهر الكريهة التي لاحظناها في غرف الاستقبال عند معظم الشيوخ ، وجدنا هنا مقاعد طويلة من الخشب الاسود ذات مساند من الخشب ايضاً في نهاياتها ، بينما فرشت الارض بقطع من البسط والسجاد .

وهنا سمعت شيئاً عن مشكلة ناصر وسلمان ، وقد اشيع ان - ناصر - سيخسر قضيته في بغداد ، وان الحكومة ستجرده من امواله لتعيدها الى ابيه . واخبرنا الشيخ حاتم ان (ناصر) استغاث به وبعده آخر من الشيوخ إلا أن الكل ردوا عليه بجواب واحد هو انهم سيساعدونه في حالة واحدة وهي ان يرضى برمي نفسه بين احضان ابيه ويطلب صفحه ومغفرته عما ارتكب بحقه من خطأ ، وحينئذ فقط

سيكونون مستعدين للتوسط له عند ابيه وتسوية الامر ، وذلك هو الحل الوحيد الذي يمكنه ان يعيد به سمعته الضائعة . واخذ حاتم يكرر مرة اخرى قوله بأن العقل لا يمكن ان يقبل ولا المرء ان يتصور ابناً يتحدى اياه الى حد يقدم معه شكواه الى الحكومة لتساعده ضده .

وبعد ان اضطجعنا لننام لاحظت ان الغرفة تكثر فيها الضوضاء من زقزقة السند هند Swallows حيث اعشاشها الطينية تلتصق بجنوع النخيل . وكانت عبر ساعات الليل كلها تغني وتتطارح الغرام فيا بينها وانغامها الفضية تمزق صمت الليل بتحدثٍ واصرار . ويوقفها عن زقزقتها ضوء مصباحي اليدوي وانا اوجه نحوها لحظة تنسحب فيها الى داخل اعشاشها بعار وخجل كعشاق هايد بارك في لندن حين تتسلط عليهم اضواء سيارة عابرة ، ولكنهم مرعان ما يعاودون غزلهم وآهاتهم بإصرار عندما يعبر الضوء عنهم .

☆☆☆

والآن وفي هذا المكان ادر كت مدى صحة اقوال ثيزيجر عن الخنازير ووحشيتها في الهجوم فقد رأيت جروحاً فظيعة احدثها الخنزير كشق طويل من الركبة الى الورك ، أو ظهر ممزق ، أو لحة ساق تتدلى قطعاً ممزقة من العظم . وقد سمعت ان ما يقرب من نصف المعدان يحملون آثار مثل تلك الجروح بدرجات متفاوتة .

وعلى اية حال فقد كانت القصص كلها تدور عن خنزير جريح ، او خنزير كان يغط في سباته حين فوجيء بمعدان يقطعون القصب او بصياد سمك يخوض الى منتصفه في المياه الضحلة بين القصب او بمشحوف صغير يسير في غير ما حذر حتى تصدمه احدي جزر القصب الصغيرة التي بناها احد الخنازير لينام فيها . والصورة ابدأ واحدة لحيوان جافل فاجأه عدو خلال نومه ، او لحيوان ما يلتهب جرحه الما باقتراب مهاجمه . ولكي اعزز ثقتي بنفسي فهناك الحقيقة في انني قتلت عدداً لا يأس به منها ، ولم يتحدثني خلال ذلك كله احدها او يظهر امامي شيئاً غير الخوف . واذهب الى حد ابعد فأقول ان المعدان لا يظهرون غير حذر قليل في التوغل الى

مناهاات القصب لتتبع الخنازير . وهناك نقطة واحدة لم تقتني ملاحظتها وهي انتشار الخنازير في كل مكان وكأنها ارانب انكلترا قبل ادخال حيوان الخلد الى البلاد . وكنت في داخلي اظن الخنازير حيوانات لا تخيف الانسان وانها غير خطيرة ، وقد كنت بحاجة الى درس عملي تلقني اياه لكي اغير نظرتي عنها ، وكان ان حصلت عليه .. درسا قاسيا .

فقد غادرنا قرية الشيخ حاتم في ذلك الصباح عائدين الى - ملايه - والسماه ملبدة بغيوم داكنة تلتقي عند الافق ، وترامى الى اسماعنا رعد بعيد ينذر بالمطر ومزاجي كذلك الطبيعة المكفهرة اضطراباً وضيقة . انه ليس من السهل لرجلين ان يخاطرا برحلة طويلة كهذه لوجدهما ، كما فعلت مع ثيزيجر ، ما لم يعرف احدهما الآخر جيداً ، وكان دماغني يضح صباح ذلك اليوم بتصورات واخيلة مظلمة سوداء عن ثيزيجر . حيث انه كان بين اصدقائه من المعدان بينما كنت انا بين اناس غرباء لا اعرفهم لذلك كثيراً ما كنت اشعر بالعزلة والخيبة والفشل . ولا يمكنني ان اصور حالتي تلك بغير كلمة .. تجهم وعبوس دائم . ولم يذهب هذا الشعور الطاغى البغيض عندما صحت الدنيا في الصباح وبزغت الشمس الدافئة لتضيء المياه الضحلة الراكدة والنباتات الزاهية الطرية الخضراء . وتركنا الارض اليابسة والقبائل الرحل وراءنا بجيامهم السود وقطعان مواشيهم الكبيرة . ولم يمض طويل وقت حتى لاح لنا الماء ثانية يفرق جانبي القناة المنخفضة . وظهر وكأن المياه لم تصل المنطقة منذ فترة بعيدة لأن القصب كان اعواداً متناثرة رقيقة لا يزيد طولها عن قدم او قدمين . لذلك كانت صفحة الماء تراءى واضحة من خلاله وورائه حتى جبال خوزستان الجائفة بشحوب عند الافق . ومرت بنا جماعة من المهريين في زورقين او ثلاثة المنحنت سارياتها الى الامام تحت ضغط الجبال المشدودة الى اطرافها والتي يجرها بعضهم لتندفع بحمولتها الضخمة من الخنطة المهرية عبر الحدود الايرانية . وقد كان في الزورق عرض بهي لأسلحة اولئك الرجال وهم يحملونها على اكتافهم . وفي تلك اللحظة فقط مر على خاطري بغموض ان ذلك كان اليوم الاول منذ زمن بعيد ارى فيه اننا نحمل اسلحتنا فارغة وغير جاهزة للاطلاق

لمواجهة خطر طاريء يفاجئنا .

وكان يحوم في الجو مرب كبير من الحضيبي غير بعيد عن يسارنا يريد ان يعود الى النقطة التي طار منها على مسافة مئات من الiardات عنا . وعندما اخذت اراقبه بدأت اسرابه تهبط ضاربة سطح الماء يهدير اصواته ، والجو يبعج باجنحته المرفقة ، وحين اراد ان يحط طار مرة ثانية . وكانت جماعة منه تهبط الارض بلا حراك واعناقه الطويلة ممدودة الى الامام ، ثم يفزع ويطير ثانية ، بيد ان اماكنه على سطح الماء مرعان ما تحتلها جماعة اخرى . وتحوم على ارتفاع عدة اقدام اسراب اخرى من الطيور وتجتمع كلها لتصبح في لحظة واحدة وكأنها كتلة متحركة من دخان ، وحين ترتفع يلمع اسفلها في بياض ناصع كالفضة .

وقد لاحظتيزيجر طول تحديقي فيها فقال : « انك لن تستطيع ان تتناول كمية كافية من الطعام في المكان الذي سنقصده وربما ليس اكثر من قطعة خبز قد تلحق بها كمية من حليب .. فهل تعتقد بعد هذا انك ستستفيد من الطيور ؟ » فنظرت الى حيث حطت جموع الحضيبي ، ولاح لي انها ستبقى هناك ، ولكن لم يظهر شيء من حولي يمكنه ان يخفي حتى فأرة صغيرة ، فكيف بانسان كبير . وتملمت في أعماقي رغبة بانني سأكون خارج المشحوف ، وسأكون قادراً أن أقف لتستريح ركبتي المتورمة من الجلوس متربماً داخل الطرادة . وسأكون ايضاً لوحدي . للمرة الاولى منذ عدة اسابيع . وحينئذ لا بد ان يطغى علي شعور بالحرية . فقلت له : « سأحاول .. يجب أن أحاول ، ولكني أظن الطيور لن تأتي والطرادة قريبة منها ، لذا يجب ان تبعدوها على الاقل مسافة نصف ميل ، واسمحوا لي بنصف ساعة ثم ارجعوا لي بعد ذلك » وأجابني تيزيجر قائلاً : « حسناً .. هآك ستخراطيش ولكن ماذا ستفعل لتخفي نفسك ؟ »

— سأجد شيئاً ما .

قلتها بغموض وسكت . لقد كنت في شبابي صياداً للطيور ماهراً ، ولذلك تصورت نفسي الآن وانا اتمكن من صيد الحضيبي في حين يعجز هذا الشخص

الآخر عن ذلك . وعندما قفزت من الطرادة الى الضفة الطينية من القناة قال لي
ثيزيجر : « لا تحاول ان تضع هذه الاطلاقات هباء . »

وعندما انحدر المشحوف في القناة ثانية جلست على الضفة الطينية واخذت ارفع
بنطلوني الى اعلى . وادركت ان لا فائدة من ذلك فإنه سينزل تدريجياً في خمس
دقائق . وعندما ارفعه ثانية سأجده ملطخاً وساقى بالطين ، بينما لا يحتاج المرء في
الدشاشة الا أن يرفعها ويشدها حول وسطه . فرفعت بنطلوني وربما لن يستمر
ذلك لأكثر من قطع مسافة مائة ياردة . ان معظم الخضيري قد طار الان ولم يبق
في الجو غير طير غريب يدور بعيداً عني ، وواحد من طير نعيج المائي الضخم
يخلق في الفضاء ناشراً جناحيه باعتماد وكأنه سفينة حربية .

كانت خطي ان ادخل المنطقة التي احتلها البط قبل قليل ثم طار منها ،
واقرفص هناك اذا دعت الضرورة فليني سأخوض في المياه الى النصف في لهفة الى
العودة المنتظرة .. عودة الخضيري . ولاحظت انه لا يوجد غير ممكن واحد
يمكنني الاختفاء فيه ، فعلى مسافة قصيرة عني بقعة من الارض ترتفع ثمانية عشر
انشاً عن سطح الماء . وثمة بقعة اخرى الى الورا من هذه ولكنها اصغر حجماً
وربما كانت احدى زوايا سد تراي غمرته المياه . اما البقعة الارضية الاولى والاقرب
فكانت على مسافة مائتين وخمسين ياردة عني .

وتركت ضفة القناة واخذت اخوض ، ووصل الماء الى تحت ركبتى واحسست
بالقاع الطيني رخواً لزجاً مع بقايا حادة من عروق القصب توخز باطن قدمي
الحافيتين . وراح خاطري في تساؤل طفولي طغى عليه صباح ذلك اليوم كله : « ان
ثيزيجر يملك جزمة طويلة لئلا هذه الحالة غير انه لم يخبرني ان اجلب معي واحدة
من لندن . » وظهر واضحاً ان الجاموس كان قد مر بهذه المنطقة قبل ان تغرقها
المياه تماماً ، اما آثار اقدمه العميقة فقد صارت مزالقة خطيرة . وحينئذ عبر في
ذهني ، بسبب ضربات الكاميرا على صدري ، انه اذا حدث وان زلت قدمي فلن
أتمكن بعد الآن من التقاط صورة اخرى ابداً .

وفي منتصف المسافة تهدل طرف بنطلوني في الماء ، وشعرت بلذة طفولية وانا

أمسك بالطين وأزيمه عن فخذي بينما كنت أرفع بنطلوني الى اعلى مرة اخرى ولاحظت ان باطن قدمي اليمنى تسيل منه الدماء بغزارة . ورجع عدد من الخضيرى واخذ يدور في المنطقة فلأت بندقيتي وسرت في طريقي . وحين اختفت الطيور ثانية ظهرت السماء عظيمة صافية الا من غيمة بيضاء كبيرة تمتد عبر ذلك الصفاء والهدوء .

و كنت على بعد يقرب من الخمسين ياردة عن البقعة الطينية عندما وصلت مايشبه الخندق ، وبينما يتناثر القصب الأخضر الطري بلا انتظام في الاماكن الاخرى ، رأيت هنا حزاماً ممدداً من ارض طينية لا ينمو فيها عود واحد من القصب وربما كانت في طولها لا تزيد على الخطوتين . فاخترت هذه البقعة في حذر بقدم واحدة ظناً مني ان الماء فيها عميق ولكنه في الحقيقة لم يكن كذلك فقد وصل الى ما فوق ركبتي بقليل فخطوت الى الامام بالقدم الثانية خطوة اخرى .

وفي هذه اللحظة رفعت عيني واظن ان اذني لم تتلقف صوتاً ما .. فرحت اسير في طريقي . وكان خلف هذه البقعة الطينية بقليل والى اليمين على مسافة حوالي ثمانين ياردة غني خنزير وحشي كبير ، وهذا كل ما استطاع فكري ان يحصره في البداية ... دهشة واستغراباً وتساؤلاً اثاره ذلك الحيوان الضخم وهو يظهر فجأة في حين لم يكن هناك شيء يخفيه من قبل . ولاحظت الخنزير يقف امامي وجهاً لوجه وانه يتحرك نحوي ، وان كل مرحلة من مراحل هذا الادراك لا تدوم غير لحظات قلائل ، قلائل جداً ولكنها كانت مراحل واضحة جداً قبل ان تنتظم كلها في وحدة كاملة من ادراك كلي للموقف . وهنا قفز قلبي الى فمي ، فقد كان الحيوان يتحداني وكنا وحيدين ، هو وانا ؛ كبقعتين تافهتين تعلقان هدوء تلك الابعاد العظيمة من الامواه البراقة ، احدنا ساكن والخوف يطبق على كل خلية فيه اما الآخر ...

البندقية ! .. وقفز الى ذهني فجأة اني امتلك بندقية وانني سأكون سالماً وانه في استطاعتي قتل هذا الحيوان الذي يريد القضاء عليّ ، وضحكت لهذا الخاطر المفرح . ولكفي وانا اسحب بندقيتي واسدها نحو هدفي خطف في ذهني ان

الاطلاقات فيها ليست من نوع LG الذي يستعمل لصيد الخنازير وانا هي من نوع رقم 5 الذي يستخدم لصيد طيور الخضيرى . ان بندقيتي الان عديمة الفائدة تماماً . وانا وان كانت افكارى شاردة إلا ان قدمي كانتا ثابتتان على الارض . واخيراً سمعت ورائي على مسافة بعيدة اصواتاً مختلطة . وكان الخنزير بعيداً عني غير ان خطواته كانت تقترب مني مع مرور دقائق الزمن .

وتذكرت كل ما اوصاني به نيزيجر ، ودهشت لأني كنت افكر بوضوح مع ان الخوف والرعب يمتلكان حواسي : « اذا التقيت صدفة بخنزير يهاجمك وليس معك غير اطلاقات لصيد الخضيرى فأسألك بالله لا تفعل ما يفعله المعدان فتضيع ذخيرتك . في لحظات من الفزع في حين يكون الخنزير على مسافة عشرين ياردة عنك ، فان ذلك يثير جنونه ووحشيته ، وحينئذ لا يمكنك ان توقفه بأية حال من الاحوال ، وربما سبب لك ذلك عواقب وخيمة ، ولكنك ربما تتجنب الموت عندما تضبط اعصابك . انتظر ريثما يقترب منك تماماً ثم اطلق النار بين عينيه واستلق حالاً على بطنك لكي لا تنغرز انياب الحيوان في امعائك .. وحذار ان تستلقي على ظهرك»

تلك الخيالات أشعرتني بأن الكاميرا ستتخطم اذا اتبعت نصائح نيزيجر . وانا حتى في تلك المرحلة لم يكن تقديري للموقف كاملاً . وخيل لي ان الخنزير ما زال على مسافة اربعين او خمسين ياردة عني ، ومرّ ذلك في رأسي فترقت فيه خطوات . كان علي ان اقوم بها ، ينبغي علي ان اقف بهدوء وأدع الحيوان الضخم يخطو ويستجمع قواه حتى تصبح انيابه في وضع تقرب فيه من ملامستي ثم اطلق النار فيما بين عينيه ، واستلقي حالاً على بطني . وظهرت كل هذه الخطوات سخيفة باردة امامي ، واخذ جسدي يرتجف ويهتز تحت تصور الأنياب الحادة القاطعة . واتذكر جيداً اني عندما قتلت اول خنزير في الهور اخذتني الدهشة لتركيب تلك الانياب الحادة .

ويمكنني رؤيتها الان جيداً مع اني لا اتذكر منها الان ، لسبب خفي ، غير الناب الايسر . وظهر كتفاه ورأسه كالثور ضخامة بينما اختفت قائمناه الخلفيتان تحت الماء الذي اخذ يقناثر من حوله وهو يشق طريقه نجوي حتى اقترب مني كثيراً

ثم رأيت ذيله يرتفع فوق ظهره في قفزة اخيرة يقتلني بها . وحاولت ان اسد
بندقيتي وان اقفز الى منطقة افضل من هذه ، الا انني وجدت قدمي وقد التصقتا
بالطين فكان علي ان احرهما . ولم استطع السيطرة على نفسي من الخوف عندما
قفزت خطوتين الى وراى في ماء اكثر ضحالة حسبته خندقاً في تلك اللحظات التي
مرت علي كالمصور .

واسندت البندقية على كتفي وسددها بين عيني الخنزير ، وكان على مسافة
خمس عشرة خطوة وانا اعرف الان بأن الخنزير عندما يكون في مثل تلك المسافة
من للشخص فانه يظهر مسيطراً على الموقف . وتطلب الامر كل ما في قدرتي من
سيطرة على اعصابي لكي اتمالك نفسي فلا اطلق النار . وتقدم الحيوان نحو
وصار علي بعد عشر ياردات فقط ! .. خمس ! .. واخيراً قررت الا ادعه يلسني
قبل ان افتح عليه النار ، وكنت علي وشك ان اضغط زناد البندقية عندما وصل
هو الى الجانب الاخر من الحزام الذي حسبته خندقاً ، ذلك الشريط الخالي من
القصب الذي قفزت انا منه الى وراى . وقدرت بعد الحيوان باثنتين او ثلاث ياردات
عن فوهة بندقيتي .. وفتحت النار . ولكنني حتى وانا اطلق الرصاص تملكني
شعور بأن البندقية لم تعد مسددة فيما بين عيني .

ولم ادرك في البداية ماذا حدث حيث اغلق علي الامر في تلك اللحظات حتى
انني لم اتمكن من استيعاب التغيير الذي حصل في الموقف في الدقيقة الاخيرة ، او
ان تصور الفرصة الذهبية النادرة التي انقذتني . وقد كنت اطلق النار دون ان
ادرك عدم حاجتي لذلك او بكلمات اخرى ان اطلاق النار ربما يعرضني للخطر
ثانية ، فقد وصل الخنزير في ذروة اندفاعه الاخير علي الى المنطقة التي حسبتها
خندقاً والتي تفصلنا عن بعضنا على مسافة لا تزيد على الثلاث ياردات ، وربما هو
الاخر حسبها خندقاً عميقاً . ان من عادة الخنزير الا " يهاجم عندما يكون في ماء
عميق ، وهكذا توقف هو عند تلك النقطة واستدار راجعاً نحو اليسار بكل
سرعة ، اما الاطلاقات التي لم اتمكن من السيطرة على نفسي الا ان افتحها فقد
اصابته وراى كتفه في نقطة تقع فوق قلبه تماماً ، وظهرت بقعة سوداء كثيفة في

جلده ولكن لم يظهر عليه انه شعر بها فقد اخذ يركض عبر الماء الضحل محاولاً عبور القناة التي تبعد مائة ياردة خلف الطرادة البعيدة .

وهكذا ، تم كل شيء دون أن يستمر اكثر من نصف دقيقة .

وظهر في الطرادة نشاط كبير مختلط ، وترامى الي صوت ثيزيجر يحمله النسيم . وعبر الخنزير القناة وراح يركض على ارض نصف جافة عند الضفة الثانية قبل ان يتلقى مني الاصابة الخاطفة الاولى ولكنها اخطأته وهكذا كانت الثانية اما الثالثة فقد اصابته خلف اضلاعه بينما كان يركض بأقصى سرعته على مسافة تقرب من ثلاثمائة ياردة ، واستمر في عدوه السريع حتى تلاشى عند المسافات البعيدة ، ولم يكن ثمة بعد شيء اخر أقوم به .

ووجدتني عاجزاً عن ايجاد حثاني وشفتي نحو حيوان جريح ، وفي الحقيقة لم اشعر بغير الاسف على نفسي ، وليس عليه ، اولاً لأنني لم اتمكن من رؤية كم نفذت اطلاقاتي في داخل جسده ، وثانياً لأنني لم احفظ في ذاكرتي صورة تلك الانساب الحادة التي اوشكت ان تنالني ومنذ ذلك الوقت تغيرت نظرتي تماماً نحو تلك الخنازير الوحشية .

وكذلك صارت لي فكرة اخرى نحو الكتل الطينية التي تصلح كملجىء يمكن الاختفاء وراءها لاطلاق النار على جموع الخضيرى الحلقة . وقد وجدت منها واحدة الان ، في حين لاح لي اني اتذكر منها اثنتين سابقاً . واختبرتها وتفحصتها جيداً قبل ان اخوض في الماء ثانية . وعلى اية حال لم تتمكن هي ان تحميني من العيون حتى دخلت الماء الى منتصفى بينما احتضنت بقية اجزاء جسدي تلك الكتلة الطينية اللزجة . ولم يكن موقعها مناسباً للصيد فقد اخطأت اصابة طير معين عبّر فوق رأسي . وقدرت الموقف منذ بدايته حتى هذه اللحظة فترامى لي ان منزلي انخفضت في اعين من كانوا يشاهدونني من القارب والذين لم يعرفوا درجة الخوف العظيمة التي اخذت علي كل جوارحي ، ورأيت ان بقائي متفرصاً في الطين ، في الوقت الذي اخطىء فيه اصابة الاعداد الكبيرة من البط ، يزيد في سوء ظنهم بي .

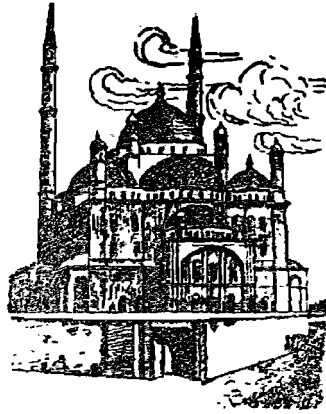
ولم يظهر ان الطراة ستتحرك من مكانها لتأتيني . وخرجت بعد فترة وصحت على تيزيجر عبر صفحة الماء : « هل تظن الامر يستحق الانتظار ؟ » ولم يكن ثمة جواب منه ، فأعدت صراخي ثانية ، بل عدة مرات ، ووصلني الجواب اخيراً في غير ما وضوح ولاح لي وكأنه يقول : ايه ايها الاحق !

وسرت في دربي بجذر الى وراء نحو الطراة . وكأني تيزيجر مسروراً جداً لرؤيتي وصيبة القارب يثرثرون كالقردة وقد صمم كل واحد منهم ان يقبلني بجمرة وأحسست بشارب سبيتي يخذشني خلال ذلك .

وقال تيزيجر يخاطبني : « ترى اي رجل هذا !.. لقد قابل هجوم خنزير وحشي قريباً منه الى حد لم يسبق له مثيل ، انه لم يكن من حقه ان يعيش ابداً . وقد انقذته معجزة لا يمكن تصورها ابعدت الخنزير عنه في اخر لحظة – وفوق هذا فعندما كان واثقاً من سلامته راح يطلق عليه رصاص بندقيته باطلاقات رقم ٥ ! انك حقاً انسان احمق ! انها لم تكن غير معجزة ثانية حيث لم يستدر اليك الخنزير . حسناً ، حسناً ! هل تدري انني تعلقت بك روحياً تماماً عندما وجدتك مستقتل ؟ وادركت انني سأفقدك نهائياً عندما تذهب عني .. اي رجل هذا ! .. لقد استمر في سيره في الطين كالفرس ، واخطأ اصابة خضيري قريب .. انه شاذ ! انه مجنون تماماً ! وعلى اية حال فقد سررت جداً لأنك لم ترتبك ، وحينئذ لن نجرؤ ثانية على رفع اعيننا في الاهوار لو انك ... هل تدري انني لم استطع مغالبة نزوة في داخلي وددت فيها لو يتمكن الحيوان منك ؟ – لا أعني شيئاً شخصياً ، لكنني لم ارى ذلك من قبل فوددت ان اراقب ما سيفعله بك الخنزير ، بيد ان العملية لم تكن كاملة ... لم يبرهن لك الواقع ما قلته لك سابقاً ان على الشخص الا يخاف . عندما يهاجمه الخنزير ؟ الم يكن ثمة وقت للعمل بهذا القول ؟ – لقد ادركت انك ستجد كل شيء حسب ما اوصيتك به . »

ورأيت من الافضل الا اذكر له بأنني لم استشعر الخوف يوماً في حياتي يطبق عليّ كما استشعرته عند تلك اللحظات الطويلة ، وان مجرد التفكير في ان ادير

ظهري الى تلك الانياب الحادة القاتلة دون رؤيتها بملء عيني يثير في رعباً وفزعاً
لا يمكن تصورهما . واظن تزيح لم يتفهم الموقف بصورة تامة ، واشك في انه مر
بتجربة من الخوف والهلع في حياته كالتي مررت بها مع الخنزير .
وظننت انني سأفقد احترامي لديه لو علم بكل ما دار في رأسي خلال تلك
اللحظات الطويلة الرهيبة .



الفصل الحادي عشر

لقد أثر اصطدامي بالتحزير على تفكيري ونظرتي الخارجية تأثيراً عميقاً ولعل هذا يرجع الى اني لم اعد احس بعد الآن بأني شيء لا قيمة له لأن ثمة مخلوق تجري في عروقه دماء الحياة ، أحس بوجودي وسط تلك المساحات من الامواه الضائعة والسوء واللا نهاية لها ، واعتبرني من الاهمية بحيث يجب القضاء علي .

ومنذ ابتداء رحلتنا ازعجني حياة الكسل التي عشتها ، فقد كنت مسافراً مدلاً ليس له ما يعمل ، ولعلها المرة الاولى في رجولتي اتخلى فيها تماماً عن مسؤولية القيام بأي عمل اذ لم اقدخل باتخاذ ادنى قرار او الاشتراك بعبء ابسط مسؤولية من ترتيبات السفر . ان اوقات الفراغ تتجرد في الواقع من لذتها اذا قيدت فيها كل حركة من حركات المرء . ولم يبق في الحقيقة من حرية في فراغي سوى اشعال السيجارة اقوم به دون مساعدة احد . اما حركات جسمي الاعتيادية فقد تقيدت تماماً اذ كنت مرغماً على قضاء معظم اوقاتي اما متربعم في قعر طراد حربية او متربعم على ارض احد الاكواخ . وحتى لو لم تكن في الطراد فان السير على الاقدام او مد الرجل بصورة تامة امران مستحيلان حيث لم تكن توجد هناك ارض يمكن السير عليها ، وحتى لو وجدت بقعة من اليابسة في المسافات التي تفصل بين الاكواخ فان الكلاب الضارية كانت تحيط بكل بيت الى حد يعجز معه المرء عن التجول لوحده ، ولنفس السبب لا يمكن للشخص ان يترك البيت لقضاء حاجته الطبيعية دون ان يسطحب معه رجلاً مسلحاً ينتظره بشكل يثير السخرية .

واظن ان هذا التقييد البالغ لفعالياتي الجسمية وخلو ذهني من تحمل اية مسؤولية جعلني اكثر يقظة وانتباهاً لما يجري حولي ، ولكنه اثر في من الجهة الاخرى شعوراً بأنني قد اصبحت صورة لطفل صغير بكل ما يرافقه من التزامات مزعجة ومن خيبة وحرمان . وكالطفل ايضاً كنت ادرك للتقليل مما يقوله الراشدون من حولي . وبنفس الشعور كنت اجد عند جلوسي خلال تلك الليالي الطوال الى حلقة تضم اربعين وجهاً يضيئها نور الموقد بأن لذة تفحص الوجوه تتلاشى كلها عندما يدرك الانسان بأن وجهه هو هدف كل نظراتهم المنفحصة .

توقفنا ذلك المساء عند - ابو مالح - وهي قرية صغيرة مكنتزة تسكنها عشيرة - السودان - وقد انشئت بيوتها على ضفتي مجرى مائي ضيق ، وكنا لا نزال على بعد عشرة اميال شمال حافة الاهوار الدائمة ، والارض الزراعية تمتد وراء حدود القرية وكان بعضها يبدو قاحلاً لعدم وصول المياه اليه . وكانت القرية صاحبة ، ولعلها اكثر قرى الاهوار صخباً إذ ان البيوت فيها تختلف عن بقية القرى في كونها شديدة الالتصاق مع بعضها . وقد تعالي هنا نباح الكلاب ، مئات الكلاب كالرعد يختلط بصراخ اصحابها الاجش ويتمازج كلياً مع اصوات اعداد هائلة من الاوز الاليف *Domestic geese* . وأحد الاشياء الاولى التي لاحظتها بعد ان صعداً ضفة القنال المنحدرة ، نحو حشد القرويين الذين ينتظرونا ، فراحاً من الدجاج صغيرة لم يمض على تفقيسها اكثر من يومين او ثلاثة . كانت مدورة الجسم خضراء اللون قטיפية الملمس وقد انحنت عليها امها الداكنة اللون حانية بعطف ورقة وكأنها كانت تقدر حنوها وعطفها الكبير هذا . وبينما كنت اتطلع في تلك المحلوقات وجدتني احملني في وجوه فصيل من العجول الصغيرة ربط احدها الى جانب الآخر بالحبل وخضب جبينها بالحناء . ووقفت خلفها واحدة صبغ ضرعها بالحناء . ولونت حلمات ائداًها باللون الاخضر . وكان ذلك وقت رأس السنة حسب التقويم الفارسي ، وكانت تلك الالوان وسيلة فعالة ضد (العين الشريرة)

لم تكن تلك (العين) على ما فهمت شيئاً مادياً يكمن في قوة فرد معين وانما كانت بالمعنى العام (عين) كل ما يضر ويؤذى من القوى الخبيثة . واولئك الناس

يعتقدون بأن المناظر القبيحة التي تعافها النفس لا تحظى بانتباه القوى الشريرة وبالتالي ستسلم من اذاهها . ولهذا فالطفل الذي يخلف بضعة اطفال ماتوا كلهم يسمى باسم شاذ حقير لكي يصرف عنه أذى القوى الشريرة ولتجنب العائلة تضحيات كبيرة جديدة ، واكثر هذه الاسماء في هذه الناحية هي اسماء الحيوانات القذرة ، فقد يدعو خوف الابوين على طفلها من الموت الى ان يقضيا عليه بأن يحمل الى الابد اسم (خنزير) لو (كلب) او (واوى) . اما اقل الاسماء تطرفاً في هذا الباب فهي التي تحمل الرغبة في اظهار المسمى بين مجموعة من الاشياء النافهة اللاقيمة لها مثل (ماعون) و (تمر) و (فنجان) . وادهشني يوماً ان اسمع بأن هناك طفل يدعى (حبيب) واعتبرتها من الجرأة بكان ان يسمى طفل بمثل هذا الاسم الى ان علمت بأنه كان اصغر خمسة اخوة احياء .

و كنت اعلم ان الصينيين يستخدمون ما يشبه هذه الوسطة كأن يطلقون اسم انثى على ذكر او يلبسونه ثياب فتاة في محاولات يخدعون بها الارواح الشريرة .

وللتعاويد المتقولة^(١) التي يسميها الايطاليون (حاملة الحظ *Porta Fortuna*) والانكايذ الكاثوليك (نياشين *Medals*) أهمية عظمى عند هؤلاء الناس وحملها عام بينهم بسبب ايمانهم بالخرافات ، وهي تستعمل بصورة خاصة في مرحلة الطفولة وفي حالات المرض . وقد تمتلك العائلة في بعض الاحيان مجموعة كبيرة منها تحفظها في خزانة خشبية مع أعز وأغلى ممتلكاتها ، ويصادف احياناً ان يكون عدد التعاويد كافياً لأفراد العائلة بحيث يتمكن كل فرد ان يحمل واحدة في حالة وفود وباء محلي ، وتختلف التعاويد عن بعضها البعض اختلافاً بيناً . ويستغل (السادة) المتجولون سذاجة اولئك الكادحين بوصفهم احفاد الرسول لبيعهم تعاويد تقيهم شر الاصابة بالمرض او تساعدهم في الشفاء منه ، وقد تحمل وريقات التعاويد ، ان كان السيد متعلماً ، كتابة ركيكة لبعض آيات من القرآن ، او لبعض الرموز والخطوط الملتوية ان كان (السيد) أمياً وذلك لكي تحظى باحترام وتقدير

(١) كلمة « حرز » وجمعها « حروز » يطلقها الناس في العراق على هذه التعاويد .

القرويين البسطاء . وكثيراً ما يصادف المرء بقايا اشياء كانت تعتبر في يوم ما من السحر. فقد شاهدت في قرية - ام الجريفات- التي تقع في منطقة الاوار والوسطى طفلاً مصاباً بحمى خفيفة وهو يحمل في عنقه خرزة مدورة في حجم بيض الحمام سوداء اللون ثقيلة شديدة اللعان . وقد يكون لانعدام الحصى في الاوار ، وحتى في المناطق البعيدة جداً عنها اثرأ في جعل هذه الخرزة تبدو عندهم وكأنها من التحف . لم يكن ثيزيجر بصحبي في ذلك اليوم ، وكانت مفرداتي العربية قليلة جداً لكنني استطعت ان اسأل عن مصدر الخرزة ، وعلمت انها استخرجت من حفرة تحت احد اكواخ القرية . ولاح لي انها ربما كانت عريقة جداً في القدم وقد تلقي ، كما اعتقد ، ضوءاً على اصل المعدان المجهول لأن الحصاة غير اعتيادية . وحاولت شراءها من ام الطفل غير انها رفضت فظننت انها تحاول المساومة . واخيراً عرضت سعراً جعلني أتأكد بان ليس في نيتها بيع الفص ، وان الجلبة التي ثارت حوله لم يكن القصد منها رفع سعره ، وانما الامتناع تلمأ عن البيع بسبب المنزلة العالية التي يتمتع بها ذلك الحجر عند هؤلاء الناس الذين تكون اكثر اشياهم رخيصة تافهة وفي مرة اخرى رأيت حجراً اخر اكثر زرقة واشد صلابة ، وقد ربطت مع عدد من التعاويذ في اطراف طرحة امرأة كانت ربة المضيف في قرية - دين - وعرضت علي استبداله بتعويذة الذهب والمينا الفارسية التي احملها انا ، لكن حب الاستطلاع العلمي في داخلي قد اختلط الآن بمواطني وبجرفاتي انا شخصياً فرفضت عرضها .

ولم يتيسر لي الحصول على احد تلك الاحجار حتى عدت الى البصرة ، فقد كنت اقطع الجسر الخشي الى السوق عندما شاهدت شحاذاً يجلس القرفصاء في زاوية الجسر وضفة القناة . كان معدماً يرتدي (البشت) القروي المصنوع من الصوف ، ولاح واضحا انه لا يرتدي شيئاً تحته اذ ان جلده العاري كان يتوضح من بين الاماكن الممزقة منه ، وكان هذا (البشت) مفتوحاً عند الصدر وقد استقرت على بساط شعر صدره الابيض خرزة بيضوية كانت اغرب ما شاهدته منها في حياتي . وعدت ادراجي الى دكان صابئي كنت اعرفه حيث تعاملت معه منذ عهد قريب ، واقهمته بفرضي فعبر الشارع معي واثرت الى الخرزة على صدر

الرجل الشحاذ من مسافة بعيدة غير انه هز رأسه وقال بلغة انكليزية ركيكة :
« انه (لم) يدع » . واعقبها بجملة عربية على درجه من التعقيد تعذر علي فهمها ،
ولما رأى انني لم افهم حاول ان يقول بانكليزية تختلط بالعربية : « من قبل ..
من قبل جداً جداً كلش ، كلش مقدس جداً .. موبيع فنش ! »

فقلت له : « حاول الاتفاق معه على شرائها وحاول ايضاً ان تسأله من اين اتته
وسأنتظرك انا في الدكان » . ثم عاد بعد دقائق يفرك الحجر في يده ويقول :
اربعة دنانير ، انا اخذ واحد - خمسة ، نعم ؟ .. معيدي هو من مدينة القرنة . فصت
من ابيه » .

وتساءلت في نفسي عن الثمن الذي استلمه الشحاذ عن تعويذة ابيه هذه ،
وكنت ارجو ان يكون قد استلم حقيقة ولو على الاقل نصف المبلغ الذي ذكره
الصائبي . وليس صعباً ان يدرك الانسان كيف اكتسبت الخرزة هذه المنزلة
السحرية عندهم فقد كانت شيئاً غريباً بذاتها ، وتبدو وكأنها نوع من انواع العقيق .
كانت معتمة الزرقة ذات خطوط سود ، وتوزيع الالوان على احد جانبيها يشبه
العين تماماً ، لكنها عين عمياء لأن البؤبؤ لم يكن بيتناً ، وكان يحيطها غشاء حلبي
اللون فلاحت وكأنها عين حيوان ميت او انها عين ظمي او عجل . وعندما كنت
انظر فيها خطرت على ذهني كلمات قصيدة حفظتها من بيئة اخرى مختلفة :

كنت الحيوان الميت ..

الذي تنطبق عينه الباردة على شوكة مدبية ..

والذي اختنقت جثته حالاً بالطحلب ..

بينما تحتفي جمجمة بين نباتات السرخس ..

لم يكن باستطاعتي ان اكتشف مدى ما يلعبه السحر والشعوذة في حياة هؤلاء
الناس كما لم يكن باستطاعة ثيزيجر ان يساعديني في ذلك .

ومن بين ملاحظتنا الاربعة اعترف سببتي بأنه يؤمن من كل قلبه بالجن ، اما البقية
فقد اعتقد اثنان منهم بأنها سفستتنا هي التي تدفعنا الى التساؤل عن هذه الاشياء .

واما الرابع ، الذي كان اكثرهم تقبلا لمعرفة الحلول الطبيعية لمثل تلك الظواهر ، فقد وجدنا انه يؤمن ايمانا طفوليا بالختان الذي تقوم به الملائكة للاطفال . كان هذا الاعتقاد واسع الانتشار بين قبائل المعدان الى حد غير طبيعي ، وحتى بعض الشيوخ من ذوي الملكية الصغيرة يؤمنون به على الرغم من انهم تأثروا بالعلوم الاوروبية الى حد ، واخبرنا مضيفنا مقتخراً بأنه هو نفسه قد خنته الملائكة ، واقسم بالامام الحسين انه شاهد بنفسه اطفالاً تبلغ اعمارهم الثالثة او الرابعة يضطجعون بكل هدوء وعلى وساداتهم ما قطع من الجلد عند اجراء عملية الختان مع قطرات من الدم في الفراش الذي خنتوا به . والعرف عند المعدان لا يعتبر هذا الختان شرعياً وقانونياً إذ يعاد ختن اولئك الذين تمت لهم العملية بتلك المعجزة الغريبة لكي يتفق وما تعارف عليه المجتمع هناك . ويعترف مضيفنا بأن الملائكة غير اكفاء تماماً في هذه العملية مع انه نفسه لم يقيم باجراء العملية الاضافية له ، وابقى ختانه على ما اجرته له الملائكة . وبدأت علائم الانزعاج على ملامح مضيفنا هذا عندما اكتشف اننا نشك بوجود الملائكة الذين يحملون مباحص الجراحين ، فما كان منه إلا أن قال : « ان في مضيفنا هذا اولاداً من الذين خنتهم الملائكة ! » ثم صاح : « داود ! .. تعال ودعهم يشاهدوا ما قامت لك به الملائكة ! » وخطى طفلاً في الثانية عشرة من العمر نحونا ورفع دسداشته دون ما ارتباك او خجل . كان النظر مضللاً للنظرة الاولى . و اضاف مضيفنا قائلاً : « انظر ! .. اذا كنا نعتقد بوجود الله دون رؤيته فلم لا نعتقد بهذه الاشياء التي نراها فعلاً بأعيننا ؟ » ثم سأل الطفل : « واين كانت قطعة الجلد ملقاة ؟ » فأجاب الطفل بصوت ملؤه الشعور بالواجب ولكنه كما تبادر الى ذهني ، تعوزه الثقة : « على الوسادة » . وعقب الرجل على هذه الكلمات : « هنا ! حدث لي نفس الشيء ! » و اضاف : وبعد هذا كله تدعون في بلادكم انه لم يبق ثمة شيء في الحياة دون ان تعرفوه لو تكشفوه .

وهنا بدأ تيزيجر حديثاً طويلاً معهم لم استطع تتبعه ثم توقف فجأة واستدار نحوي قائلاً بنبرة اعتذار : « كنت احديثهم عن الصحن الطائرة . »

وظفح السرور على وجه الجميع ولاح عليهم اهتمام وشوق وظهروا وكأنهم جميعاً شاهدوا صحوناً طائرة . وكانت هذه في رأيهم صغيرة جداً بيضاء اللون تطير عبر السماء ببطء دون ان تحدث اي صوت . وقد تظهر احياناً في مجال البصر مدة عشرين دقيقة او اكثر ولكنها ليست دائرية الشكل وانما طويلة . كانت تلك اجاباتهم على تساؤلات تيزيجر و اضافوا بانها ليست نادرة وقد يتيسر رؤية احدها في الصباح . ومن الواضح ان الصحوون الطائرة ليست عندهم اغرب من كثير من الظواهر التي لم يجدوا تفسيراً لها لحد الآن .

وقد شاهدنا في الحقيقة احدها في الصباح . فقد اخرجتنا صرخات عالية الى باب المضيف قبل ان تتم فطورنا . وكانت الاصابع تؤثر والعيون تظلمها الايدي من وهج الشمس . لم تكن ثمة غيمة في السماء الشاحبة الزرقة ، وكان اثنان من نسور البحر فوق رؤوسنا يلاحق احدهما الاخر ، وفيما عدا ذلك لم يترامى لي اي شيء في الافق . ثم دقت فيما كانوا يشيرون اليه . وكان هناك اثر من دخان ضبابي ابيض لطائرة نفاثة على ارتفاع شاهق جداً ولكنها كانت كما ذكروا مكتومة الصوت تماماً . وارتفعت منهم صرخات الاستنكار والسخرية عندما اخبرتهم بانها ليست الا طائرة . وعدت الى المضيف وجلبت منظاري ومع اني جعلت درجته ١٦ الا اني لم اتمكن من مشاهدة الطائرة غير نقطة في السماء ، وبسبب سرعتها الفائقة لاحت وكأنها لا تتحرك . وناولت المنظار الى مضيغنا فنظر خلاله لحظة ، ثم اعاده علي بشيء من الغيظ ولم اتمكن من فهم ما قاله تماماً لكنني اظنه قال : لم تكن لي يمثل هذا المنظار حاجة لأرى ما فوق الوسادة ! »

وسواء اعترف سكان الاهوار ام لم يعترفوا فان غالبيتهم كانت تخاف (الجن) والظلام الذي يخفيه . وليس (الجنّي) هو كما يعتقد قراء القصص العربية المشهورة شيئاً ينبثق دائماً من فوهة قنينة ، او انه روح تكون دائماً قوية وخبيثة ، انه في الحقيقة اي مظهر من مظاهر القوى فوق الطبيعة اذ ان اي شيء لا يمكن تفسيره يعزى الى عمل الجن . ان العالم اللامرئي مليء بهذه الكائنات ، ومع ان محمداً قد غير الفكرة المأخوذة عن الجن الا ان الكثير منها ما زال يترامى لهم خيفاً مرعباً

وتعزى للجن عندهم من القوة ما يفوق الشيء الذي تنسبه اوريا للشباح
 Ghosts ، فهم يعتقدون بقدرتها على قتل من تشاء ، ويعترف سكان الاهوار جميعاً
 بأحد اولئك الجن ويحملون له خوفاً عظيماً ، وهو يظهر ، كما اعتقد ، في الليل فقط ،
 ولول ما يرى المسافر منه نوراً ضئيلاً مربعاً غير اعتيادي . وعندما تقترب الضحية
 يتوهج اكثر فاكث حتى يصبح براقاً يخطف الابصار وحينئذ ينطلق منه ذلك
 الجنى على هيئة عملاق زنجي عار تماماً يبلغ ارتفاعه خمسة عشر او عشرين قدماً (١)
 وقد يمش من يرى ذلك الجنى ليتحدث عنه ، ولكن ربما سببت له رؤيته خلا
 جسمياً او عقلياً ، وقد تلبس اطرافه او يخل تفكيره ومنطقه . وذكر احد
 ملاحينا بأنه رأى من بعيد ذلك الضوء عدة مرات خلال سفارته ، ولأنه يعلم
 حقيقته فقد كان يتحاشى الاقتراب منه . وقد تكون في الاهوار بعض الغازات
 التي تصدر هذا النور .

ويعتقد سكان الاهوار بان بعض جزرهم تسكنها الجن ، وان واحدة منها على
 الأقل تضم كنزاً يحرسه (جنى) مربع ، ولكن ظلام تلك الجزر في الحقيقة هو
 الذي يخافه المدان ، وانهم يميلون الى الاعتقاد بان الجن والارواح الشريرة تتراح
 للظلام والاماكن المظلمة (٢) .

وغادرتنا قرية - ابو مالح - في الصباح الباكر خلال مجاري مائة ارتفعت على
 جانبيها ضفاف طينية ترامت الارض خلفها خالية قفراء ، فلا زرع يغطي لونها

(١) ويدعى هذا (الجنى) عندهم (بالطنطل) وتجاك حوله في جنوب العراق بصورة عامة
 قصص خرافية كثيرة .
 المترجم

(٢) يقول ثيزيجر في مقاله « المدان او سكان الاهوار » : « يعتقد كثير من المدان ان في
 بعض جزرهم كنوزاً مطمورة ، كما يعتقد جميعهم اعتقاداً راسخاً بالجزيرة السحرية المعروفة (بالخفيظ)
 التي يدعون انها موجودة في قلب الاهوار الوسطى الى الشمال الشرقي من قرية (الجبايش) ، وان
 الجن يحرسها ويتسكن من اخفائها ، وان فيها كنوزاً مطمورة ، وفيها النخيل والبساتين المشرفة ،
 ويدعون ايضاً ان هناك نوراً يتألق فيها ليلاً ، وان الكثير منهم شاهد هذا النور ... » ولعل
 ماكسويل يعني الان هذه الجزيرة .
 - المترجم -

الرمادي ، ولا ماء يروي تربتها العطشى ، إلا ان النخيل لاح من امامنا على مسافة تقارب الميل . ثم انعطفنا على مجرى مائي اوسع كان جماله يسلب الالباب . لقد لاحظت في الاهوار وما يحيطها من اراض زراعية مراراً وتكراراً كم من الروعة يلوح اختلاط الوان الطبيعة باللون الاخضر للنباتات الغضة الطرية ، حتى ان سجادة بسيطة برتقالية اللون ملقاة لتحف على جانب لوح من اكواخهم تلوح وسط ذلك العالم الساحر اروع من رداء امبراطوري بكل جلاله وفخامته ، وقد تحمل شجرة منبتقة وحدها وسط القفر معاني الف ربيع عائد . ان كل منظر من هذا الشكل هناك يحمل الانسان على التفكير بالغموض الذي يلغى الغابات الاسطورية . ان الربيع العائد لا يغير شكل الارض في اية بقعة من بقاع العالم مثلما يغيره في ارض دجلة والفرات المستوية .

ظهر المر المائي الذي انعطفنا اليه الآن وكأنه جنة عدن نفسها ، فقد ارتفعت على ضفتيه غابات النخيل وانتشرت بينها حشود الزهور تواجه سماء حلوة الزرقة انعكس لونها الفيروزي على صفحة الماء التي تشابكت على سطحها الاوراق الذهبية لنبات العوسج الريشي ، في حين تألفت فوقها الزهور النضيرة في شعاع الشمس المنحدرة نحو الغروب والتي تداعب خلال انحدارها صفحة ماء رقراقة طرزت حواشيا بورود بعضها قرمزي اللون وبعضها الآخر ابيض . وظهرت الطبيعة في اجمل حلة بتلك الالوان الزاهية ، وزاد في الروعة الغامرة خفقان اجنحة الطيور العابرة على صفحة الماء الذي وشح المنظر بوشاح من سحر وجمال . وراحت تتطاير فوق الماء طيور السمك بالوانها الزرقاء والحمراء والكستنائية ، وترفرف من نخلة الى اخرى امراب طيور اخرى تضيء على كل هذا السحر سناء لا تكاد تصدقه العين . وفي الرقعة الخالية من السماء المنعكسة على سطح الماء كان هناك طير يدعى (بالفرنوق أو النحام *Flamingo*) يطير وحده نحو الجنوب وقد اظهرت الشمس واضحاً ما يضمه تحت جناحيه من لون دمه الراق .

كان المنظر مؤثراً حتى بالنسبة للاحينا ، فقد مال علي سببتي وضرب على كتفي قائلاً : زين هنا كافن ؟

– نعم .. كلش زين .

لم اجبه بأكثر من هذا حيث كان الافضل ان تتحدد مفردات جوابي اذ لم يكن على ان اعبر عن كل افكاري المشوشة لكنني قلت لثيزيجر بتراخ : « كم اتنى لو ابني لي بيتاً ولو من قصب على هذه الضفة واعيش هنا . » فرد علي : « ان الحكومة العراقية لن تسمح لك بذلك » .

اجل ... ليس باستطاعة احد ان يبني بيتاً ويعيش في جنات عدن هذه ، الا انه يستطيع فقط ان ينظر وربما يتذكر ومن المؤكد ان الذاكرة ستفقد مع الايام اشياء واشياء كثيرة من تلك الخيالات والصور . وكان ثمة اشخاص آخرون يسكنون جنة عدن هذه فقد تبعثرت بيوت القصب بين النخيل ولكن بعضها كان مهجوراً ، ومن المحتمل ان اصحابها وجدوا جنة عدن في اقرب حقل للنفط ، أو ربما وجدوها في شوارع العمارة هناك الى الشمال خارج مناطق الاهوار الدائمة حيث يعيش الشخص منهم تحت تأثيرات الحضارة الغربية الوافدة .

ورافقتنا بساتين النخيل ما يقارب الميل ، ثم وصلنا مرة اخرى الى احدى المناطق المكشوفة ، ولكننا كنا لا تزال نرى اشجار السنط الذهبية *acacia* مزهرة بالقرب من ضفتي المجرى المائي تماماً بحيث تعين على عمارة وكذبة ، اللذين كانا يجيران الطراة ، ان يتوقفا من حين الى آخر ليعبرا الحبل من بينها . وعلى فسحة خالية من الشاطئ ، حيث لا اعشاب ولا شجيرات ، شاهدنا قطعاً من البقر تقوده فتاتان صغيرتان بلباسها القطنية الزاهية . وكان ضرع كل بقرة مصبوغاً بالحناء ، الا واحدة اعطي لها اكبر عناية وانتباه ، وكان ضرعها قد صبغ باللون الازرق ، وما خرجت عن القطيع حتى لحق بها ثور ضخم كان يسير على جانب من القطيع .

وبعد ساعتين انعطفنا نحو – الكحلاء – وهو نهر واسع هادىء انتشر النخيل وبيوت القصب على جانبيه وقضينا ليلتنا تلك في قلعة الشيخ صدام . ولا ازال اذكر نزل هذا الشيخ وشيخين او ثلاثة آخرين ، لأني تمكنت فيها من السير وتمديد رجلي ، وحتى من التجوال لمسافة قصيرة دون ان تضايقني الكلاب او الناس .

وكان هناك مرج عظيم بين القلعة والنهر حيث يتمكن المرء فيه من السير تصطحبه طيور ابو منجل ، وحتى ممشى النهر نفسه كان مهجوراً رغم جماله وروعته .

وفي المساء عبرنا النهر الذي يبلغ عرضه مائتي ياردة الى بيت احد الصابئة على الضفة الثانية . ويقوم الصابئة في جنوب العراق بمعظم الاعمال الدقيقة التي تحتاج الى مهارة وفن ، وقد كنا في ذلك الوقت بحاجة الى اصلاح شيئين ، اولاً فالة الصيد التي كسرهما فالج بعد ان كسرت انفي ، وثانياً وضع عروة جديدة لسكينتي التي كنت اعتز بها كثيراً .

ولا تزال هناك الكثير من الحقائق عن الصابئة لم تكتشف بعد مع ان جموعهم تسكن مناطق قريبة من معالم الحضارة والمدنية . وقد لا يزيد عدد الصابئة في العراق عن العشرة آلاف ، اما اسمهم فاشتق ليس من الجنس وانما من الدين الذي لا هو بالاسلام ولا هو بالمسيحية مع ان محمداً قد صنّفهم مع اليهود بوصفهم من (اهل الكتاب) . وهم ينظرون الى المسيح على انه محرّف للحقيقة وليس له في دينهم مكان ، في حين تراهم يعتبرون القديس يوحنا المعمدان كعلم للحكمة العظمى^(١) ويعتبرون الماء الجاري ثوب الحياة ، وترتبط به تقاليدهم وطقوسهم الدينية ، ولهذا فهم لا يستطيعون العيش في الاهوار حيث الماء الراكد بينما تراهم يعيشون حول الانهار الجارية المحيطة بتلك الاهوار وفي الاماكن المنعزلة لأنهم ينشدون الكتمان في طقوسهم^(٢) (وقد اخبرت ثيزيجر مرة عن حفلة كوكتيل في لندن مزق الصمت الثقيل المطبق عليها صوت ارتفع بكلمات كان آخرها ... « ويتزاوجون

(١) ويدعونه بالنبي (يحيى) وقد ورد ذكره في القرآن الكريم ، وهو الذي قام بتعميد السيد المسيح وبشر بظهوره وتوقع قيام اليهود بقتله
(الممدان او سكان الاهوار - ترجمة باقر الدجيلي)

(٢) الصبه .. لهم كتب مقدسة مكتوبة باليد بلغة تقرب من اللغات السريانية والارامية تسمى اللغة المندائية **Mandean** واهم طقوسهم الوضوء والاغتسال بالماء . فهم يمتثلون ان الماء هو المنصر الذي يعطي الحياة للجسم والروح ولذا فهم يمتثلون به بقدر ما يستطيعون وفي اوقات مختلفة ، فكل شيء يؤكل يجب ان يتسل بالماء الجاري (ولصابئة ايام اعياد وصوم خاصة)
الجبايش - الدكتور شاكر مصطفى سليم - المترجم

في الساعة الثانية صباحاً وفي الماء الجاري « فقال ثيزيجر في حينه : « لا بد انه كان يعني الصابئة » . ولكن المتكلم في الحقيقة كان يصف نوعاً معيناً من الطيور المائية البرية !)

للصابئة أو - الصبّ - كما يسميهم المعدان كتاب مقدس خاص بهم ولا يعرفه الا قساوستهم، وليس نادراً ان يجد الانسان قطعاً من الخزف وقد نقشت عليها بعض كتاباتهم المقدسة . ولم ينتشر دينهم الى ابعد من حدود العراق لكنهم معروفون خارجه بصورة خاصة بمهارتهم في صياغة الفضة والنقش بالميناء ، تلك العملية التي يحرصون ابدأ على كتابتها والتي تعني طبع اية صورة على سطح فضي ناعم .

كان الصابئان اللذان قصدنا بيتها ذلك المساء اباً وابنه وكانا ، لولا فارق السن يتشابهان تماماً ، فكل منها قصير نولحية بطريزيكية الحجم بيضاء عند الاب وسوداء لدى الابن ، وكانا هادئين يبدو عليها النبل والوداعة ، ووضع كل منهما على عينيه نظارة سلكية الاطار بعدستين تامتي الاستداره ، وكانا يلبسان بدلتين بيضاوتين فوقهما سترتان اوربيتان ، ويتلفع كل منهما باليشاغ الاحمر .

كان المنزل الذي دخلناه هو محل العمل ايضاً وقد رصفت على بوارى القصب ، فيما بين الاقواس الداخلية للكوخ ، حفنة من الآلات الدقيقة وقطع من المعدن المستهلك . وبدأ الشيخ عمله في سكينتي ، وبينما كنت اراقبه مرت امامي نابضة بالحياة صورة رجل اخر .

فعندما كنت طفلاً كان لعائلتي حارس هو ايتة المفضلة هي الاعمال الميكانيكية الدقيقة ، وله في هذا المجال عبقرية كان ممكناً ان تجعل منه مخترعاً عظيماً لو انه في بيئة غير التي ولد فيها . وليس من شيء مكسور إلا ويستطيع - هانام - اصلاحه . . من ساعة اليد الى محور عجلة السيارة ، وليس ثمة مشكلة هندسية لاخترع معقد إلا وتجده عند هانام حلها . وعندما كنت في السادسة عشرة رأيتة يصنع لمسدس عيار ٢٢ كاتمة الصوت الوحيدة التي اراها في حياتي ، واتذكر الآن كيف اخبرني بأنه اكتشف كاتمة تستطيع السيطرة بصورة تامة على بندقية كبيرة ، ولكنه لم يعلن عن اكتشافه هذا خشية الاغتيالات وازهاق الارواح بشكل كبير جداً . كان يقوم

بكل اعماله المعقدة في سقيفة بناها من قطع صفيح الزيت المطروقة . كان جيد التجهيز نسبياً بأدوات صنعته لكن المعجزة تكمن في كيفية استعماله تلك الآلات بيديه المعجولين . انني لا ازال اتذكر ايهاميه الذين كان لهما مظهر وحركة اصابع قدم عملاق يسير ابدأ حافياً ، وما اكثر ما رأيت الدخان يتصاعد منها عندما كان يمسك بكأوية الاحمام ، وشممت رائحة احتراق لحم يده في الوقت الذي يستمر هو في عمله وكأنه لا يحس شيئاً . كان يحاول طويلاً ان يمسك مسهراً لولياً صغيراً جداً بين ايهامه وسبابته غير الطبيعية الشكل ، ولما وجد نفسه عاجزاً عن رؤيته فقد وضع على عينيه نظارة حديدية الاطار تشبه الى حد بعيد نظارة الصابئي التي يدل سمك عدساتها على انه لا يستعملها لتعديل النظر بقدر ما يقصد بها تكبير المرئيات . كان التشابه تاماً بشكل عجيب .. النظارات .. اليدين المعجولان الضخمان .. الوقار الفطري في المظهر والتصرف . لو عاش هانام في وسط هذه الطائفة لما كان إلا روحاً قريبة منهم وان كان لا يصبر على اداء طقوسهم الدينية . وفي احد الايام صادفه قسيس الكنيسة فعتفه بسبب غيابه الدائم عن حضور طقوس الكنيسة ولكنه اجاب ضاحك الملامح : « كلا ايها القس ، نحن منقرضون ولا بد سيأتي اليوم الذي يطوى فيه كل منا مع صاحبه ... وان الجيل القادم لن يكون بحاجة الى عملك او الى عملي » .

ومثل هانام كان الصابئان لا يرتضيان بشيء اقل من الكمال في عملها ، ومثل هانام ايضاً فإنها لم يتقبلاً اجوراً من تيزيجر ، ولعل هذا كان اكراماً له .

☆☆☆

واخذنا نسير في الصباح الباكر في - الكحلاء - النهر العريض البطيء الجريان ، الحالم الذي كان يعكس لون السماء الازرق على صفحته الاطلسية الموشاة ببيوت القصب والتخيل عند الضفتين . وكان ثمة مضيف كل مائة ياردة فقد كان الشيوخ هنا (كل اثنين بعانه) . وتوقفنا بعد ساعة في مضيف الشيخ يونس بن فاهود وهو شاب شرير المظهر لا أرغب في جعله يوماً عدواً ولا صديقاً لي . كان المضيف زاهياً وقد فرش فيه السجاد ووضعت عليه الوسائد من قبل عبيد كثيرين .

اما السجاد الذي وضع قرب البساب في اماكن الشرف فقد كان ذا الوان تبهر
الانظار الا ان رسومه نافهة التصميم ، ولكن في نهاية المضيف اختفت تحت الظلال
بجاء سجادتان قديمتان لكنهما في الحقيقة فاخرتان اذ تبلغ واحدهما الخمسة والعشرين
قدماً طولاً وعشرة اقدام عرضاً . كانت احدهما ممزقة في عدة اماكن بينما الاخرى
جيدة ولطيفة الشكل ، ومع انني لا اعرف غير القليل عن السجاد الا اني قدرت
منهما بما لا يقل عن بضع مئات من الدنانير . وانتبه تيزيجر الى طول تحديقي فيها
فقال : « فاخرتان ؟ ليس كذلك ؟ لقد استرعيا انتباهي تماماً . انهم لا يعطونها
حق قدرهما ابداً اذ انهم يحبون التوافق الحديثة وحالما تتسنى لهم الاموال
يقومون باعداد الأثاث الجديد لمنازلهم . لا تبد اعجابك بها والا اهدوها لك ،
وسيكون ذلك شيئاً مريبكاً لنا فأنا في الاموار لا أقبل الهدايا . »

ولسبب لا اتذكره تحول الحديث الى الطيور ، وهنا كان لي مثال آخر عن
الخرافات التي تحشو حتى ادمغة الاثرياء منهم الذين يتيسر لهم زيارة المدن التي
تأثرت بالحضارة الغربية فقد سألتنا يونس جدياً عن وجود ، او بالاحرى المكاف
الجغرافي للطير الذي يحمل الرخ الذي يحمل بدوره فيلا (١) وفكرت كم ستكون
الحياة بسيطة ومثيرة لو استطاع الانسان ان يبحث عن هذه المعجزات في العالم
الخارجي المحسوس دون الالتجاء الى المعجزات المرعبة التي يقدمها العلم .

وبعد قليل تحول الحديث الى موضوع لم أفهمه لذا اخذت انظر في الخارج خلال
مدخل المضيف ... فعلى بعد ثلاثين ياردة كانت ترعى غزالة اليقة ، وعلى الضفة
الاخري من النهر كانت ثمة فتاة صغيرة رائعة الجمال تلتصق اقراص العجين في داخل
مخبز طيني مخروطي الشكل (التنور) . كانت كاملة الملامح لا يزينها الوشم ، اما
اتساق تركيبها الجسمي وتناسق اعضائها فهو في غاية الروعة دونما حاجة الى تينك
العينين الرائعتين او البشرة الذهبية اللون ، او الامواج المتألقه من ارتقاء شعرها

(١) كان جديراً بالمؤلف ان يلاحظ بان هذا السؤال اثارته قراءة ذلك الرجل او سماعه قصص
السندباد البحري في كتب المطالعة للمدارس الابتدائية في العراق .

الإسود المنساب كشلال على كتفها ، ودونما حاجة ايضاً الى تلك الشفاه الغضة الناعمة او الى تعابير وجهها الذي لا يزال يحمل حلاوة ونقاء الطفولة ، واني اعتقد بأنها كانت اجمل طفلة اراها في حياتي . ثم استقامت من على (التنور) فأبرز ثوبها القطني الازرق البراق تكوير نهدبها الصغيرين الناتئين . وادركت انذاك بأنها ليست في نظر اولئك الناس طفلة وانماهي في سن الزواج ، وربما كان عمرها لا يقل عن اثني عشر عاماً لكنها تبدو اصغر من هذه السن .

ولاحظ سييتي الذي كان يجلس الى جانبي طول استغراقي وانصرافي بكليتي الى مطالعة تلك الغادة الباهرة الجمال فهمس في اذني وهو يلكزني : « حلوه .. كافن .. تريد ؟ » فأجبت به برود : « نثم .. هلو ا » وازعجتني صورة هذه المخلوقة الرائعة وانا اتصورها بين ساعدي معيدي فظ .

وعلى بعد قليل مني خارج المضيف تماماً اضطجعت ببلادة واطمئنان نعمة كبيرة . حمراء اللون تمضغ بتلذذ من حزمة حشيش اخضر . وعلق احدهم ، وقد يكون طفلاً ، شريطاً ازرق على صوف رقبتها . كانت تجتر وهي فاغرة الفم وقد شهقت خلال ذلك اكثر من مرة . ومن الواضح انها كانت متلذذة بما تقوم به من عمل ، وبينما كنت ارقبها جاء رجل يحمل مكيناً كبيرة معقوفة فأمسك بالشاة من صوفها وسحبها وهي تجاهد في الافلات منه ، ولكنها كانت لا تزال مستمرة في اجترارها . واخبرني تيزيجر ان رب البيت كريم وربما سيذبحها من اجلنا ولكن اعصابي لم تتحمل التفكير بأنا سنأكل تلك الشاة الشمطاء على بلاهتها وسلامة نيتها ، ولاح لي انني سأمرض حتماً ان كان لا بد لي ان اتناول شيئاً من لحمها ، وتصورتها وهي ما تزال تجتر في حين تعمل السكين في حنجرتها لتختنق اخيراً بدمها وتموت رويداً رويداً بينما يتخصل الشريط الازرق بدمها القاني المهدور . لم يكن تيزيجر يحمل كبير عطف على الحيوانات لذا احتفظت بارائي لنفسي . وظهر الرجل حامل السكين مرة اخرى بعد عشر دقائق وهو يضع تحت ذراعه حزمة كبيرة من الحشيش المقطوع حديثاً وفي اثره تعدو تلك الشاة الغريبة سليمة بليدة نعمة كعادتها وانحنته مباشرة وبدأت تملأ خزانها بالحشيش .

وقد تناولنا في وجبة العشاء هذه شيئاً آخر فقد طوردت ضحيتنا هذه بلا شفقة ولا رحمة حتى استقرت هامة الحراك امامنا إلا انها كانت شبيهة اللحم . وكنا قد انحدرنا في النهر ما يقارب الميل قاصدين - مطشّر - وهي منطقة طينية على الضفاف خالية من الزرع . وكانت الحركة على سطح النهر شديدة حيث انتشرت السفن الشراعية الكبيرة التي يبلغ طول صواربها اربعين قدماً والتي عجزت اشعتها المرفوعة عن مقاومة تيار الماء لذا اخذ الرجال يسحبونها بجبال طويلة ، وحالتهم وهم عراة من الوسط الى الاسفل شيء يثير السخرية ولا يكادون بكل جهودهم تلك ان يقطعوا ميلين في الساعة . وهطل المطر ومرعان ما صارت الممرات الترابية بين البيوت مزالتق طينية لينة . كنا لا نزال خارج الاهوار ولا يوجد في المنطقة قصب يمكن ان يلقى على الارض ليعمل عمل الرمل الذي يلقى في شوارع لندن خلال الشتاء الممطر . وفي لحظات قلائل تكونت غدران من الماء تتساقط عليها قطرات من المطر الكبيرة بطقطقة وفرقة .

وكما ابتداء المطر فجأة توقف مرة واحدة لكنه ترك قطعة بديعة من ارض مبللة صارت ميداناً لمطاردة عشائنا . فبعد ان توقف المطر خرجت الدواجن من بيوت اصحابها واخذت تحدى باستياء في سطح الارض المبلل . كنا نجلس في مضيف رفعت البواري الجانبية فيه لأربعة اقدام بحيث صار مشاهياً لسرادق من السهولة النظر الى جوانبه كلها . واستدعى مضيفنا صيياً و اشار الى ديك ضخم كان ينقل خطاه في الوحل بعظمة وجلال . كان لا بد ان يتميز هذا الطير ويحلب الانتباه اكثر من اي طير آخر في تلك البقعة ، وكانت له الوان طيور الغابات الهندية الزاهية ، وهو مألوف الرؤية لدى الناس اليوم بسبب رسوم القرن التاسع عشر التي تصور عراك مثل هذه الديكة فيما بينها ، وهو ضخم الحجم وطول اصبعه الخلفي اربعة انشات .

واشار الصبي الى اخر ان يساعده ، واقترب كلاهما من الطير الجميل بحذر في الوحل وادرك الديك حالاً غرضها ففقد جلاله وصارت خطواته قصيرة غير ثابتة واخذ يرفع راسه زاعقاً بخوف ، واضطر اخيراً الى اتخاذ موقف هجوم مرتبك

وانفجر الخوف من خنجرته زعيماً مستثيراً عالياً وانحنى احد الصبية ليمسك به لكنه افلت من يده وسقط على وجهه في الطين . وفي الوقت الذي قام به هذا الصبي كان الآخر قد ركض في اثر الحيوان الذي هرب في احدى زوايا البيت . واختفت عملية القاء القبض هذه عن اعيننا لدقيقة واحدة مع ان الجلبة المتزايدة الناتجة عن صرخات الديك تدل على انه ما زال يواجه تحديهم ، وعاد الى ابصارنا ثانية هارباً امام اكثر من عشرة اطفال من مختلف الاعمار مسلحين بالعصي والقصب وقد تمرغوا من رؤوسهم لأقدامهم بالوحل . واندفعت فتاة صغيرة من بيتها في محاولة لقيادة المطاردين لكنها تزلقت وسقطت على وجهها فانزاح ثوبها الوحيد فوق ظهرها حتى كنفها وتعرت عجيزتها الدائرية ، ذهبية تحت الفضاء الرقيب . كان الديك لا يزال في المقدمة تتبعه عصبة المطاردين في كل مكان وعددهم يرتفع ويتضخم عند كل لحظة . واخيراً اهاج الصياح والحركة اثنين او ثلاثة كلاب فراحت تعوي على المطاردين ، اما الديك فقد هدته التعب ، واخذ يبحث لاهت الانفاس عن شيء يلتجئ اليه . ولسوء حظه وجد ضالته وسط اعدائه ، وقد ترك مطارديه على مسافة بعيدة عنه واندفع بقوة الى ملجئه هذا في المضيف . ووقف بيننا في ضوء المضيف المعتم وهو يلهث ولكن تماماً دون حراك . وريش ذيله الاخضر الباهر يرتجف بهدوء . وكان بودي ان اوفر له الملجأ الذي يريد بين ضوء المضيف الخافت واقواسه الضخمة ، لان ايسر مضيف في الحقيقة يشبه الكاتدرائية الا ان مضيفنا انحنى فوق الحيوان المتعب بضحكة عالية ورفع بكفه الكبير الى اعلى وترك الديك في احدى يديه برجليه المتأرجحتين في الهواء ، وفي اليد الاخرى يلتزم خنجر .

☆☆☆

وفي - مطشر - اقتربنا ثانية من حافة الاهوار الدائمة ، ولم تكن تفصلنا عن - دبن - الا اميال قلائل ؛ فقد اخبرنا شخص عاد مؤخراً من هذه القرية بأن العقاب كان الى ما قبل ثلاثة ايام يتمتع بصحة جيدة . ووصلنا دبن مساء اليوم التالي واصبحنا وسط الاهوار من جديد . ووجدنا الاهوار اشد اخضراراً واكثر

امتلاء وادق تحديداً مما كانت عليه قبل ثلاثة اسابيع . ورحبت مرة اخرى برؤية مناظر الاهوار وادركت انني خلال مكوثي بين المزارعين كنت أحن الى البردي ومناهب القصب العملاق هذه . كم كنت اتمنى ان تكون الاهوار موطني الى الابد لولا ذلك الوحل ولولا قنوات الارواء التي تحيطها .

وذهبت الى المضيف فوجدناه قد تغير تماماً عما عهدناه في المرة السابقة . ولم تعد - دن - تلوح جزيرة طينية وسط بحيرة تتناثر فيها الحشائش اليابسة ، فقد نمت اعواد القصب الاخضر واوراقه حول الاكواخ والى مسافة بعيدة ، وحتى الزوارق والمشاحيف لم تعقه عن نموه ، وانما كانت هي نفسها تطبق عليها وعلى اصحابها لتخفيهم عن الانظار .

لم يشر احد الى العقاب ، واستملت عنه بعد فترة قصيرة فاختمت الحاضرون . النظر الى بعضهم البعض ثم ذكروا انه لا يتمتع بصحة جيدة خلال اليومين الاخيرين ، واحضروه لي فرأيت ان الثلاثة اسابيع التي فارقت فيها قد أثرت عليه كثيراً ، لم يكن يوجد على صدره شيء من اللحم لذا فقد برزت عظمتة كسكين حادة خلال ريشه . كانت الاقدار تغطي ريشه تماماً ، وقد طاب لأحدهم ان ينتف ذيله الجميل ، واحدى عينيه رأيتها ملتببة بينها تكاد الاخرى تكون مغلقة لكن حوصلته امتلأت بمادة ناعمة سائلة . واخذ الظلام يزحف نحو المضيف فحملت الطير من الدائرة المحيطة بالنار ووضعت في الظلام المطبق عند اقدام الاقواس الضخمة في الداخل . كنت غاضباً حانقاً لاهانتهم هذا الشيء الجميل الشرس وليس باستطاعتي السكوت عن اية اهانة سواء وجهت لأنسان او حيوان ، وما اكثر ما شعرت بالأسف على نفسي لأنني اعتدت دائماً المقارنة بين نفسي وبين الحيوانات تماماً كما اقارنها بكل البشر ، وهذا ما يسبب لي مضايقات مزعجة كثيرة في حياتي .

وعدت الى حلقة الرجال وسألت عن الطعام الذي اعطوه للطير فاخبروني بأنهم قدموا له ما اشرت به عليهم : عدداً من الطيور ، وبعض الخفافيش الموجودة في سقف المضيف وسمكا صغيراً في بعض الاحيان ، وبعد ذلك سألتهم عما يبلا حوصلته في تلك اللحظة . قام نيزجير بالترجمة بيننا ، وتأثر هو الآخر لتأثري لأنه

كان يعطف بعض الشيء على الجوارح . وذكروا انهم لا يعرفون ما بحوصلته لأن ربة المضيف هي التي اطعمته في ذلك اليوم . وحملت مصباحي اليدوي وذهبت الى العقاب فوجدت قد تقياً كل ما يوجد في حوصلته وراح يعالج سكرات الموت ، ولاح لي ان ما كان على الارض يجانبه نوع من اللحم ، ثم انكشفت الحقيقة مُرة.. لقد كان عجينة من التمر . ودخلت المرأة المضيف فذهبت الى جانب النار واخبرت. ثيزيجر عن التمر . فاختلى هو بالمرأة في زاوية من المضيف واعترفت من دون حياء: او خجل بأنها اجبرت الطير الكبير الجارح على تناول قطعة كبيرة من خبز لين، كالعجين ، وبعد ان رأت صحته تسوء نتيجة لهذا الغذاء اعطته تماًراً معجوناً . ومن المحتمل ان الطير لم يأكل ولا شرحة لحم منذ فارقتنا - دبن - . ولخص ثيزيجر قابلية تلك المرأة ومدى قواها العقلية بكلمات وجيزة وجهها اليها قائلاً : « لو انك اشرفت على اسد اسير لما اطعمته شيئاً غير الحشيش » .

ومات الطير الكبير بعد بضع ساعات قدراً ملوئاً بالاوساخ ... مات عقاب الليل المسكين مهيبض الجناح منتوف الذيل محشو الحوصلة بالعجين والتمر ممرغاً بقيته ، مات في زاوية مظلمة من زوايا مسكن قاتليه ، مات واحدى عينيه البرتقاليين الواسعتين لا تزال مفتوحة تحديق عبر مدخل المضيف نحو النجوم اللامعة في الفضاء الرحيب .

وانخبت على الطير ، وادركت ان بعض توتر اعصابي يرجع الى اني قد تخلت عن مسؤولية رعايته . واخذت اشعر بالكره والاحقار لتلك المرأة الغبية رغم مركزها وغناها ، فقد عجز بخلها حتى في السيطرة على بلادتها . وظل رأسي تزحمة هذه الافكار فلم احاول فهم الحديث الذي كان يدور بالقرب مني حتى جلبت انتباهي كلمة (جلب ماي 1) فسألت ثيزيجر ما الذي يقولونه عن كلاب ماء **Otters** واجابني : « اظن بأننا سنتمكن من الحصول لك على جروة كلب ماء ، التي طلبتها ، اذ ان هذا الرجل قد وصل الآن من قرية تبعد مسافة نصف ميل عنا وهو يقول بأنه حصل منذ عشرة ايام على جروة كلب ماء صغيرة ولكنها لا تزال ترضع الحليب من القنينة ، فهل تريدها ؟

— انها بالضبط ما كنت اسعى للحصول عليه .

اجبته على سؤاله واستطردت قائلاً : « وانا اظن الافضل لنا الا نقول شيئاً معيناً حول الأمر فقد يعيدون حكاية العقاب ثانية ، وقد نكتشف انهم اعطوه بعض الكحول المثيلي .

اخبرنا صاحب جرورة كلب الماء انه سيجلبها خلال نصف ساعة ثم خرج . ورأيت خلال فتحة المضيف مشحوفه ينساب يهدوء فوق الماء الذي انعكست عليه نجوم لامعة براقه . ومرعان ما عاد يحمل الجرورة فوضعها في حجري بينما كنت اجلس متربعا . رفعت الجرورة رأسها اليّ وهي ترتجف من البرد . كانت بحجم القطيطة أو السنجاب ولم تزل بعد صغيرة جداً لا تحتمل الوقوف على اقدامها . وكان ذيلها المخروطي في طول قلم الرصاص . وعندما تمرغت على ظهرها ظهرت بطنها المغطاء بالفرو واقدامها المبطنة بغشاء لحمي ، وقال تيزيجر يخاطبني : « حسناً .. هل تريدها ؟ » فحركت رأسي موافقاً فقال : « كم ستدفع بها ؟ » فأجبته : بالتأكيد اكثر مما سيطلبونه لها » . فقال : « لكنني لن ادفع عنها ثمناً عالياً لأن ذلك شيء مناف للكرامة ، سأخذها إذا عرضوا سعراً معقولاً وإلا فسنجد واحدة غيرها في مكان آخر » . فقلت له : « دعنا نأخذ هذه فإننا على وشك الرحيل من هنا وقد لا نصادف واحدة اخرى ، وفوق ذلك كله ان هذه آخر زيارتك للاهوار ، ولذا فكرامتك بينهم تصبح بعد الآن شيئاً لا قيمة له قلدوك اياها ام لا » . لم أشأ ان ارى تلك المخلوقة السارة تفارقتني من اجل بضعة دراهم نحافظ بها على الكرامة والاعتبار ولاحت لي المفاوضات حول تحديد سعرها طويلاً ، لكننا حصلنا اخيراً على الجرورة مقابل خمسة دنانير على ان يتضمن هذا المبلغ اعطاءنا حلة المطاط وزجاجة الحليب القنطرة والثمينة في آن واحد ، لأن الزجاج يندر وجوده في الاهوار .

ان معظم صغار الحيوانات تقسم بالجمال ، ولكن كان لهذه الجرورة من السحر في كل نقطة من جسمها ما لم اجده في صغار اي حيوان آخر . ولا يمكنني الكتابة عنها الآن دون ان احس في داخلي بغصة من اجلها .

واقطعت قليلاً من شريط منظارى لكي اربطها به لكن المهمة لاحت عسيرة لأن رأسها لم يكن يزيد في حجمه عن عنقها ، وبعد ذلك اوصلت الشريط بخيط يبلغ طوله ستة اقدام لضمان اتصالي بها وسيطرتي عليها حين يحلو لها ان تركض بعيداً عني ، ثم أدخلتها تحت قبضي ومرعان ما استعدبت ذلك الدفء والظلام الذي فارقتة منذ انتزعت من امها ، وبقيت احملها على هذه الصورة طيلة ايام حياتها القصيرة . وكان رأسها يبرز من فتحة الصدري عندما تكون مستيقظة وكأنها وليد حيوان القنغر يبرز من كيس امه . وكانت تنام ككلاب الماء على ظهرها ، اما اذا استيقظت فإنها تزقزق في البداية كالطيور ، اما في احلامها فإنها تطلق صرخات ذات ثلاث نغمات ، وقد سميتها (كحلاء) باسم النهر الذي تركناه في اليوم السابق ، ولأن نغمة صوتها تشابه مقاطع هذه الكلمة .

ونمت في تلك الليلة نوماً متقطعاً ، ولاحت كلاب قرية - دبن - وكأنها تعوي كلها في اذني ، ولم اسمح لنفسي بنوم عميق خشية ان اقضي على كحلاء التي هدأت الآن تحت ابطي . وكانت كغيرها من كلاب الماء قد تدربت على شئون نفسها منذ البداية وانا بالاضافة الى ذلك قمت بتسهيل الامر لها بأن وضعت فراشي ملاصقا لجدار المضيف بحيث تتمكن من القفز لتختلي في زاوية بعيدة بين اعمدة القصب وتقضي حاجتها هناك . وقد فعلت هذا الشيء عدة مرات خلال الليل وعندما تنتهي من العملية تقفز على كتفي وتطلب زجاجة الحليب . كانت ترضع مستلقية على ظهرها وممسكة بالزجاجة بين مخالبها كما يفعل صغار الدببة ، وحين تنتهي من الرضاع تأخذها اغفاءة لذيذة بينما حمة المطاط لا تزال في فمها ، وعلى وجهها الطفل تعابير من رضى واقتناع .

لقد رضيت بي ابا واما لها من اول لحظة نامت فيها بين جسدي والقميص ، ولم الحظ انها ابدت خوفها مرة من اي شيء او اي انسان لكنني كنت ذلك الاب الذي خذلها ، فأنا لا املك لا المعرفة ولا تلك الغريزة التي تملكها امها ، وعندما ماتت كان ذلك بسبب جهلي وقلة تجربتي . ومع ان مأساتها طفيفة الا انها كاملة . وكانت قد تعلمت اسمها مع مرور الايام . وابتدأت تلعب كالقطيطات الصغيرة ،

وتسير في اثري عندما اجد رقعة جافة من الارض اسير عليها لانها تكره ان يتل قدمها وعندما تتعب من السير تستلقي على قدمي حتى انخني عليها وارفعها لتدخل دفئها الحبيب في تلك الظلمة الآمنة وتستسلم لنوم عميق في الداخل بينما يظل قسم من ذيلها المدب بارزاً من فتحة الصدري . وقد دعاها المعدان (ابنتي) واعتاوا ان يسألوني عن آخر مرة (رضعتها) فيها !

وكثيراً ما كنت افتقد كحلاء عندما اجلس لاكتب عنها عند عودتي لأرض الوطن ، ويأخذني الحنين فاطرح المسودات والقلم جانباً واخرج الى الباب واصفر فينطلق من البحر ، على مسافة خمسين ياردة (مجبل) الذي خلف كحلاء ويأتيني راكضاً فوق رمال البحر ويقفز من حولي ثم يدخل البيت ويذهب لينام على ظهره الى جانب الموقد . كان مجبل كلباً من كلاب البحر ذا اهمية كبيرة فإن جنسه كان غريباً وجديداً على العلم ، ولم اكن لاكتشفه هناك لو لم تمت كحلاء التي كم تمنيت لها الاتموت .

* * *

وغادرنا قرية - دن - في صباح اليوم التالي خلال منطقة تعج بالطيور المهاجرة ، وقضينا ليلتنا في مضيف حاج محسن في - العكر - . وكانت قلعة ناصر ذي السمعة السيئة تبعد عنا بضع مئات من الياردات ، وكان لعدة سنوات خلعت يعمل على تقويتها حتى لاحت الآن منيعة تماماً بالنسبة لرجال لا يتسلحون بغير اسلحة خفيفة . وكانت تحيطها الاسلاك الشائكة وانعكست مع شعاع الشمس الغاربة خيالات عبيد مسلحين وقفوا في عدة اماكن فوق حائط القلعة لحمايتها . وقد انشأت الحكومة مركزاً احتياطياً للشرطة زودته بالبنادق الرشاشه للحراسة كما وضعت نقطة على النهر فوق زروق بخاري ابيض لمراقبة الحالة واحسست في داخلي استعداداً لمشاركة جابر في الهجوم على قلعة ناصر .

ووجدت كحلاء مقيدة عن الحركة والفعالية ، ولما كنت قد اعتدت على حملها تحت الصدري فإن الانتفاخ الذي تحدثه يجمع الناس من حولي حيثما مرت ، وبالإضافة الى ذلك لم اعد احمل كامرتي بعد الاث لأنها تصطدم بجسم كحلاء

تخلال السير .

وقنا في اليوم التالي برحلات قصيرة الى مناطق مجاورة ، واتذكر اننا تناولنا طعام الغداء في قرية ينتشر فيها وباء الملاريا ولم تبق لدينا كمية كافية من البلودرين *Paludrine* تمكننا من معالجة عشرات المرضى . وفي المساء وصلنا إلى قلعة طالب شقيق ناصر وجابر لأبيهما ، وهو الذي اطلق في صغره النار على السيد الذي ارسله جده سلمان لمفاوضته عندما نار ضده بسبب تفضيله ناصر دون سائر اخوته . ولم نبق هناك مدة طويلة لأن طالب كان في العجالة يحاكم بسبب اغتصابه ابنة احد التجار ، واخيراً تخلص من هذه التهمة مقابل دفعه غرامة بسيطة . ولما لم تكن مفاتيح القلعة لدى احد غير طالب فقد نزلنا في مضيف السيد كاظم القريب منا .

وفي ذلك المساء ناقشت قضية فطام كحلاء ، فلقد شعر كلانا بأنها اصبحت من الكبر بحيث تستطيع تناول الطعام الصلب ، وتراءى لي ان جسمها الضعيف سيستفيد اكثر لو تناولت اشياء اخرى غير حليب الجاموس . وعلى اية حال فقد اخطأت خلال ذلك تقدير قوة الغريزة الكامنة في اي حيوان ، وتراءى لي ان كحلاء تحتاج الى التعرف على تناول الدم واللحم خطوة بعد اخرى . ورأيت ان افضل طريقة هي ان اضع لها بضع قطرات من الدم في حليبها لتعودها على طعمه . وقد برهنت هذه العملية بشكل عجيب على سذاجة وعدم تقدير صحيح اذ بينما كنت امسك يچشتي عضفورين مذبحين ، وانا احاول وضع بضع قطرات من دمايها في زجاجة الحليب ، شمت كحلاء رائحة اللحم الاحمر فقفزت بوحشية على الجثتين . ولو لم اتدخل في الامر لمزقتها باسنانها المدببة وبرهن ذلك يجلاء على استعدادها لتناول الاطعمه الصلبة . واختطفت منها الجثتين فثار نائرها ، ولما اقتطعت لها شرائح من لحم الصدر التهمتها بشراهة وراحت عيناها تدوران في انتظار المزيد .

– اقطع عنها الحليب .

قال عماره بلهجة من يضع للامر حلاً نهائياً واستطرد قائلاً : « كفى .. كفى ، لقد كبرت الآن . » وظهرت فعلاً كبيرة الا انها في الحقيقة لم تكن كذلك .

وقضينا ليلتنا في مضيف شيخ شاب مخنث ، وكان واحداً من اثنين فقط من هذا النوع رأيتها في الاهوار .

وكانت تلك واحدة من الليالي التي اقضيها في الاهوار ولم اتمتع فيها ابداً . اما (الصريفة) التي نمنا فيها فمفتوحة عند الارض والرياح التي تهب بشدة لا يمكن لغير حيوانات المناطق الباردة تحملها ، فقد كانت قارصة واستمرت تهب طوال الليل . وقد لف ثيزيجر والآخرين انفسهم ببطانياتهم جيداً ، الا انه كان علي ان افسح لكحلاء لتشم الهواء ، ولا بد انها تتمتع الان بدفء ملجئها وراء ظهري . واخذت ارتجف من البرد وانا ارهف السمع الى عواء الثعالب من بعيد . واتذكر حزمة من ضوء القمر الواهن تسالت خلال القصب وسقطت على وجه عمارة الذي كان نائماً وشفتاه مرتفعتان عن اسنانه الى اللثة .

وحاولت خلال تلك الساعات الطويلة الباردة الطويلة بين منتصف الليل والفجر حيث يشرد العقل في بعض الاحيان ويعبر حدود المعقول والتفكير ليلس ومضات خطيرة من الحقيقة ، اقول حاولت ان اتذكر اسم المكان الذي كنا ننام فيه فلم استطع ، ووجدتني عاجزاً حتى عن رسم خارطة له في ذهني . واستدرت برأسي فوقعت عيناى ثانية على ملامح عمارة العابسة المتجهممة تحت ضوء القمر . لا بد ان ثمة سبباً دعائي للمجيء الى هنا ، ورحت اتساءل مع نفسي ، لان اولئك الذين يستيقظون في ليل الصحراء مثلاً أو في ليل غابة كثيفة ليتمتعوا بمنظر النجوم اللامعة في السماء لا بد لهم من هدف رسموه امامهم . اما الخطوط التي تأتي بهم فتكون مخططاً منظماً على الورق يوضح نمو وغاية مساعيهم ويلقي ضوءاً على نوعية الحياة التي عاشوها . وحاولت ان ارى هل املك لي مخططاً مثل هذا ، واخيراً وجدته على قصاصة ورق الى جانب التلفون من دون شكل معين له في حين يضج بياهاة واعتزاز ولكن بعودة خائبة خاسرة ، ويسير هنا وهناك خط يمتد على الورقة الى لاهدف ، وفي نهاية احد هذه الخطوط اضطجع الان واذني مرهفة تتسمع عواء الثعالب تحت القمر ورحت ونفسي اتساءل : « ما الذي جئت من اجله لتراه يا كافن ؟ .. قصبة في مهب الريح ؟! »

وقمنا في الصباح بزيارة قصيرة الى مضيف الشيخ جابر الذي التقينا به في -دبن- قبل ثلاثة اسابيع يتهياً للحرب ضد اخيه ناصر . كان المضيف على شاطئ مجرى مائي ضيق تمتد اليابسة على جانب منه وبساتين النخيل تلوح من بعيد . وكان المضيف بسيطاً متواضعاً غير منتظم يحدثك عن فاقة وعوز كبير بمقارنته مع قلعة ناصر . وظهر جابر الان يختلف عنه حين رأيناه في المرة السابقة يقود رقصة الحرب (الهوسه) فعلى الرغم من الاخبار الغامضة التي تصلهم الا ان الاشاعات انتشرت بعدم سير الامور في بغداد الى جانب ناصر، وان الحكومة ستصدر عليه احكامها . واختفت من وجه جابر علامات الشراسة وعدم الثقة التي كان يكتسي بها عندما وجدناه قبل مدة يحرض العشائر ضد اخيه ، وانما لاح واثقاً متأكداً من مستقبله ، لذلك استقبلنا وحيانا بأدب جم واريحية كبيرة .

وذهبنا بعد الظهر لصيد الخنازير وما غادرنا المضيف وجابر في طرادتنا حتى صاح عليه احد الاشخاص من مشحوف عابر : « هنالك اخبار من بغداد ... لقد انتهى ناصر !.. الحمد لله ! »

— الحمد لله !

رد عليه جابر بهدوء ولم يعلق بشيء آخر أو يعود ليتكلم عن القضية ثانية ، بيد ان دماغه لا بد محشوها لأن مستقبله كله قد تغير . ولم يكن قبل الآن غير شيخ بالاسم فقط ، اما بعد اليوم فستكون لديه اموال وارض ومركز مرموق وعدد من العميد الذين كانوا جنوداً لناصر . وفكرت بما سيكون عليه مستقبل ناصر ، ولأنني لا اعرفه ولا تعينني اعماله النخيشة تلك لذلك اثارته هذه الاخبار في نفسي بعض شفقة عليه . وتراءى لي انه سيكون شخصاً مطارداً لا اصدقاء له ولا ثروة ، وعليه ان يعيش بعد اليوم كعبود ، الذي قتل الشيخ دخيل في حادث اطلاق النار ، الى جانب مركز للشرطة في منطقة اعدائه حتى يأتي يوم تتضاءل فيه قوة الشرطة وحينئذ عليهم ان يتوقعوه جسداً ملقى في قناة طينية .

ولا زلت اتذكر جيداً ذلك المساء لبهائه وروعة سمائه . ولاحت النجوم القطنية وقد امتدت فوقنا بيضاء تحت زرقة السماء ، وكأنها اصابع عملاق ،

وظهرت ايضا وكأنها بناء صلب ، او انها شواطئ الممرات المائية او مقدمة الطرادة العالية . وانحدرنا مع التيار خلال بساتين النخيل الرائعة وشجر السنط المزهر والصفصاف والحشائش الربيعية النضيرة في ارض غمرتها المياه حديثا حيث القصب اخضر قصير نحيف . والطبيعة هنا الوان مختلفة براقة وجموع آكل النمل تزحم القصب وتلأ الجو . وكانت تطير فوق الماء بلعمان اخضر بديع واجنحتها المنشورة تكشف عن اللون النحاسي للبراق من تحتها بينما انحنى القصب الى الماء تحت ثقلها ، وكأنها وهي تملأ الهور قوس قزح تمزق في الجو فتناثرت الوانه فوق القصب .

ونامت كحلاء في مكانها المعتاد بين ملابسني ولزمت بسببها مكاني في الطرادة مع جابر عندما اخذ فيزيجر يخوض في المياه يطارد خنزيراً . ومن غير الممكن للانسان ان يمدق بلعمان في كل ما تحتضنه الطبيعة من حوله ، فنعيج المائي بحمله تيار الماء هنا وهناك وهو ساكن لا يتحرك وكأنه طيور محنطة . وفوق الرأس يخلق مرب يزيد على الخمسة آلاف من طيور اخرى بصخب هائل .

وغيا بين طيور آكل النمل ذات الاجنحة النحاسية اخذت اعداد من السهاك *Kingfisher* تطاير يلوניה الكستنائي والازرق ونوع آخر منها منقط باللونين الابيض والاسود ، واجسادها مرفوعة الى اعلى ورؤوسها تحت اجنحتها المرفرفة في الهواء وعيونها تحدق بانتباه في المياه الممتدة في كل بقعة ، ثم تغوص بحفة كالسهم في وضع عمودي لتلتقط صيداً لمحتة بنظراتها الحادة . ولاحت نهايات القصب يشاحبة وكأنها صوف خام على مغزل ماكنة غزل قديمة ، وفوقها طير من فصيلة مالك الحزين الجبار *Goliath heron* اخذ يخلق في الجو يجناحيه الضخمين وعندما قف على الارض تراه مججم الانسان .

وعدنا في المساء الى مصيف جابر خلال مسالك مائية ضيقة وضاغاف صلبة على الجانبين . وقد تأثر ملاحونا بكل سحر وروعة هذا المساء فأخذوا يسحبون الطرادة الطويلة بسرعة ، وراحت هذه تشق طريقها في القناة والى جانبنا كانت تتكون جدران ناعمة مندفعة من المياه تخضبها الشمس الغاربة بلونها القرمزي .

وكلما سرنا قليلاً شامدنا الرفوش *Terrapins* والسلاحف *Nud-turtles* تغوص في المياه امامنا قبل ان نقرب منها. وهبط الظلام قبل وصولنا الى المضيف، والقمر في السماء يشبه خنجر معيدي مقوس ملقى بعمده الابيض اللامع على قטיפئة سوداء .

وفي صباح اليوم التالي سافرنا الى مضيف يعود الى احد اخوة جابر . وظهر انه لم يقاس من ابيه ما قاساه جابر ، لأن مضيفه كان كبيراً محترماً يقع على ضفة نهر عالية ، واقواسه تزينها سيقان واوراق القصب الخضراء المثبتة هنا وهناك لاستقبال السنة الجديدة . وكانت البواري المحيطة بالمضيف من جهة النهر قد رفعت الى اعلى لتدخل النسائم المنعشة ، ومن حيث جلست رحلت احدق لأكثر من ساعتين في الطبيعة الغنية امامي ، فماء النهر يمر بالمضيف بسرعة خمسة او ستة اميال في الساعة وعرض النهر حوالي ستين ياردة ، ومع ذلك فخلال الساعتين اللتين كنت خلالها اُحدق في كل شيء امامي رأيت من الصعب علي ان ألمح ولو قدماً مربعاً من سطح الماء مكشوفاً تماماً . ولأن مسالك الانهار الجانبية كانت مفروشة بطبقة كثيفة من زهور بيضاء اللون وذهبية ، فالنهر كان يحمل على سطحه بساطاً ضخماً مرتجفاً من اجنحة حشرات ميتة . وفي مكان ما ، وربما هناك بعيداً خلال مجرى النهر ، فقسست من هذه الحشرات ملايين لاتحصى وجرفتها الامواه الهائلة في تيارها لتخلق هذا الموكب الجنائزي الهائل .

وفي المساء وصلنا مضيفاً كبيراً يقع في نقطة تلاقي ثلاثة نهيرات بينما تحيطه اليابسة من ثلاث جهات ، وهنا وهناك تناثرت بساتين غير كثيفة من النخيل . واستقبلنا على الضفة رجل زنجي ارشدنا الى المضيف ثم ذهب يبحث عن سيده الشيخ ليخبره بوصولنا . وفي داخل المضيف لم نجد غير رجل واحد كان يجلس متربهاً ويستند بظهره على الجدار الايمن . ولم ينهض قائماً عند دخولنا كما اعتدنا ذلك من قبل وحتى لم يرد على تحيئتنا بأكثر من شفاه تتمم بصوت غير مسموع . ولم يتيسر لنا ان نرى غير جانب صغير من وجهه لأنه كان ملفوفاً بالمقال تماماً كما

لو ان الرجل يشكو من ألم في أسنانه . وجلسنا نحن في الجهة المقابلة له ، ولكنه بقي بلا حراك غير ان عيونه السود راحت ترمقنا بنظرات تلوح ولا معنى تحمله . وكل ما استطعنا ملاحظته هو طول قامته هذا الشاب وقوة بنيته . ويلوح من مظهره انه ليس حاجباً من اولئك الذين يحتمل كثيراً ان يعبروا بمثل هذا الجلوس عن عدم ارتياحهم لدخولنا المضيف . وحاولت ان ارد عليه نظراته غير انه لم يحوّل عينيه . وبعد فترة قال تيزيجر : « انه شاب يلوح سيء النوايا ولا بد انك ستراه شخصاً يثير لنا المتاعب » .

ومرغان ما دخل علينا الشيخ واخذ المضيف يمتليء تدريجياً بالقرويين ، وبعد ساعة كان حوالي ثلاثين او اربعين رجلاً يثرثرون مع بعضهم البعض إلا ذلك الشاب فقد بقي وحده في صمته وسكونه . وتناولنا الطعام إلا انه لم يمد يده معنا ليتناول شيئاً منه ، وفوق ذلك كله لم يمنع احداً من الأكل معنا . ولاحظ تيزيجر كل ذلك فقال : « لقد اغلق عليّ الامر . ان هذا الشاب يخفي ناره في داخله . انه شرير وعدواني المنظر وذلك ما سيظهر بالتأكيد امام اعيننا » .

وانصرفت ساعة اخرى واخيراً ذكرنا بأننا متعبون واننا نرغب في النوم . ونهض الرجال واخذوا يغادرون المضيف الا ذلك الرجل فقد ظل امامنا بلا حراك . ولم نلاحظ عليه اي تغير يذكر فيما عدا نظراته التي اخذت تتركز اكثر فأكثر . وهمس احد العبيد بضع كلمات في اذن تيزيجر الذي التفت اليّ قائلاً : « انه جريح ، لقد اصابته طعنات خنزير في وجهه . وكان ينتظر طوال هذه المدة ليسألنا ان وجد لدينا ثمة شيء نفعله له . لقد اسأنا الظن به بتصوراتنا تلك . » و اشار تيزيجر الى الرجل فجاءه بخطى متعثرة .

كان وجهه ورأسه ملفوفين تحت العقال بلفائف مزقة تصلبت بالدماء التي تجمدت عليها . وبصعوبة كبيرة نجحوا في ازالة القطع القادرة عن وجهه . وعندما اخذت انظر في عينيه وجدته يعاني الاماً مبرحة .

كانت الجروح مفزعة مخيفه . وكان ثمة شيء قد مزق خديه وتعداهما ليخدش بجدة الاسنان العليا والسفلى معا ، وليصيب قسماً من اللسان ، وفوق ذلك كله فإن

هذه الثغرة في الجهة اليسرى من وجهه فاغرة وكأنها قد انتزع منها اللحم ولا يمكن التحامها بعد الآن . وفي جهة خده الأيمن جرح آخر ولكنه اصغر وعلى حوافه تنفرز قطع من ضرس مكسور ، وثمة جروح ورضوض اخرى تحت عظم الحنك في الجهة اليسرى ، وقد قطع بعض تلك الجروح عدداً من الاوردة العنقية ، ولاحظت جرحاً آخر على مسافة انش واحد تحت العين . ويد الرجل ورسغه الأيسر ايضاً لاحت قطعاً لحم متهرئة .

واخبرنا الرجل بأنه كان في صدر طراة مرت الى جانب خنزير نائم في متاهة من القصب ، وقفز هذا الحيوان فجأة ليقطب الطراة رأساً على عقب ويلرمي الرجل في الماء الضحل ، وفي لحظات قلائل حدثت كل هذه الجروح الخفيفة .

وعمل تيزيجر له كل ما في جهده . وبعد ان انتهى التفت اليّ قائلاً : « والآن ، هل ادركت تماماً كم من خطر كهذا كنت تتعرض له . ارجو ان تكون مرة اخرى حذراً في مثل هذه الحال . »

ولأني رحمت اقارن نفسي بهذا الرجل الذي ظهر وجهه وكأنه باسطرمة في مقلاة ، فقد كنت مشوقاً لسماع كل لحظة رهيبية من اللحظات التي مر بها مع الخنزير ، ولكنني لم احصل إلا على شيء قليل . كان الرجل قد رمى يده اليسرى امام وجهه ليتجنب طعنات الخنزير غير ان انيابه الحادة اخترقت خده واسنانه الى داخل فمه . وهذا كل ما عرفته عن الامر . وتراعى لي من غير المعقول ان يتوقع المرء من مثل هذا الرجل ان يتذكر كل شيء عن ذلك الهجوم المدمر الذي لم يدم اكثر من لحظات قلائل . ولكنني عجزت عن تصور المنظر ، ولم استطع ان تخيل كيف ان ناب الخنزير الاعتيادي المعقوف الى اسفل يمكنه ان يحترق الوجه من جانب ليخرج من الجانب الآخر .

ولم نر الرجل ثانية عند الصباح ، ووقفت مفكراً يجروحه عندما غادرنا القرية في وقت مبكر جداً لكي نتجنب الزيارة الرسمية التي سيقوم بها في ذلك اليوم وكيل مدير الناحية للقرية . ومرنا حوالي ثلاث ساعات والمسالك المائية كلها تسمح لنا بالعبور فيها ، وكل شبر من الماء يغطيه بساط رائع من زهور مائية

بيضاء تملأ الجور رائحتها العطرة ، وفي بعض الاماكن تغطي هذه الزهور البيضاء بركا وبجيرات كاملة فترى امام عينيك اميالا واميالا من سطح ابيض فوق الماء اكثر بهجة وروعة تحت الشمس من منطقة جليدية على الجبال . ولا زلت اتذكر زاوية معينة من هذه البرك ، حيث الزهور البيضاء والذهبية وقد ارفع فوقها على قسبة منحنية اثنان من طير السماك بالوانها الباهرة ، والى اعلى ثمة نسر *osprey* يخفق بجناحيه الضخمين ، وبين مخالبه المعقوفة الى اسفل سمكة كبيرة .

وفي حوالي منتصف النهار وصلنا الى قرية صغيرة تقوم على جزيرة واطئة ، ولم يكن فيها اكثر من اربعة بيوت ، وعلى مسافة مائة ياردة فقط عبر الماء قام بيت آخر وحده ، وذلك شيء يثير التساؤل والاستغراب لأن المعروف ان سكان الاهوار ينشئون بيوتهم متقاربة من بعضها البعض لاحتياجهم المساعدة فيما بينهم في ساعات الخطر . وتناولنا طعامنا في الهواء الطلق على جانب كوخ يواجه ذلك البيت الوحيد ، وكان لحمًا مشويا او بالأحرى محترقا لدجاجة ماء اصطدناها ونحن في طريقنا الى هذه القرية . واخذت كحلاء تمشي على القصب اليابس بين البيوت ، وبشراهة راحت تتناول شرائح من لحم دجاج الماء . وبعد مضي فترة من الوقت لاحظت ان البيت المقابل لنا كان مهجورا تماما ، لان لا شحوف مشدودة الى جانبه ، ولا ابي علائم تشير الى بشر يسكنونه ، مع انه كان على رصيف الجاموس كومة من الحشيش المقطوع اخذ لونه الاخضر الزاهي يتحول الى لون بني بتأثير حرارة الشمس .

وقد اكد مضيفنا ان البيت كان خاليا ، وان اصحابه هجروه قبل يومين . اما الناس الذين عاشوا فيه فكانوا على خلاف مع شيخهم ، والسبب هو ديون لم يدفعوها له ، ونظم الشيخ لذلك حملة تنتقم منهم . واتخذت هذه الحملة شكل جماعة صغيرة من الرجال تهجم على البيت في الليل لتجرده من كل شيء ثمين . وفي حوالي منتصف الليل تسالت جماعة من اربعة رجال ودخلت البيت بكل هدوء فلم يستيقظ احد ولكنهم ما ان رفعوا الصندوق الحشبي الذي يحفظ فيه رجال الاهوار اشياءهم الثمينة حتى استيقظ رب البيت . فقفز وتناول (فائه) التي كانت ملقاة على

الجدار المجاور له ، وقذف بها بكل قواه الى رأس اقرب رجل اليه فأصابته رؤوسها الخمسة المدببة في وجهه ، فصرخ وسقط على الارض بينما كان عمود (الغالة) الذي يبلغ طوله عشرة امتار قد برز من فوق رأسه . وفي هذه اللحظة استفاقت القرية الصغيرة كلها ، واخذت الكلاب تنبح عالياً والرجال يتصايحون عبر الماء . وسحب المهاجمون الرجل الجريح الى مشحوفهم وهربوا به في الظلام ، واستمرت القرية تتسمع توجع الجريح وصراخه حتى عندما ابتعد المشحوف عنهم كثيراً ليلفه الظلام المطبق . وكان الصندوق الحشوي ملقى عند الباب في نفس المكان الذي تركه عنده اللصوص .

وأطبقت على رب البيت حالة عنيفة من التوتر . لقد رأى بعينه عمود (الغالة) مثبتاً في رأس الرجل بينما كان مطروحاً على الارض ، وتأكد لديه انه اصابه اصابة قاتلة . وسيجعله ذلك بالتالي هدفاً لحملات ثأرية مخيفة ليست من قبل الشيخ وحده وانما من عائلة المصاب ايضاً . ولم يكن لديه بعد ذلك الا ان يجزم حوائجه القليلة في مشحوفه ويقود جواميسه وراء المشحوف هذا ويهرب هو وعائلته الى جهة اخرى بعيدة عن هذه المنطقة .

وحالاً سألهم تيزيجر عن الجهة التي جاءت منها الجماعة المهاجمة ، فذكروها له ... انها القرية التي قضينا فيها ليلتنا السابقة . وبعد لحظات عقب تيزيجر على الامر قائلاً: « لاجب في الامر ، فإن الجروح كان من الغريب ان يحدتها خنزير . ولا بد ان رؤوس (الغالة) الخمسة الحادة قد اخترقت كلها وجهه ، ولا بد انهم انتزعوها بعد ان مزقوا لحم وجهه بالسكين ، وكان ذلك سبب الثغرات الواسعة الخالية من اللحم على جانبي وجهه .

وحاولت ان اتذكر جروحه بدقة ، وادركت كم كان الرجل محظوظاً فإن الرأس الاوسط في (الغالة) يعادل في طوله ضعف الرؤوس الاربعة المجاورة ، وقد اصابه هذا الرأس في طرف حنكه فحال بذلك دون اختراق الرأس الاصغر حنجرتة وما فوق عينيه ، وتراعت لي الثغرات الصغيرة فوق عظم خده وتحت حنكه . ولا بد ان يد الرجل اليمنى كانت تحمل الصندوق وانه رمى يده اليسرى

في محاولة اخيرة ينقذ بها وجهه عندما رأى (الغالة) في الهواء تسدد نحوه ، وهذا سبب الجروح في راسه وفي المنطقة ما بين سبابته وابهامه .

ولاح نيزيجر متجها عندما سمع بكل هذه المعلومات لأنه ليس من انسان يتقبل ان يخدع وان تزييف له الحقائق .

وقضينا تلك الليلة في قرية كبيرة تدعى - نوافه - يسكنها فخذ من عشيرة - ابو محمد - كانت هذه القرية مزدهمة مكتظة تقوم فوق جزيرة واطنة ، ومكثنا في بيت احكم جانبه المجاور للنهر خوفا من تسرب المياه عند الفيضان ، ولذلك فلا يبي يصله المرء عليه ان يحتمل نظرات وعواء حاداً من الكلاب الشرسة . وكان مضيفنا غائبا في زيارة للأضرحة المقدسة فاستقبلنا ابنه وهو شاب في الثامنة عشرة خبيث الملامح لم يظهر ارتياحا لنا . وسلمناه امتعتنا واعمدة طرادتنا (المرادي) لضمان حفظها وسلامتها . وقال لي نيزيجر : « هل تريد مراقبة هؤلاء الناس عن كذب .. فلا شيخ يشرف عليهم الآن ، وهذا شأنهم منذ ثلاثة شهور ، وهو خير امتحان لقوة الحكومة . وغياب الشيخ معناه انهم ليسوا مسؤولين امام اية سلطة قرية يخافونها ، وهذا شيء سيء جدا مع مثل هؤلاء القرويين . »

وجلبت كحلاء كالعادة انتباه واعجاب الجميع ، وسرعان ما احضر لها احد الصبية طيرين تأكلها . وكان هو قد نتف ريش اجنحتها فبقيتا مستسلمتين في قبضة يده ، وعيونها تلمع بالخوف والرهبة وجسداهما الصغيران يرتجفان مع دقات قلبيهما . وذكر لنا الصبي انه اصطادها بواسطة شبكة من النوع الذي يستخدم لصيد البط في الاراضي الزراعية المحيطة بالاهوار ولكنها بشكل اصغر ، وقد اعتاد الصبي ، كما قال ، ان يصطاد في كل يوم عدداً من مثل هذه الطيور الصغيرة ليلعب بها . وعلت الآن ما الذي يعنيه هذا اللعب عندهم ، انه يعني نتف ريش الجناح من الطير ثم يسحبه الطفل بواسطة خيط يشد قويا في رجل الطير الصغيرة حتى اذا اصابه التعب من كثرة سحبه واللعب به تركه لتلتهمه احدى القطط . وكان الصبي فخورا بهارته في الصيد ، صيد الطيور التي يلعب بها . ونظر

الينا بعيون ناعمة في وجه جميل كالزهور وعرض ان يخرج الينا شبكته . وبعد هذا تراهى لي انه لا يمكن لأحد ان يقضب منه او يلومه اكثر من ان يلوم طيراً جميلاً ساحراً ولكن ... من الطيور الجارحة . وكأنما كان نيزيجر يعبر عما يدور في خاطري حينما قال : « ان من العبث ان ترشد او تنصح هؤلاء الناس فهم كما تراهم عليه الآن لا معنى لديهم للألم الذي يعانیه حيوان معذب . وانت بدورك لا تستطيع ان تترك هذين الطيرين ليعودا الى عالمها الحر فقد نفي الصبي ريش الجناح منها . »

وتناولها نيزيجر مني وضغط ابهامه على قلب كل منهما ، ورفرفا قليلا وارتحفا وانقطعت بعد ذلك انفاسهما الاخيرة . والتهمت كحلاء لحم الصدر منها ، ولاحت مثلها جميلة رائعة وان كان ذلك هو يومها الاخير في الحياة . وفي المساء اصطدنا لها طيراً كبيراً تناولت لحمه بشراهة ونهم ، ولكنه كان .. آخر وجبة لها في الحياة .

الجو في ذلك المساء بارد ، وفي سقف البواري فوق رأسي فجوة تراءت منها النجوم لامعة ، ولكن نمة ريح باردة خفيفة اخذت تهب لتخلق ذلك الحسيس الذي يمزق صمت الليل عند الجدار المجاور لي . ولم تشعر كحلاء بالراحة ولم تأخذها لحظة من هدوء على الفراش . ولم يحل في خاطري انها تريد ان تموت لذا لم اتمالك اعصابي معها . وكانت الحركة طوال الليل لا تهدأ حول النار الموقدة خلف رصيف القصب القائم في منتصف الدار .

واستيقظت مرة لأرى مضيفنا الشاب يقف على الرصيف عارياً وهو يعيد ترتيب المرادي التي اسندت على رصيف القصب هذا . وفي تلك اللحظة كنت قد نسيت ما حدثني به نيزيجر لذا لم اظن في الامر شيئاً .

وفي الصباح اخذت كحلاء الى بقعة من ارض يابسة خارج القرية لأسمح لها بالسير ، وهناك فقط ادركت انها مريضة جداً . فعندما وضعتها على الارض لم تتحرك وانما بقيت ساكنة وعيونها ترسل الي نظرات طافحة بالحزن والكآبة ، وعندما رفعتها ثانية اخذت جالاً تبحث عن الظلبة الدافئة تحت قبصي . وقررت

ان اخبر نيزيجر بالأمر ، ولكني عندما عدت الى القرية وجدته محاطاً بحشد كبير من الناس وكلهم يتصايحون من حوله حتى عجزت عن الاقتراب منه . ولم استغرب ذلك الوضع فإن نيزيجر كثيراً ما يعجز عن السيطرة على تلك الساعة التي يقضيها في التطيب ، وما اكثر ما يتكرر مثل هذا المنظر امام عيني . ولم استطع ان ادرك بان ذلك الحشد كان غاضباً - وقد لاحظت سابقاً كيف تتشابه التعابير الانفعالية عندهم في كل الاحوال - ولم اتعب نفسي في التفكير اكثر من هذا . وفي ذلك الوقت كنت استطيع في بعض الاحيان فهم خلاصة محاوره تدور بالعربية ، مع اني لا اتكلم غير القليل منها ، ولكن ليس هناك صوت معين واحد في هذا المرح يمكنني تمييز كلماته . واخذت التجول مرة اخرى وانا اؤكد لنفسي ان كحلاء ليست اسوأ مما كانت عليه عندما اطعمها جابر قطعة من لحم الضأن، ورواغت نفسي بانها لا بد ان تشفى . وكانت القرية نصف خالية من الناس بسبب الحشد الكبير الذي كونوه حول نيزيجر ، لذا انتهزت بدوري فرصة هذا الوضع غير الاعتيادي لالتقط ما اشاء من الصور بحرية اكثر ومن دون ان يلتفتوا حولي او يرمق الكامرة احد . وكانت صفوف مقدمات الطرادات عند الضغاف تنعكس في الماء الى اسفل وكانها محالب مخيفة مرعبة ، وفوقها في السماء الزرقاء غيوم بيضاء ، ترسم هناك نفس اللوحة .

وفي ذلك الصباح حدثت اكثر من مائة واحدة لحيوانات صغيرة ضعيفة فقرب حافة الماء اخذ يتعثر جمع من فراخ الوز الوحشي كان قد فقس بيضه تحت دجاجة ، ومرعان ما حط غراب اسود وابيض على مقدمة مشحوف قريب منها واخذ يجذب فيها بعين لامعة باردة فوق منقار يشبه سكينه رجال الكوماندو ، السوداء . واخذت الدجاجة تصيح في محاولة لابعاد فراخها عن الماء ، ولكن عندما تأخر احدها عن البقية وراح يجاهد في اللحاق بها هبط عليه من الاعلى جناح ضخم ، وفي لحظات تناوله الغراب ورفع من الارض وعندما ابتعد قليلاً اخذ يقضي عليه ببطء شديد ، فقد كان يدعه يهرب لعدة مرات دون ان يمسه حتى اذا حاول هذا ان يلحق امه بصوت خفيض خطفه ثانية ، وبعد المرة الثالثة رأيت الفرخ وقد اقتلعت احدى عينيه . وكان لا يزال حياً عندما حمله الغراب عبر النهر وارجله الصغيرة

تتلاعب في الهواء ... ورحلت اتساءل مع نفسي : كم جامداً صلباً قلبك
ايها الخالق !

وعندما اقتربت من الحشد ثانية كان ثيزيجر يشق طريقه خلاله وهو يصرخ بصوت عالٍ لئلا يسمعه . واذكر انه كانت هناك امرأة تلوح بيدها بقوة وتصرخ بالفاظ لا يفهم منها إلا انها سب وقذف ، وعلى رأسها استقرت قفة من فضلات الجاموس . واخذ ثيزيجر يخطو بين القرويين وكأنه عملاق بين اقزام وهو يصرخ بهم بكلمات خشنة عنيفة . وهناك على البعد تمكنت من مشاهدة ملاحينا وهم ينقلون امتعتنا الى الطرادة . كان ثيزيجر يملكه الغضب تماماً وهو يصيح : « لقد سرقوا امتعتنا في الليل ، انه مضيعنا المراهق .. ولكن كلهم اشتركوا معه .. كل القرية . ووصلنا الى الطرادة وما دفعناها في الماء لمغادرة القرية حتى وقف ثيزيجر في صدرها يتلفظ بكلمات خشنة على الحشد العدو الذي كان يقف عند الشاطئ . واستمر على ذلك حتى ابتعدنا عنهم مسافة خمسين ياردة .

وبمضي الوقت اخذت تتوضح لي تفاصيل القصة ، ولكن ثيزيجر ما زال يمتلكه غضب عنيف لا يرغب فيه ان يتكلم مع احد إلا ان يكون عدوه ليفرغ ما في قلبه من نار والم .

كانت مرادي طرادتنا المصنوعة من الخيزران قد مرقت خلال الليل ووضعت مكانها مرادي اعتيادية نافية (ويمكن التمييز بين النوعين بسهولة ، فأعمدة الخيزران المستوردة تكون قوية وصلبة ، بينما (المرادي) الاعتيادية تصنع من قصب الهور السهل الانكسار) وتذكرت اني رأيت جانباً من هذه السرقة عندما استيقظت في احدى ساعات الليل لأرى الشاب يقف عارياً على الرصيف ، ووضعته ذلك وهو عار قد دبر لي جعل المرء يظن بأنه استيقظ لتوه من النوم بسبب سقوط المرادي عليه وانه كان يحاول ترتيبها ثانية . وعندما اكتشف ثيزيجر الامر وجه التهمة للشاب ، غير ان هذا ادعى بأن المرادي التي اودعناها لديه كانت من القصب ، فأثارت تلك الكلمات ثيزيجر فضربه بقبضته على اذنه ، ولكنه استمر في ادعائه ذلك وفي اعلانه بأنه بريء ، إلا ان ثيزيجر لم يداخله شك في ظنه .. واخيراً عرض

الصبي أن يعيد اليه المرادي التي مرقها .

واستغرق هذا العمل منه بعض الوقت لأنه كان قد وزعها على جميع البيوت المجاورة وفي كل مرة يعود فيها بواحد من المرادي يدعي انه كل ما لديه منها ولكن في كل مرة تدفعه التهديدات للذهاب الى احد البيوت المجاورة ليعود بمردى آخر حتى اكتمل عددها . وحينئذ ترك ثيزيجر البيت وابتلعه ذلك الحشد العدو حين لمحتة وانا عائد من خارج القرية لأخبره عن كحلاء . وفي الطرادة اخذ يتمم : « لقد مررنا في الحقيقة بمخاطرة كبيرة ، فقد كان من السهل أن ينفجروا علينا بغضب جنوني قد يستخدمون فيه بنادقهم ضدنا وانت لا هم لديك إلا التجول كما لو انك سائح في الغاتيكان ؟ » .

وحيثما اكتمل لدينا عدد المرادي ذكر قروي حملناه معنا خلال اليومين السابقين بأن هراوته قد مرقت منه ايضاً في الليلة الغائتة . فأرسل ثيزيجر ملاحظنا حسن ليخبر الشاب المغرورق العينين بدموعه بأنه ما لم يرجع الهراوة حالاً فإن ثيزيجر سيرجع اليه ثانية . وبلا كلمة او اعتراض اخرج الشاب الهراوة من تحت (البارية) المفروشة على الارض . وعقب ثيزيجر على الامر قائلاً : « ان هذا هو ما يحدث لديهم عندما يبتعد عنهم شيوخهم ، في حين لن تجسر عشيرة يتأسها شيخ ان تقدم على مثل هذه السرقة . وقد ذكرت لك بأنهم يحتاجون دائماً الى من يلاحظهم ويراقب اعمالهم » .

✱ ✱ ✱

وقمنا لساعة واحدة بسفرة عبر ممرات مائة تحتنق بالزهور في هور تطبق عليه خضرة زاهية ، وتوقفنا عن السير عند قرية كبيرة تقوم على جزيرة اخرى . وقد حزن في نفسي اننا عندما هبطنا الى اليابسة كانت كحلاء قد فارقت الحياة . وفي أيامها الاخيرة كانت ضعيفة لا تهدأ لحظة واحدة في مكانها ، وفي داخل البيت كانت تبحث عن الزوايا المظلمة بين اعمدة القصب والجدران . وربما وجد في صندوق الادوية الضخم الذي نحمله معنا شيئاً يمكننا ان نتقدم به ، ولكننا لم نفكر بغير دهن الخروع ، لأن كل ما تناولته تلك الليلة بقي في داخلها . ولم يجد

معها دهن الخروع غير قليل نفع ، ومع انها اخذت ترضع من القنينة بصورة اوتوماتيكية فإنه لم يكن يتردد في داخلها غير بقية رمق من حياة . وجلست الى جانبها لمدة ساعتين عاجزاً عن القيام بأي شيء لها حتى عاد ثيزيجر من عمليات التطبيب ليقول لي : « من الافضل لك ان تخرج لبعض الوقت واتركني لملاحظتها فإنه الجحيم بعينه ان ترابط هنا طوال الوقت دون ان تتمكن من القيام بأي عمل مجد لها . ان هذه آخر قرية في الاهوار وربما لن تتمكن من رؤية واحدة اخرى .

وخرجت فعلاً وتذكرت اشياء كثيرة كان يودي ان التقط صوراً لها ولكنني كنت دائماً اؤجل هذا الامر ، وعندما حاولت ذلك الآن وجدت ان احد اقسام كامرتي قد كسر فعدت الى البيت ثانية .

وغادرنا القرية بعد ساعة . وعندما احسست مرة اخرى بدفء كحلاء بين قميصي وجسدي غمرتني لحظة من أمل كاذب انها ستعاود صحتها ، ولكن القدر كتب عليها الاتمكث هناك . فقد اخذت تتسلق على جسدي بقوة غريبة ، وفرشت نفسها على ارض الطراة باضطراب ونشرت لها منديلي بين ركبتني لأعمل لجسدها المحموم بعض ظل يحميها من الشمس . واطلقت كحلاء مرة صوتاً ضعيفاً واهناً ، وكان ذلك الصوت الوحيد الذي صدر عنها قبل ان تنام ، وبعدها بلحظات قلائل لاحظت رعشة تسري في كل جسدها الضعيف ، ووضعت عليها يدي واحسست بالصلابة الغريبة التي تعترى الحيوان في الثواني الاولى لموته ، وأخيراً .. اصبحت تحت يدي شيئاً رخوياً .

— ماتت ا .

قلتها بالعربية ليتوقف ملاحونا عن التجذيف . وسألني ثيزيجر : « هل انت متأكد من ذلك ؟ » وراح ملاحونا يحدقون في وجهي بنظرات من الشك .

— هل ماتت تماماً ؟

اخذوا يسألونني المرة تلو الاخرى . وناولتها الى ثيزيجر فتمدل جسدها الصغير الطفل في يده ، وقال : « اجل ... لقد ماتت ! » ودفعها بهدوء على سطح الماء

فسقط جسدها الميت على بساط الزهور الابيض والذهبي وظهرها الى اسفل
ومخالبها ذات الغشاء اللحمي الى جانبها .. تماماً كما اعتادت ان تنام عندما كانت
تسري في شرايينها دماء الحياة الدافئة.

– روحوا ! .. روحوا !!

قالها تيزيجر لملاحينا بالعربية ، غير انهم جلسوا بلا حراك ينقلون نظراتهم بين
عيني والجثة الصغيرة التي كانت تطفو على بساط الزهور ، وتملك تيزيجر الغضب
لمنظرهم هذا ، الا ان عماره استمر يتطلع الى وراء حتى استدرنا الى ازاوية من
قصب اخضر صغير ، واخيراً غابت كحلاء عن انظارنا الى الابد !

واخذت الشمس تلقي بأشعتها الباهرة على الزهور البيضاء في حين تحلق فوقها
طيور السهاك الجميلة الزرقاء ، ولكن كل هذا لاح لي لا شيء الى جانب كحلاء
وميتتها الفاجعة . ورحت اعزي نفسي بأنها ليست الا واحدة من آلاف مثلها
يصيدها المعدان في الاهوار بفالاتهم ذات الخمسة رؤوس القاتلة أو يطلقون عليها
النار أو يأخذونها وهي صغيرة لتموت ببطء في قبضة قروي ليس فيها غير القليل
من التأثر ، ومهما يكن من امر فقد ماتت ... كحلاء !

انتهت الرحلة ... وفي مساء اليوم الذي ماتت فيه كحلاء وصلنا نحن - مرقد العزيز - على نهر دجلة . وكان الشيخ الذي نزلنا في مضيفه غائباً في سفرة الى بغداد ، ومضيفه خالياً الا من خادم زنجي . وعلى الرغم من ان ثيزيجر لا تهزه عاطفة تجاه الحيوانات الا انه لاح في ذلك اليوم متأثراً لحزني على كحلاء . وعندئذ فقط استغربت نفسي وانا اقطع كل تلك الابعاد والمسافات وحدي مع شخص انكليزي لم اعرف عنه الا القليل .

وكان ثيزيجر قد قرر العودة الى البصرة فقط لغرض جمع رسائله قبل ان يغادر ليقتضي اوائل الصيف بين قبائل الرعي . واقترح علي خلال حديثنا ان امكث معه بدلاً من العودة الى انكلترا ، وقال لي : « ستتمكن هناك من رؤية اسلوب آخر من الحياة . » و اضاف قائلاً : « وستتمكن ايضاً من الحصول على كلب بحر آخر . » واخيراً قررنا ان نمكث في البصرة مدة نجمع خلالها رسائلنا القادمة وتمكن فيها من ارسال بعض الرسائل الى اهلينا واصدقائنا ثم نغادر سوية بعد يومين او ثلاثة ، ولكن هذه الخطة لم يكتب لها التنفيذ .

ومن - مرقد العزيز - قطعنا حوالي ستين ميلاً لكي نصل الى البصرة . وعندما وصلنا القنصلية العامة هناك وجدنا ان رسائل ثيزيجر قد وصلت بينما لم يرد الي شيء . فأبرقت الى انكلترا ولما لم يصلني شيء خلال الايام الثلاثة التي انتظرتها ، حاولت الاتصال بلندن تلفونياً . وكان علي ان احجز للمكالمة قبل اربع وعشرين ساعة ، والاتصال التلفوني الى انكلترا لا يحصل من العراق الا خلال ساعة معينة من اليوم . ساعة لا يمكنني فيها الحصول على احد في لندن بالنظر للتفاوت في الوقت بين العراق وانكلترا . كان الخط التلفوني في اليوم الاول معطوباً ، وفي اليوم الثاني وجدت

الاتصال مقطوعاً بسبب عطلة دينية ، وفي اليوم الثالث رافقتني الحيلة أيضاً في محاولاتى . وقررت الالتحاق خلال اسبوع واحد بثيزيجر الذي عاد الى مضيف عبد النبي .

وقبل يومين من موعد مقابلتنا عدت الى القنصلية العامة متأخراً بعد الظهر بعد غياب عدة ساعات عنها ، فوجدت ان بريدي قد وصل فحملته بلهفة الى غرفة نومي لأقرأه ، وهناك وجدت اثنين من رجال الاهوار وقد تقرقوا على ارض الغرفة ، ولفت نظري كيس كان ملقىً الى جانبها وفي داخله شيء يتلوى ويتمايل من حين الى آخر .

وقدما لي رسالة من ثيزيجر قرأتها فاذا هي : « اليك كلب البحر هذا ، انه ذكر مفظوم . واظنك ترغب في اخذه معك الى لندن . اعط الى - عجم - ، الذي حل معنا محل كذبة ، رسالة تخبرني فيها بوصول الحيوان . »

نزعت اربطة الكيس ، فقفز منه مخلوق صغير يختلف تماماً عن اي كلب بحر رأيت من قبل . ورفع لي وجهاً جامداً بأنف اسود ونظر حوالبه ونفض فروه القصير .

الا ان مجبل - كان كلب بحر من فصيلة غريبة تماماً على العلم الحديث ، وهو حقاً يستحق كتاباً خاصاً به ... كتاباً ارجو ان تتاح لي فرصة وضعه عندما لا تضطرب في ذهني ذكريات السنة التي قضاها معي ..

فَهِلَ الْكُتَابُ

- فِي هَذَا الْكِتَابِ مُعَانَاةٌ شَخْصِيَّةٌ صَادِقَةٌ لِلْحَوَادِثِ ، وَمَعَايِشَةٌ أَمِينَةٌ لِأَقْسَى الظُّرُوفِ .
- رُكُوبٌ لِلْأَخْطَارِ ، وَتَحْمَلٌ لِلزَّعِجَاتِ وَالْمُنْغِصَاتِ ، بِلِ وُقُوفٍ أَمَامَ الْمَوْتِ وَجَهَا لِوَجْهِه .. !
- نَفْحَةٌ رُومَانِيَّةٌ تَلْفُ أَسْلُوبَ الْكَاتِبِ فِي وَصْفِهِ لِمُظَاهِرِ الطَّبِيعَةِ وَتَحَدِثُهُ عَنْهَا .
- رُوحٌ وَاقِعِيَّةٌ نَفَادَةٌ وَاعِيَّةٌ ، لَا تَفْضِلُ أَصْغَرَ الْأَشْيَاءِ وَأَنْفَهُ الْمَخْلُوقَاتِ وَأَدَقَّ التَّفَاصِيلِ .
- بَسَاطَةٌ مَحَبَّةٌ وَوُضُوحٌ وَصِرَاحَةٌ لِأَحَدٍ لَهَا ، مَعَ رَشَاقَةٍ فِي الْعِبَارَةِ تَشْفُ عَمَّا وَرَاءَهَا مِنْ فِكْرٍ .
- تَصْوِيرٌ دَقِيقٌ شَامِلٌ لِحَيَاةٍ فَنَّةٍ مِنَ الْفَلَاحِيَّتِ فِي مَنطِقَةِ الْأَهْوَالِ الْعِرَاقِيَّةِ بِلِسَانِهَا الْمَكَافِحِ وَحَيَوَانِهَا الْغَرِيبِ وَبَنَاتِهَا النَّادِرِ .
- كِتَابٌ عَنْ بَيْئَةِ عَرَبِيَّةٍ بِسَلَمِ مَغَامِرِ أُرُوجِي يَتَضَمَّنُ دَعْوَةً لِلْكَتَابِ الْعَرَبِ أَنْ يَكْتُبُوا عَنْ مِثْلِ هَذِهِ الْبَيْئَاتِ بِأَمَانَةٍ وَصِدْقٍ .

